جولة في ربوع أوروبا

بين مصر وايسلنده



من مشاهدات سائح مصري

محمد ثابت

مدرس أول العلوم الاجتماعية بمدرسة القبة الثانوية

الناشر: مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة

« الطبعة الثانية »

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٥٤ — ١٩٣٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لعل أشهى ما تتوق إليه نفسى وأمتع ما يطمئن له جنانى جولات أقوم بها فى مختلف البلاد ، لا فرق عندى بين سهل وحزن وبدو وحضر أجوس خلالها منقباً فى غير ملل ، رغم أنى أركب فى سبيل ذلك الصعب ، وأحتمل الألم ، وكأنى أستشعر بهذا اللذة الكاملة التى لا أبتغى عنها عوضا ؛ والحق أن فى الرحلات — التى أغرمت بها منذ الصبا — لخير مجدد لنشاط الجسم ، ومضاء العزم ، إلى حفز فى الهمم ، وتقويم فى الخلق ، واعتماد على النفس .

وها أنا أقص فيما يلى نبأ رحلتين جبت فيهما كثيراً من أرجاء أوربا قمت بأولاهما فى صيف سنة ١٩٢٦ برفقة زميلين فاضلين هما : الأستاذ على الاهوانى ، والأستاذ عبد الرحمن السيد ، وقد حللنا بلاداً عدة من إيطاليا وفرنسا وسويسرا وانجلترا ؛ وفى رحلتى الثانية فى صيف سنة ١٩٣٠ لم أوفق إلى زميل ، فاعتزمت القيام بها وحيداً ، وكنت فيها أمضى عزماً إذ قطعت ما يناهز سبعة عشر ألف كيلومتر بين بر وبحر ، وحللت أربع عشرة دولة ، وكأنى رأيت فى عزلتى مشجعاً لى على توخى الاقتصاد والجرأة ، كنت إذا حللت بلداً أودعت حقائبى مكتب الأمانات ، وخرجت أختاف إلى الفنادق حتى أهتدى إلى ما يروقنى فى غير توريط ولا اعنات ، ثم ألجأ إلى دار كتب أتصفح ما بها من مصورات (كرتات)

عن المدينة ، وأناقش صاحب المكتبة فيها جميعاً كى أتفهمها ، أبتاع منها ما أستملحه ، وأستزيد بخريطة يدوية للمدينة أتصفحها بأمعان بعد أن أعين موضع المكتبة والنزل منها ، وكنت على خططها أسير دون أن ألجأ إلى بوليس أو دليل ، ولقد كان فى ذلك عون لى على تفقد أحياء المدينة فى أيام قليلة .

وقد كنت طوال جولاتى أحاول درس البلاد التى حللتها من الوجهة الجغرافية والاجتماعية ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، وكانت مصر العزيزة ماثلة أمامى دائماً أحدث القوم عنها وأشيد بذكرها فى جميع البلدان ، وما كان أشد ألمى عند ما كان القوم يذكرون عن مصر فى سياق حديثهم معى معلومات مشوهة نحن براء منها ، ذلك لأن الدعاية لمصر فى تلك الأنحاء مهملة ، اللهم إلا فيما يذيعه ذوو الأغراض السيئة مما يحط من قدرنا ويصورنا فى صورة الهمج الرعاع ، بينا تجدهم يذيعون فى دعاياتهم لبلادهم من المحسنات ماهو مبالغ فيه إلى حد لا يطابق الواقع مطلقاً ، وما كنت أفتر لحظة عن دفع تلك المفتريات عنا ، وإقناعهم بأن مصر تفوق كثيراً من بلدان أوروبا حضارة ونظاما ، وإن فاتنى أن أزود نفسى بمجموعة من الصور المصرية المشرفة أمثال تلك التى تراها تعرض فى جميع مكتباتهم ، وبها أفخر مبانيهم وأجمل أحيائهم وحدائقهم ، وأجل آثارهم ومشاهدهم . حقاً ليس فيما تعرضه المكتبات المصرية عنا ما يشرف ، إذ لا تجد صورة لمنظر طبيعى أو أثر تالد ، أو مكان طريف ، إلا ويشوه جماله أحد الباعة المتجولين ، أو الشحاذين ، أو أبناء السبيل ، أو المشعوذين فى ثياب بالية وشكل مزرى ، وفى استطاعة هواة التصوير الشمسى ورجال الفن فى مصر — ولا أعفيهم من اللوم — أن يقصدوا إلى إعفاء صورهم مما يحط من قدر مصر كما يفعل زملاؤهم فى البلاد الأوروبية ، وكم كنت أحاول أن أعثر على صور بعض الأحياء القذرة والبيئات الفقيرة —

وهى كثيرة حتى فى أكبر عواصمهم وبخاصة فى دول شرق أوروبا — لكن بغير طائل ، وقد حاولت مراراً أن أصور بنفسى بعض أحيائهم القذرة فكان يمنعنى المارة من ذلك ويظهرون لى استياءهم الشديد ، أذكر من ذلك حادثتين كدت أفقد فيهما آلة التصوير ، وأساق إلى البوليس ، إحداهما فى سوق السمك فى برجن من أعمال النرويج ، وهو من أقذر أحياء المدينة ، والأخرى فى إحدى الأزقة المختنقة التى يقطنها فقراء ستكهلم ، وكم كان إعجابى شديداً بسيدة إيسلندية جمعنى وإياها مجلس فكانت تحاول تصوير إيسلنده وكأنها جنة الخلد ، ولم تقنع بالقول بل كانت تتطوع بمالها ووقتها وترافقنى إلى الأماكن القاصية مخافة أن آخذ عن بلادها الفقيرة فكرة سيئة ، وكنت ألاحظ أنها تحاول إبعادى عن الأماكن القذرة ، وكانت ترجونى أن أكتب عن بلادها ما راقنى عند عودتى لمصر جزاء ما أسدت إلىّ من خدمات ، وقد وصلنى منها خطاب تنتظر أن أوافيها بما نشرته عن إيسلنده فى مجلاتنا ومصوراتنا .

وعجيب جداً أن ينكر أخوانى المصريون هناك شخصياتهم ويخفوا جنسيتهم ، فهم يشتركون فى الحديث ، وكأنهم من بلد غير مصر ، وقد ضمتنى مجالس كثيرة ببعضهم فكانوا يرجوننى ألا أعلن أننا مصريون ، كأن فى ذلك وصمة ومعرة مع أنى أعدها خير دعاية لمصر ، ومن أجدر بالدعاية الحسنة من طبقة المتعلمين ! أذكر حديثاً جرى بينى وبين بعض النرويجيين المثقفين فى ازلو أبدى الرجل فى نهايته شدة دهشته من أن فى مصر متعلمين أمثالى ، وصارحنى بأنه ما كان يعرف إلا ان مصر بلد همجى . وآخر فى جوتبرج من أعمال السويد ، بعد أن حدثته طويلا عن مصر ومفاخرها سألنى قائلا (أحقا أن فى مصر كثيراً من التماسيح ، وأنكم تأكلون لحمها وبيضها ؟) وثم حادثة ثالثة فى ستكهلم جرت لى مع ربة النزل

التى حللته ، إذ فاجأتنى يوماً وهى باسمة أن هاهو شىء عن مصر يروقك بالطبع ، ويؤنس من وحشتك هنا ، وما كان أشد اندهاشى عند ما رأيتها تقدم لى جريدة مصورة سويدية تنشر صورة لمنظر صحراوى به بعض الإبل ، وحداتها القذرون ، وإلى جانبه منظر لامرأتين فى أردية الغجر الرثة ، إحداهما تضرب على الدف ، والأخرى ترقص ، ومنظر ثالث لمصلّى ريفية بجانب بعض العشش القذرة ، ومن حولها صبية عراة وبها بائس ومشعوذ فى أسمال مهلهلة . أحدهما واقف ، والآخر ساجد وقد كتب تحت الجميع (شىء عن مصر) وثم حادثة رابعة فى ايسلنده عند ما كنت أحدث بعض رفاق الإيسلنديين فى رحلتى إلى (جلفس وبركان هكلا) وأذكر شيئاً عن مصر أن فاجأنى أحدهم بقوله : أنا لا أزال أحفظ كلمة مصرية . قلت له وما هى ، فقال بعد تلعثم : (بقشيش) .

وفى الحق أن للقوم العذر أن جهلوا كل شىء عن مصر، وتطورها لأننا أهملنا الدعاية من جميع نواحيها ، من ناحية التصوير ، وناحية الكتابة ، وناحية الكلام وجانب كبير لا شك واقع على سفاراتنا فى الخارج . فأنت كلما دخلت سفارة أجنبية زودوك بالمطبوعات المصورة عن بلادهم فى ورق صقيل ، ولغات متعددة ، يقدم كل ذلك بسخاء ، وبدون مقابل ، أما فى سفاراتنا فلا تجد شيئاً من ذلك رغم أننا نفاخر بالكرم المصرى .

وفى اعتقادى أن كثيراً من أمهات المدن فى مصر ، وبخاصة القاهرة والاسكندرية لا يعوزها إلا القليل كى تشابه أكبر العواصم الأوربية ، ولعل أكبر نقص عندنا يعزى إلى أجناد البوليس ، وتهاونهم فأنت ترى رجال البوليس فى العواصم الأوربية الكبرى ينتقون من بين الضباط المثقفين ، ويؤجرون مرتبات تسمو بنفوسهم ، وتجعلهم مثال الاحترام ، ويغلب أن يتكلم الواحد منهم

لغة أجنبية أو لغتين وهو فى موقفه على رؤوس الطريق يمثل عظمة بلاده ، ويسير حركة المرور ، ويهدى كل من لجأ إليـه فى غير امتعاض أو ملل ، وقد يعاونه فى مهمته بوليس آخر يتجول على مقربة منه ، ويصلح ما قد يقع فيه للمارة من أخطاء ، حدث مرة أنى لم أهتد إلى مكان بعض الأندية الرياضية فى استكهلم فلجأت إلى البوليس ، ولما لم يعرف العنوان الذى أردته أخرج من جيبه دليلا ، وصادف ان لم يكن هذا النادى قد أدرج به فلم يتركنى ، بل تنحى عن موقفه لزميله ، وقادنى إلى حانوت به (تليفون) و بحث لى عن رقم (تليفون) النادى ، وخاطبه وأصلح منه العنوان ، ثم أرشدنى إليه وعاد مكانه ، وهو طوال تلك المدة باش الوجه باسم الثغر . وحدث مرة أخرى أنى سألت البوليس فى لندن عن مكان ، فوصفه لى لكنى أخطأت السير وانحدرت جهة اليسار بدل اليمين ، فلم أشعر إلا ورجل البوليس من ورائى ينادينى أن قد أخطأت السير يا سيدى فخذ طريقك من هنا بعد أن أوقف حركة المرور ، وانطلق يعدو ورائى . فأين هذا من بوليسنا وقد سألته مرة عن شارع فى حى الحلمية ، هو واقف أمامه فأضلنى بارشاده الخاطىء ، ولما هدانى بعض المارة رجعت أعاتبه فقال (هعملك آه) بعد أن عبس فى وجهى ولم يقبل على قولى .

فماذا علينا لو وسعنا نطاق مدرسة (الكنستبلات) وخرجنا فيها الكثير من أبنائنا المهذبين الذين بدأت طلائعهم تبشر بالنجاح ؟ وإن أنس لا أنس تهاون بوليسنا فى معاقبة من يلقى بالقامات ، وفضلات البيوت إلى جوانب الطرق حتى فى بعض الأحياء الكبيرة فى كومات منفرة ، فأين هذا من بلاد ألمانيا ، وفيها إذا نزع الرجل غلاف قطعة حلوى ليأكلها طواه فى جيبه حتى يمر على سلة المهملات ، أليس فى فرض غرامة بسيطة خير مانع لهذا العبث . حدث أن دخلت فى مناقشة

عن مصر مع سيدة مجرية تقطن القاهرة ، قابلتها على الباخرة عند عودتنا ، وكنت أدفع مفترياتها وألزمها الحجة فى كثير من الأمور غير أنى شعرت بضعف حجتى لما أن تعرضت لموضوع قذارة الطرق و إلقاء القمامات بها ، وانتشار أبناء السبيل فى شكل تعافه الأعين ، ولا أدرى هل النقص فى هـذا راجع إلى نقص فى القانون أو تهاون من البوليس . فما أحوجنا إلى تعيين بوليس لمراقبة الآداب والنظافة العامة.

ذلك بعض ماعنّ لى أصدر به كلمى علّى أصيب به نفعاً لمصر التى أرجو لها من الصميم نهوضاً ، ولأبنائها العاملين البررة هناءة وخيراً ما ؟

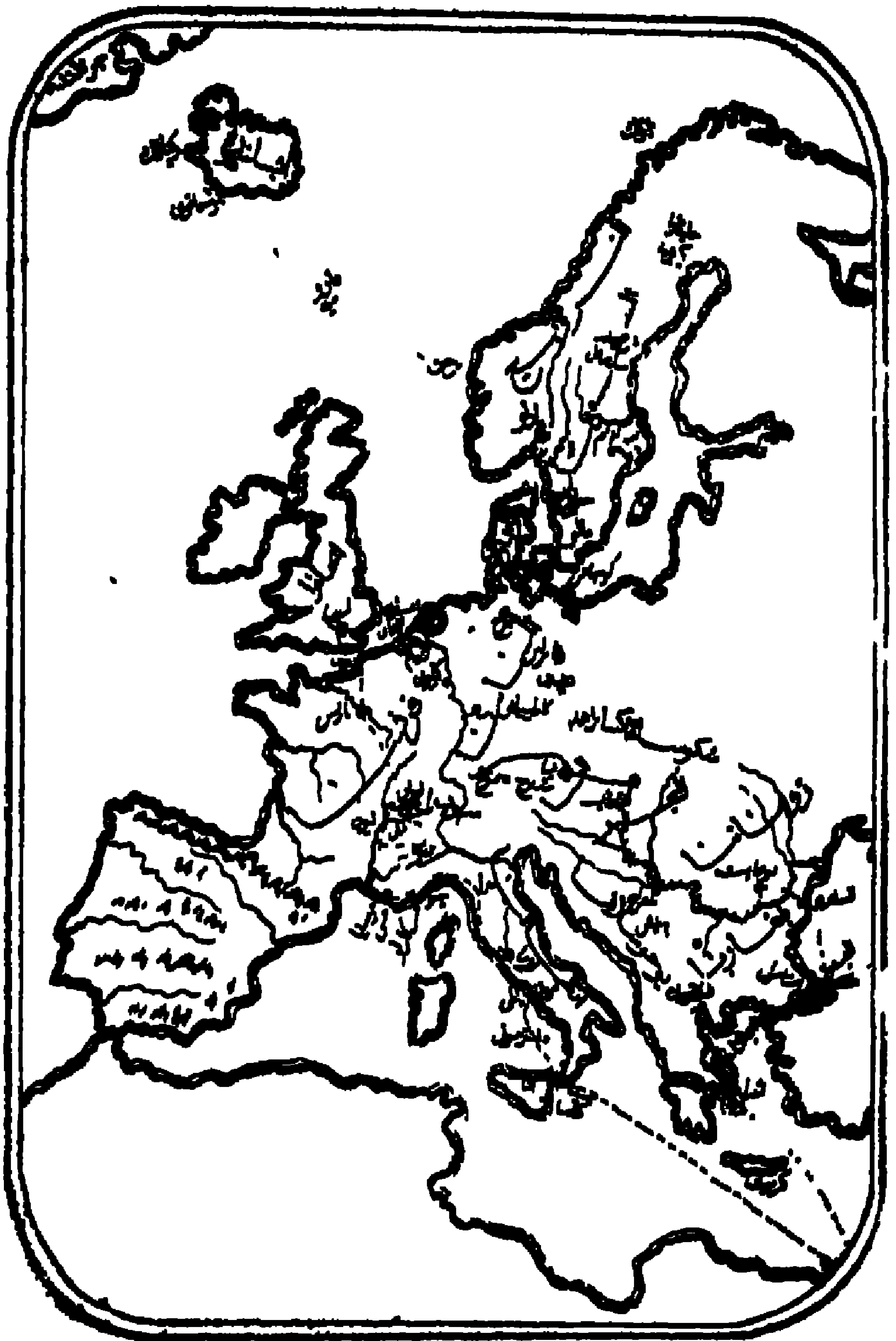
مقدمة الطبعة الثانية

لقد كانت رغبتى الأكيدة ، يوم بدأت جولاتى ، فى ربوع الدنيا ، أن أدرس شعوب العالم ، وأتدسس إلى الصميم من حياتهم ، لأخلص إلى ما يسود بينهم من الأخلاق والعادات ، وقد كنت أصدر عقب كل « جولة » كتابا يضم مشاهداتى عن البلاد التى زرتها .

وكم كان سرورى عظيما أن تهافت أبنائى البررة وزملائى الكرام على اقتناء هذه « الجولات » ، حتى نفدت الطبعة الأولى ، وهأنذا أحقق اليوم رجاء الكثيرين ممن لم تسعد « جولاتى » بشرف اقتنائهم لها ، فأقدم الطبعة الثانية بعد أن أعملت فيها يد التهذيب ، وأضفت إليها من مذكراتى بعض ما كنت قد أغفلت نشره فى الطبعة الأولى .

وإنى لسعيد إذ أرى « مصر » تسمو بدراسة الجغرافيا إلى العناية بوصف الشعوب وحياة الإنسان ، تلك الناحية التى قصدت إليها جولاتى هذه .

ولقد زادنى غبطة مالاحظت من أن كثيراً من الإخوان تتجه عنايتهم إلى الرحلات ، حتى لقد تحدّث إلىّ فى ذلك غير قليل من حضراتهم ، ولعلهم يحرصون على تدوين مذكرات ينشرونها بعد عودتهم ، حتى نستطيع بجولاتهم وجولاتى أن نزف إلى أبناء هذا الوطن العزيز ، بلغته العربية « كتاب الدنيا » يطالعون فيه أحوال شعوب تقدمت ركب الأمم ، وأخرى تخلفت ، وعسى أن يكون لنا من هذه أحسن العبر ، ومن تلك أجمل الأثر .



رحلة سنة ١٩٢٦ عن طريق إيطاليا

« « ١٩٣٠ « « « البحر الأسود

الرحلة الأولى

يونية سنة ١٩٢٦

إيطاليا – فرنسا – سويسرا – انجلترا

ما وافت الساعة الثالثة من مساء الجمعة حتى نفخت الباخرة (إيطاليا) فى الصور إيذاناً بالسفر ، وسرعان ما رأيناها تنحى عن الشاطىء فى هدوء وتشق ماء الثغر فى خيلاء ، حتى إذا ما برحت حواجز الأمواج جدت فى المسير ، وهى تمخر عباب اليم ، وقد خلفت فى مؤخرها ذيلا من الماء الأبيض يمتد إلى أفق السماء تخاله نهراً من اللبن يعلوه الزبد وسط زرقة البحر الصافية ، وكأنه نهر المجرة قد اختط له طريقاً فى كبد السماء ، وما لبثت الإسكندرية على عظمتها تنضمر أمامنا وتتضاءل ، حتى إذا ما كانت الرابعة مساء تلاشت عن الأنظار واختبأت تحت الأفق ، عند ذلك تجلت أمامنا عظمة الرحمن عز وجل خالق هذا البحر اللانهائى إذ كنا ننظر ذات اليمين وذات الشمال فيرتد البصر خاسئاً لا يرى سوى مسطح من الماء الأزرق قد جعدت أديمه الموجات وأطبقت عليه قبة السماء فى زرقة شاحبة .

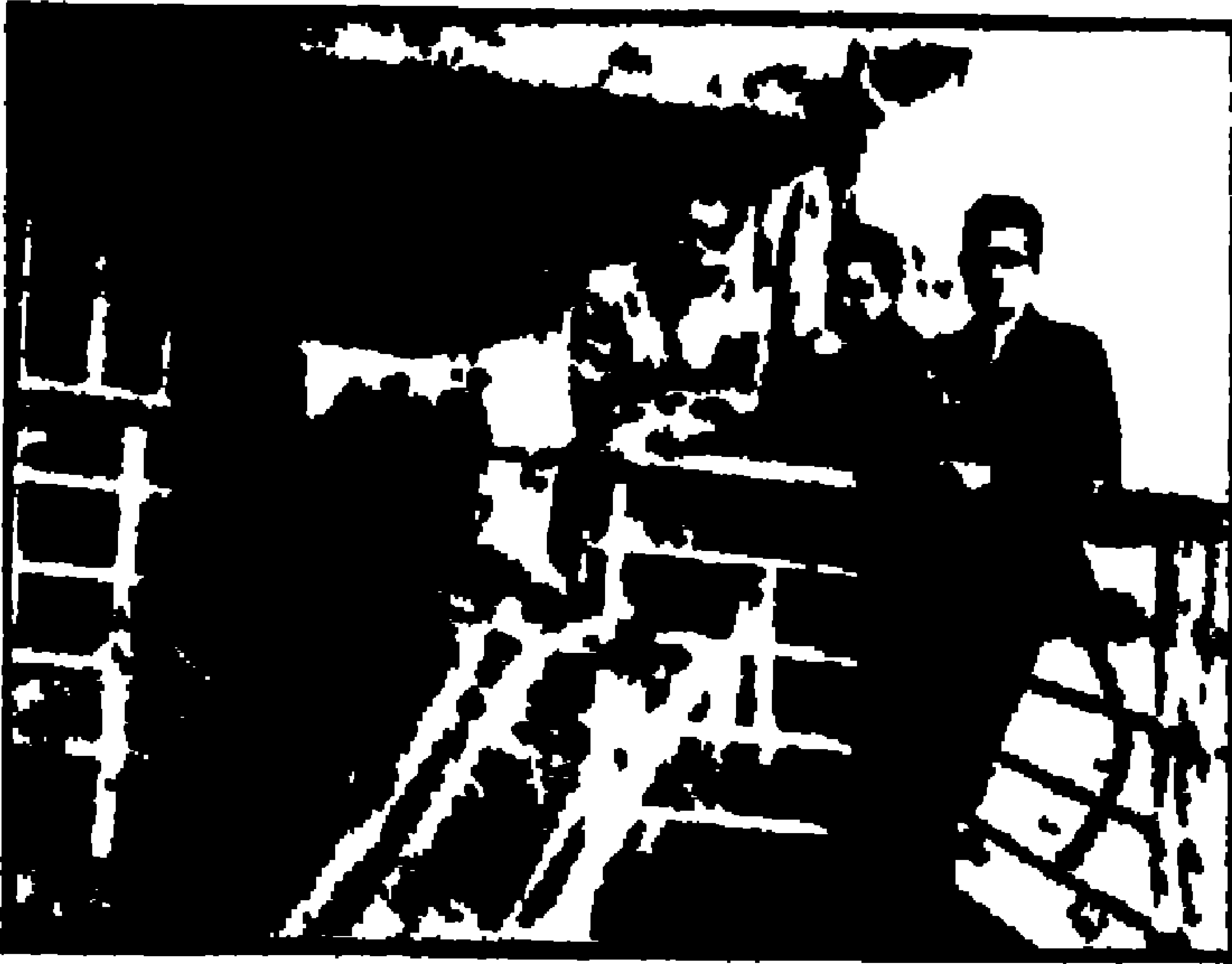
وفى ظهر اليوم التالى بدت كنديا (كريت) فى سلسلة من الجبال الشاحبة ، وكأنها قد أوفدت إلينا سرباً من الطير الأبيض يحمل إلينا تحياتها ، وظلت ترفرف من خلفنا مودعة زهاء ثلاث ساعات ، حتى إذا ما أعياها الجهد آبت إلى وطنها ، ونحن نرمقها بنظرات ملؤها الرحمة على ما احتملت فى سبيلنا من عناء .

وفى أصيل اليوم التالى تجلت على بعد أرض كلابريا أقصى ولايات إيطاليا فى

الجنوب الغربى ، بدت حائطاً صخرياً شاهقاً يمتد إلى أفق السماء ، وكان كلما قار بناه يسفر عن ربى وتلال فى سلاسل ومدرجات إلى الجنوب ، تشق جوانبها وديان غيض ماؤها وتحضن فى حجورها قرى تطل على البحر فى انحدار ، وتحف بها الخضرة النضرة وأشجار الزيتون ، وظهر مخروط بركان إتنا إلى يسارنا يقذف من جوفه بدخان كالسحاب ، وقد رست الباخرة على كاتانيا (وأنا عائد لمصر) ست ساعات كاملات استطعت خلالها أن أجوب المدينة فى عربة فبدت قذرة متربة ، بها كثير من مصانع الكبريت الذى يستمد من إتنا ، ولقد اعتليناه فبدا منفراً رهيباً يظل المدينة بأبخرته للصعدة أبداً ، وقد ظلت الباخرة طوال المدة تحمل وسقها من الفاكهة خصوصاً الكمثرى كما فعلت ذلك من قبل فى نابلى .

وما كاد الليل يرخى سدوله حتى اجتذبت أنظارنا كثرة الثريات والأنوار ذات اليمين وذات الشمال ، فكانت تتلألأ وهى متناثرة فى مدرجات تفصلها نجاد مظلمة ، وكأنها البلور قد نثر متقطعاً ، وأبدع ما تجلى ذلك عندما ضمنا بوغاز مسينا بين جنبيه ، فكانت مدينة ريجيو وقرية سان جوفنى تتألق سنى إلى اليمين ومدينة مسينا إلى اليسار ، ومن أعجب ما استرعى أنظارنا : حيوان الدلفين الذى أخذ يعترض السفينة فى مقدمها و يسابقها نحو نصف ساعة وهو ينفر فى الماء غاضباً ، و يثب بعنف نحو الباخرة كأنه يريد الوقوف فى سبيلها حتى لا تزعجه فى موطنه ، وهو لم يجاوز بعد المترين والنصف طولا ، وكان كل طريقنا فى البوغاز وما يتبعه شمالاً فى جو غائم ما عهدناه من قبل ، وقد أمطرتنا السماء رذاذاً ، وأنذرت بالوابل وحجبت عنا ضوء القمر و بصيص النجوم ، حتى أمسينا بعد مغادرة البوغاز ونحن فى ظلام دامس وليل بهيم .

عصفت الريح الشمالية بشىء من العنف وزاد بردها فأخذ الركبان ينسلون



(سكل ١) عبر البحر الأبيض فى طريقنا إلى إيطاليا

فرادى إلى مخادعهم حتى اقفر ظهر الباخرة من الناس عدا نفر قليل كنا من بينهم وآلينا على نفوسنا ألا نأوى إلى مضاجعنا حتى نمتع النظر بجمال — بركان سترمبلى — زينة البحر التيرانى — مكثنا نرقبه على مضض حتى انتصف الليل حين استبان على بعد ، وفى غير وضوح على عكس ما عهد القوم من قبل ، ولبثنا نتطلع إليه دون أن نظفر من توجهه بطائل حتى خلناه خامد الأنفاس ، وما كاد اليأس يتسرب إلى نفوسنا حتى لفظ على غرة حمما متأججة كأنها أوار الجحيم ، علت فوق كأسه ثم تدفقت ، وهى تموج فى هدوء إلى جانب المخروط الأيمن ، وكانت كلما هوت أضحت حمراء قاتمة اللون . ثم انتهى أمرها إلى الظلمة والخمود .

قمنا فى الغد مبكرين ، وكان الجو هادئاً ونسيم الصباح عليلا ، ومنظر جبال إيطاليا عن يميننا ، وصخرة كابرى الشاهقة عن يسارنا ، وأطل علينا ڤيزوف من الشمال فى علة مخاريط متجانبة غير متميزة أظهرها اثنان ، تعلوأ كبرهما كومات من بخار أبيض يتصاعد الهوينا من قمته ، وتدفع به الريح إلى سحب السماء فيمتزج بها ويبلغ عنان الجو . وقد انتثر المخروط من أسفله بالقرى ذات الأبنية الحجرية البيضاء تتخللها منابت الأشجار ، ولما أن وضح جانبه الشمالى تجلى خليج نابلى فى قوس ، تزينه ميناؤه ذات الأرصفة المنسقة والأبنية الفخمة التى تبدو فى

مدرجات يعلو بعضها بعضاً ، وقد أشرف ڤيزوف عليها من الجنوب كالحارس الأمين وأظلها بدخانه ، فكان هـــذا المنظر ساحراً فذاً حقق فى نظرنا المثل الإنجليزى (See Naples and die)

نابلى : هبطنا المدينة فاسترعى أنظارنا بها علو مبانيها وتشابهها ، فهى تكاد تتألف فى مجموعها من ستة أدوار ، غير أنك قلما تجدها فى علو واحد لاختلاف ارتفاع أراضيها الصــخرية ، لذلك كان غالب الطرقات عظيمة المنحدر ، كثيرة الليات ، وقد رصفت بمربعات من حجر البازلت الأسود قدّ من صخور ڤيزوف ، وكثيراً ما يصل الأزقة بعضها ببعض درجات من الصخر بين العشر والخمسين عدا ، ومما أدهشنا سير الترام فوق تلك المنحدرات بمهارة عجيبة ، وقد زود (بفرامل) تستوقفه على الفور ، أما أهل المدينــة فلا يكاد يفرق المرء بينهم و بين المصريين والشرقيين فى السحن والعادات ، ولولا أزياؤهم ولهجتهم الغربية ما شعرنا بأننا غرباء بينهم ، ينادى باعتهم فى الطرقات و يحاولون تحســين سلعهم على الطريقــة المألوفة فى مصر ، ومن بينهم بائعو (الكوارع) يحملونها على لوحات خشبية لا فرق بينهم و بين بائعى (لحم الراس) عندنا ، وعلى رءوس الطرقات ترى محال شراب الليمون والبرتقال يعصرونه لك على الفور ، ويظهر أن السكر عزيز لديهم لأنك لا تكاد تحس وجوده فى شرابهم ، وبالمدينة عدد كبير من المقاهى ، وغالب ما يقدم بها الخمور وبخاصة النبيذ والجعة ، على أن بها قهوة منفرة المذاق ، وشاياً ليس فيه من طعم الشاى ولا رائحته شىء ، والقوم مدمنون على تناول النبيذ بكثرة عجيبة ، أدهشنى مرة أن رأيت أحد فقراء نابلى يفترش الأرض أمام بابه فى بعض الأزقة القذرة ، وقد أمسك فى يده بإناء به سائل أحمر أخذ يبلل منه قطع الخبز و يلتهمها بشهية ، وكنت أخاله عسلا ، ولشد ما كانت دهشتى لما علمت أنه نبيذ ، والنبيذ

يصنع فى كل مكان ، وغالب الأهلين يعصرونه فى منازلهم لكثرة الكروم والفاكهة عندهم .

ويضايق السائح هناك تراب فيزوف تثيره الرياح فى كل مكان ، فتجعل الطرق قذرة منفرة ، وبخاصة فى الأحياء الفقيرة التى تحكى أزقة بولاق والحسينية عندنا إن لم تفقهما فى كثرة أوضارها ، وترى فى غالب أركان الأزقة تماثيل للمسيح أو العذراء تعلق عليها المشاعل ، وتقدم لها القرابين تبركا ، ويركع



(شكل ٢) بعض المتسولين القذرين فى أحياء نابلى القديمة

أمامها المارة على نحو ما يفعل عامة المصريين أمام بعض الأضرحة ، وينغص السائح كثرة الباعة المتجولين ، وجماهير المتسولين ، والكناسين الذين يجمعون أعقاب السجاير ، ويعرضونها للبيع .

والإيطالى نشيط مجد رقيق الحاشية كريم ، فلا تكاد ترى مشروعاً يتطلب الجهد الكبير إلا ويكون له يد فيه ، والبلاد اليوم ناشطة فى إقامة المنشآت الإصلاحية وإن أعوزها المال على أثر تدهور سعر (الليرا) الإيطالية بعد الحرب ، وأخرها كثيراً انتشار الأمية بنسبة كبيرة ، فغالب المزارعين — وهم نصف

للسكان — أميون ، و يغلب أن يشترك الملاك مع المستأجرين مناصفة فى الإنتاج ، وتلك الطريقة تحسن انتاجهم كثيراً مع عدم إجهاد الأراضى .

وقد ألجأهم العوز المالى إلى فرض ضرائب متعددة على الأهلين والزائرين هذا ومن أعجبها ضريبة (dazio) على كل ما يدخل القرى والمدن أو يخرج منها ، فهى تشبه (الدخولية) التى كانت تجبى فى مصر قديماً إلى ذلك ضريبة (البولو) التى كنا ندفعها فى الفنادق والملاعب والمقاهى وما إليها .

والقوم مغالون فى وطنيتهم يشيدون بذكر إيطاليا فى كل أحاديثهم ، و يترنمون بعظمتها القديمة ، وكنا أينما انتقلنا فى الريف حيانا الجم حتى الأطفال التحية الفاشستية بمد الذراع مع المناداة بحياة إيطاليا وموسولينى ، وهم شجعان ، ولا يزال كثير منهم ميالين إلى المبارزة والضرب بالخناجر . أما نساؤهم فنصف متحجبات خصوصاً فى الريف ، ولا يكثرن من الخروج بعيداً عن دورهن ، فهن أشبه بالشرقيات ، وسلطة الأزواج عليهن ملموسة ، و يشتغلن مع الرجال فى الحقول ، و يحملن على رءوسهن أثقالاً مرهقة و يسرن بها بعيداً ، و يزيد ذلك وضوحاً فى جنوب إيطاليا .

والطعام القومى المحبوب (المكرونة) تلك التى يجيدونها صنعاً وطهياً ، وفى البلاد كثير من مصانعها ، ويكاد يعيش الفقراء هناك عليها هى وقليل من الطماطم (الصلصة) ، لذلك فإنك ترى بائعيها فى الطرق يطبخونها فى أوان كبيرة و يمسكون بلفائفها البالغة فى الطول ، وهم يصيحون لاجتذاب المارة الذين يقبلون على التهامها كاملة فى غير تقطيع ، وهم يلعقون فى الإناء بشكل منفر ، وكنا نلاحظ أن هذه طريقتهم فى أكلها حتى فى المطاعم الكبرى ، حدث مرة أن كنت أقطع لفائف المكرونة بسكين فى أحد المطاعم ، وكان من حولى كثير من الإيطاليين



(شكل ٣) بعض فقراء إيطاليا فى أسمالهم البالية يروجون لغذائهم القومى (المكرونة) على قارعة الطريق

يلعقونها كاملة بشكل استرعى نظرى وأثار سخريتى منهم ، لكنى عجبت حين رأيتهم يتهامسون وهم يسخرون منى فى الوقت نفسه لأنى لا أعرف كيف ألتهم (المكرونه لعقاً !) .

والقوم يستخدمون شحم الخنزير فى الطبخ عوضاً عن (المسلى) ، ولقد جزعت نفسى لما علمت ذلك جزعاً شديداً ، وطلبت أن يشوى اللحم لى خصيصاً أو يحمر فى الزبد ، على أنى كشفت بعد أن اللحم والدجاج كلاهما مما تعافه النفس لأن الحيوان لا يذبح بل يخنق ويبقى الدم جامداً فيه ، ويا ليته ابن يومه ، فلقد يمضى على موته أيام . كل ذلك كان من أكبر المنغصات ، على أنى كنت أجد فى المكرونة الشهية والفاكهة الحلوة ، والجبن المنوع خير عوض .

سان مرتينو : ضاحية من نابلى شاهقة العلو ، يقطنها طبقة الارستقراطيين بيوتها فخمة تحف بها الحدائق الغناء ، ولكى نصل إليها نركب تراماً معلقاً ، وهو يسير

على ثلاثة قضبان ، الأوسط منها مسنن ، وفى أعلى قطعة من تلك القرية الجميلة ، جلسنا فى نزل يشرف على خليج نابلى ويواجهـه ڤيزوف ، وتكسو الخضرة السفوح إلى البحر ، تتوسطها الأبنيـة المتناثرة ، تزينها الأشجار ذات قطوف الفاكهة الدانية ، حتى قيل إن المنظر من هناك أبدع ما تتجلى فيه نابلى على الإطلاق .

بمبياى : ولعلها أجدر الأماكن الأثرية هناك ، أعادت إلى مخيلتنا شيئاً من العظمة الرومانيـة القديمة ، لأننا رأيناها عظيمة فى امتدادها ومبانيها وطرقاتها ، واسترعى نظرنا ضيق الطرق وعمقها عن الأطارين الجانبيين ، وعند رؤوس الطريق ترى معبراً من صخور كبيرة يتخطاه من أراد عبور الطريق ، وكلها مرصوفـة بحجر البازلت ، وهـذا يشعر بأن المطر كان أكثر يومئذ منـه الآن . أما المبانى فبعضها بالبازلت والبعض بالآجر الأحمر ، وعلى ناصية الطرق ترى حوض الماء من الصخر تعلوه عين مائية تخرج من فم سبع وفى كل بيت بهو فسيح تحوطه الأعمدة ويتوسطه حوض المـاء ، وتقام الحجرات على الجوانب ، وقد ترصف الأرض بالفسيفساء وتنقش الجدران بالرسوم الخرافية ، وفى كل بيت مقصورة للصلاة يرسم بها أحد الآلهة ، وأجل الأبنية جميعاً (الفورم) أو المجمع العام ، وعنده دار القضاء ثم الاغتسيار ، كل ذلك يشعر بأن المدينة كانت مسكناً لقوم مترفين ثار من شمالها الشرقى ڤيزوف سنة ٧٩ ميلادية فأصلاها — على غرة منها — ناراً بترابه الساخن أحرق البلدة بمن فيها حرقاً غير كامل لذلك ظلت البيوت حافظة لجدرانها و بعض نقوشها وأثاثها بتشويه بسيط ، وفى المتحف الذى أعد فى مدخلها جثث بعض من دهمهم الرماد تبدو محبسة ، ويكاد يرتسم عليها ما لاقوه ساعة الاختناق من آلام كذلك تعرض بعض الأقمشة والغلال والخبز وما إليها من مخلفاتهم .

سرنتو : غادرنا بمبياى سائرين فى طريق زراعى به بيوت قروية متناثرة



(شكل ٤)   اطلال بمبياى ، ومن خلفها فيزوف الذى غدر بالمدينة فطمرها

وسط المزارع لمسافة مترامية ، وقلما كنا نعثر على مجموعة من بيوت فى مكان واحد ، ويظهر أن نظام القرى المصرية متقاربة المنازل غير متوافر هناك لأن كل فلاح إيطالى يمتلك قطعة أرض يخدمها هو وزوجه وأولاده ، ويقيمون مسكنهم وسطها ، وهناك تشابه كبير بين فلاحهم وفلاحنا فى بعض أدوات الرى وفى السير حفاة الأقدام ، وفى أكل خبز القفار ، وغالبهم مثلنا كرام الطباع يسرون بالغريب .

أخيراً وصلنا سرنتو ذات المزارع الجبلية الخلابة ، فأينما وليت ببصرك رأيت الأشجار والأعشاب تكاد تغطى كل مكان حتى أفاريز البيوت نفسها ، ذلك لشدة خصب التربة التى تنقلها الرياح من أتربة ڤيزوف ، وهناك أكلنا المكرونة الشهية بعد أن شاهدنا مصانعها ورأيناها تنشر فى الشمس على عصى طويلة . ثم شبعنا من فاكهتها اللذيذة ، والضاحية ممتازة بنبيذها الأحمر المشهور باسمها ، وكان ڤيزوف فى كل هذه المدة على مقربة منا بدخانه الأبيض ومخروطه الشاهق يكسى بالخضرة إلى ثلثى ارتفاعه ، ويمكن الصعود إليه فى ترام إلى قبيل القمة بقليل ،

وهناك نرتدى أحذية خشبية ونسير فوق أرض مرتجفة إلى فوهته ، ويقودنا دليل إلى أسفلها وسط الغازات والأبخرة المصعدة التى تجعـل المرء يتصبب عرقا ، وفى بعض الأيام لا يسمح لأحد بنزولها ، وذلك إذا كان البركان غاضباً وأبخرته كثيفة مخافة الاختناق .

سلفاتارا : قصدنا الجانب الشمالى من نابلى فى طريق صخرى كثير الليات الثعبانية ، مناظره جبلية ذات أشجار باسقة وزهور عبقة تبهر بألوانها الأنظار حتى وصلنا إلى بركان سلفاتارا ، وهو فوهة هابطة لبركان سعتها نحو كيلو مترين ونصف ثار سنة ١١٩٨ ، وطمر بعض القرى المجاورة ثم خمد ، وظل كذلك حتى بدأت تتجدد حركته منذ سنين . به عدة فتحات تتصل بجوف الأرض ، بعضها يقذف ببخار أبيض والبعض بأوحال حارة ، والبعض برمل أبيض تحركه الأبخرة من تحته فيبدو كالمنصهرات المضطربة ، ويقال إن له صلة بفيزوف لأنه يهدأ كلما نشط فيزوف والعكس بالعكس ، وتكسى أرضه بالفوسـفور والزرنيخ والنشادر وقليل من البازلت ، وإذا ضربت الأرض بحجر سمعت رنيناً يشـعر بأن باطنه خاو ، ومن غريب أمره أنك إذا أشعلت ناراً زاد تصاعد البخار من كل مكان حولك بكثرة عجيبة تكاد تخفى عنك من تراه من حولك ، ولا يعلم سر ذلك إلى الآن ، ويأخذ القوم منه مسحوقاً كالجص لصنع التماثيل ، ويطلق على البركان اسم فيزوف الصغير .

قصدنا إلى حمام نيرون فى شمال سلفتارا ، وهو نفق فى الجبل طوله زهاء نصف كيلو متر كثير التعرج ، دخلناه من فتحة ، فكنا نشـعر بزيادة الحرارة والأبخرة تعبقه رائحة الـكبريت ، حتى إذا ما قاربنا نهايته كنا نتصبب عرقاً ، قيل أن نيرون كان يزور الجهة ويستشفى بمائها ، وله سرير من الصخر (كالمسطبة)



(شكل ٥) بعض من اختنقوا فى بمبياى ، وقد فاجأهم فيزوف بثورانه

وصخرة يقال أنه سجن فيها أمه حتى ماتت ، وله هناك برج من الآجر الأحمر ، وقلعة من الصخر تشرف على البحر .

كاپرى : عبرنا خليج نابلى فى باخرة من الشمال إلى أقصى الجنوب فى ساعتين ونصف ، وهناك وصلنا صخرة (كاپرى) وارتفاعها ٥٦٥ متراً وهى مقعرة الوسط يبدو صخرها مشرفا على الماء فى استقامة مخيفة تكسوه الخضرة وتتوسطها القلات يؤمها المرضى للاستشفاء والضاحية كثيرة المقاهى والفنادق ، ذات طرقات جبلية متلوية ، وغالب صخرها جيرى تتخللها كتل بركانية كثيرة ، وتسقى بماء المطر الذى يدخره القوم فى صهاريج ، وإذا نفد الماء من صهريج سار السكان بعيداً ليقترضوه من جيرانهم ، وفى أقصى الغرب مغارة يسمونها (جرتاآزورا) أى الكهف الأزرق دخلناها من فتحة ضيقة لا تكاد تسمح لأكثر من زورق نحيل أن يخترقها ، لذلك استلقينا فى الزوارق على ظهورنا ، وما كدنا نجتاز المدخل حتى بدت من الداخل فسيحة شاهقة ، ولما كان غالب صخرها مشرفا على البحر فى

فبو تسرب الضوء إليها من تحت الماء أسفل حافتها الصخرية فأكسب الماء لوناً أزرق صافياً ، وضوء من أسفل بحيث إذا غمست يدك فى الماء بدت بيضاء منيرة كأنها شعلة من كهرباء ، وكانت تبدو حافة الزورق الملامسة لسطح الماء وكأنها إطار من لجين .

روما : برحنا نابلى الساعة التاسعة صباحاً صوب روما التى وصلناها فى منتصف الساعة الثانية بعد الظهر ، وكانت المناظر كلها جبلية بديعة إلا قليلا من الوهاد تكسى بالمزارع كالكتان والذرة والسمسم ، وكانت المدرجات تكسى بالكروم ، والجبال بالأعشاب ، والطريق كثير الليات والانفاق ، ولم يسترع نظرنا بادىء الأمر شىء غريب فى روما سوى أبنيتها الصخمة ، وتماثيلها العديدة التى تتوسط كل الميادين فى اسراف كبير ، والفوارات التى يردها الماء من الينابيع الطبيعية كأنه مثلج كامل العذوبة ، وقد تفنن القوم فى تصميمها وتنسيق عيونها وتدفق مائها بما يثير الدهشة والاعجاب .

كنيسة سان بيترو : زرنا كنيسة سان بيترو أكبر كنائس الدنيا فكانت والحق يقال آية فى الفن ومثلا للعظمة ، أمامها ميدان رحب تتوسطه مسلة مصرية قديمة علوها ٢٥ متراً وضع فى قمتها صليب — وفى روما عدد كبير من مسلاتنا — وعلى جانبيها فوارتان ، ويحيط بالميدان من جانبيه بهوان من الأعمدة فى أربعة صفوف متوازية كل صف يكون قوساً تؤدى خطوط النظر بين عمدها إلى بؤرة واحدة إذا وقفت فيها بدت صفوف الأعمدة وكأنها صف واحد ، ويعلو كل تلك الأعمدة تماثيل للقديسين ، أما داخل الكنيسة فليس فى مقدورنا أن نصف ما حوى من معجزات الفن ، فمن تماثيل ينقصها النطق والحركة إلى



(شكل ٦) داخل كهف (جرتاتزورا) بنابلى

صور زيتية وفسيفسائية تبهر العين إلى مظاهر دينية رهيبة ، وأعجب ما هنالك القبة ذات العلو الشاهق صعدنا فى قبوها الأسفل ٤١٦ سلماً ، ومع ذلك لم نأت على آخرها ، وفى قمتها كرة مفرغة تسع نحو العشرين نفساً ، مع أنها تبدو من الميدان وكأنها كرة القدم ، كل ذلك من هندسة ميخائيل انجلو ، وتبطنها من الداخل نقوش من الذهب والمزيكو ، يقف المرء أمامها فى ذهول . أمر بإقامة الكنيسة قسطنطين على المكان الذى كان يسمى ملهى نيرون والذى قيل أن بطرس قتل فيه ، وفى عيد الميلاد من سنة ٨٠٠ توج البابا ليو الثالث الامبراطور شارلمان هناك ، وزاد القوم فيها كثيراً ، وآخر جزء زيد بها قبة ميخائيل انجلو ويقال إن الكنيسة تكلفت عشرة ملايين من الجنيهات ، وينفق على إصلاحها سنوياً ٧٥٠٠ جنيهاً ، وإلى يمين المدخل تمثال لقسطنطين ، وإلى اليسار آخر لشارلمان ، وهناك تمثال نحاسى للقديس بطرس اعتاد الزوار تقبيل أقدامه أو لمسها حتى كادت تمحى تجاعيد الأقدام من كثرة اللمس ، وفى الحفلات الكبرى تغص

الكنيسة من حجاج الكاثوليك ثمانين ألفاً يباركهم البابا برفع يده .

قصدنا إلى زيارة كنيسة سان بيترو الصغير لنرى تمثال موسى ذائع الصيت وهو من نفائس الحفر لميخائيل انجلو ذاك العبقرى الذى كانت له طريقته الخاصة فى الحفر إذ كان يتصور أن الشخص الذى يريد تمثيله موجود داخل الصخر ، وكأنه يريد أن يزيل ما يعلوه كى يظهر مجسما ، ولقد أعجب هو نفسه بتمثال موسى حتى إنه لما أتمه خاطبه فى نشمة الغاضب قائلاً : (لم لا تنطق) . كانت بينه و بين رفايلو منافسة حادة ، فحدث أن أحد البابوات أراد نقش قبة (كابلاسيستينى) فى الفاتكان ، فسأل الخبراء فيمن أقدر على انجازها ، فخبروه عن ميخائيل انجلو وكانوا بذلك يرومون توريطه فيها ، حتى إذا ما بدا عجزه الفنى سقط فى نظر العالم ، ولما كلف بها استحضر كبار الرسامين الأجانب فلم يعجبه رسمهم فأغفلهم ، وأغلق على نفسه القبة زهاء أربع سنوات متواليات أنجزها فى خلالها ، وكان يعمل صباح مساء حتى أن عضلات رقبته تصلبت ، وأصبح غير قادر على النظر إلى الأرض ، فبُكتت منافسوه لما رأوا إبداع آياته ، ومن بينهم رفايلو الذى سعى عبثاً أن يقوم بنصيب فى رسم تلك القبة كى يستعيد مكانته بين رجال الفن ، وكان ميخائيل انجلو مبدعاً فى الحفر والتصوير والهندسة كما شهد بذلك تمثال موسى ، وتصوير كابلاسيستينى وقبة سان بيترو ، ومات مسناً ، أما رفايلو فمات شابا وكان أرستقراطيا فى معيشته وفنه على عكس ميخائيل الذى كان عنيداً حديدى الإرادة .

قصر الفاتكان : مملكة البابا المستقلة عن حكومة الدولة ، فله حرسه فى أردية حمراء رهيبة ، وقد انتخبهم من جنود سويسرا الأمناء (وكانوا قبل الحرب من النمسا) وهو الحاكم بأمره داخل قصره كثير الرحبات والحدائق فخم البناء ، فهو أكبر قصور الدنيا به عشرون ردهة ، وأحد عشر ألف حجرة ، بدئ صغيراً



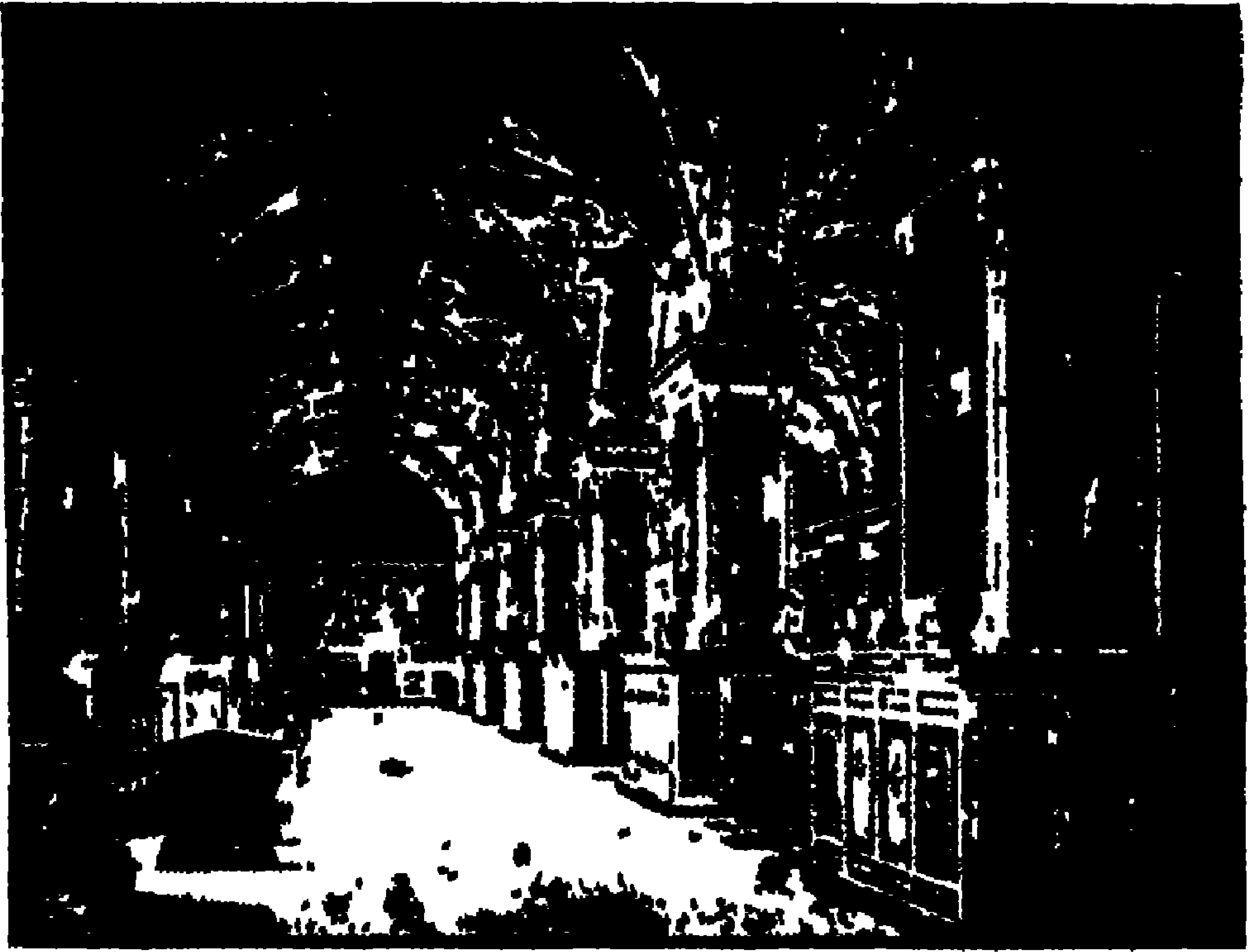
(شكل ٧) ساں بيترو أكبر كنائس الدنيا ، وتزين ميدانها مسلة مصرية

وزاده البابوات تدريجاً ، وقيل إن شارلمان سكنه مرة ولم يصبح مسكن البابوات إلا بعد عودتهم من أفنيون ، وقد رأينا معارض القصر ، وفيها الهدايا النفيسة التى قدمت للبابوات فى العصور المختلفة من ملوك العالم قاطبة ، ومن بينها جرة (قاز) من الرخام الأحمر المجزع ، عظيمة الحجم قدمها محمد على باشا الكبير ، أما النقوش والزخارف التى بالجدران فمن بدائع الفن لكبار المصورين نخص منهم رفايلو وميخائيل انجلو ذاك الذى صور (كابلاسستينى) والصور التى إلى يمينها تمثل حياة المسيح ، والتى إلى يسارها تمثل حياة موسى عليهما السلام ، وأعجبها سقف القبة التى يدهش المرء من مقدرة المصور ودقته فى مراعاة قواعد المنظور فى ثنايا البناء وكذلك من خياله الرائع الساحر ، ولعل أجمل أبهائها المكتبة القاخرة ، وتحتوى فوق نقوشها القيمة مجموعة نفيسة من المطبوعات التى تزيد على ربع المليون ونحو ٣٤ ألفاً من المخطوطات .

ويتصل بالقصر طريق سرى طويل إلى قلعة قديمة إسمها (كاستيل سانت انجلو) تشرف على نهر التيبر، وكان يحتمى فيها البابا إذا ما تعرض لخطر، وتلك القلعة بها مسكن للبابا وغرف للجند وسجون غائرة فى الصخر، ومخازن للزيت كان يغلى بها ليصب على الأعداء، ولقـد بناها الامبراطور هادريان الرومانى لتكون قبراً له، لـكنها حولت فيما بعد إلى حصن منيع.

الـكلوسيو : وهو أكبر ملهى فى العالم (تياترو مدرج) يسع ٨٦ ألفاً ولعله أعظم الآثار الرومانية الباقية، أقيم على شكل اهليلجى، داخله مدرج فى فى أربع طبقات. الأولى: للقياصرة، والثانية: للأشراف، وفى وسطه رحبة فسيحة كانت تقام فيها الألعاب، ومن بينها محاربة الضوارى التى كان يقتل منها أربعة آلاف كل عام، وكانت تقام الملاهى فيه لمدة مائة يوم، والصراع على أنواع فتارة كانت تطلق الوحوش يفترس بعضها البعض، وطوراً كانت تطلق السباع على فئة من المجرمين المعاقبين لتفتك بهم، وتارة يصارع الأبطال بعض الوحوش أو بعض إخوانهم من بنى الإنسان ويرديه قتيلاً، كل ذلك وسط تهايل القوم وابتهاجهم، هذا ضرب من ملاهى الرومان التى تدل على مبلغ وحشيتهم وقسوة قلوبهم، وطالما سفكت السباع من دماء شهداء المسيحية فى تلك الدار.

ولعل أجل الآثار الحديثة أثر فكتور عمانويل، ولا يزال العمل سائراً فيه على ساق وقدم، وهو حقاً مثل للعظمة والدقة فى هندسة البناء بمدرجاته، وعمده ونافوراته، يتوسطه تمثال نحاسى مطلى بالذهب لفكتور عمانويل، وهو يعتـلى جواداً. وقد أقيمت فى بطن الحصان حفلة حلس فيها ثمـانية وعشرون شخصاً فكأن الإيطاليين يريدون أن يثبتوا للعالم أن عظمـة فن العمارة ونحت التماثيل لا تزال، ولن تزال تكسبهم قصب السبق كما كان قديماً، وإن كان الكثير



(شكل ٨) مدخل مكتبة القاتكان ونقوشها الساحرة

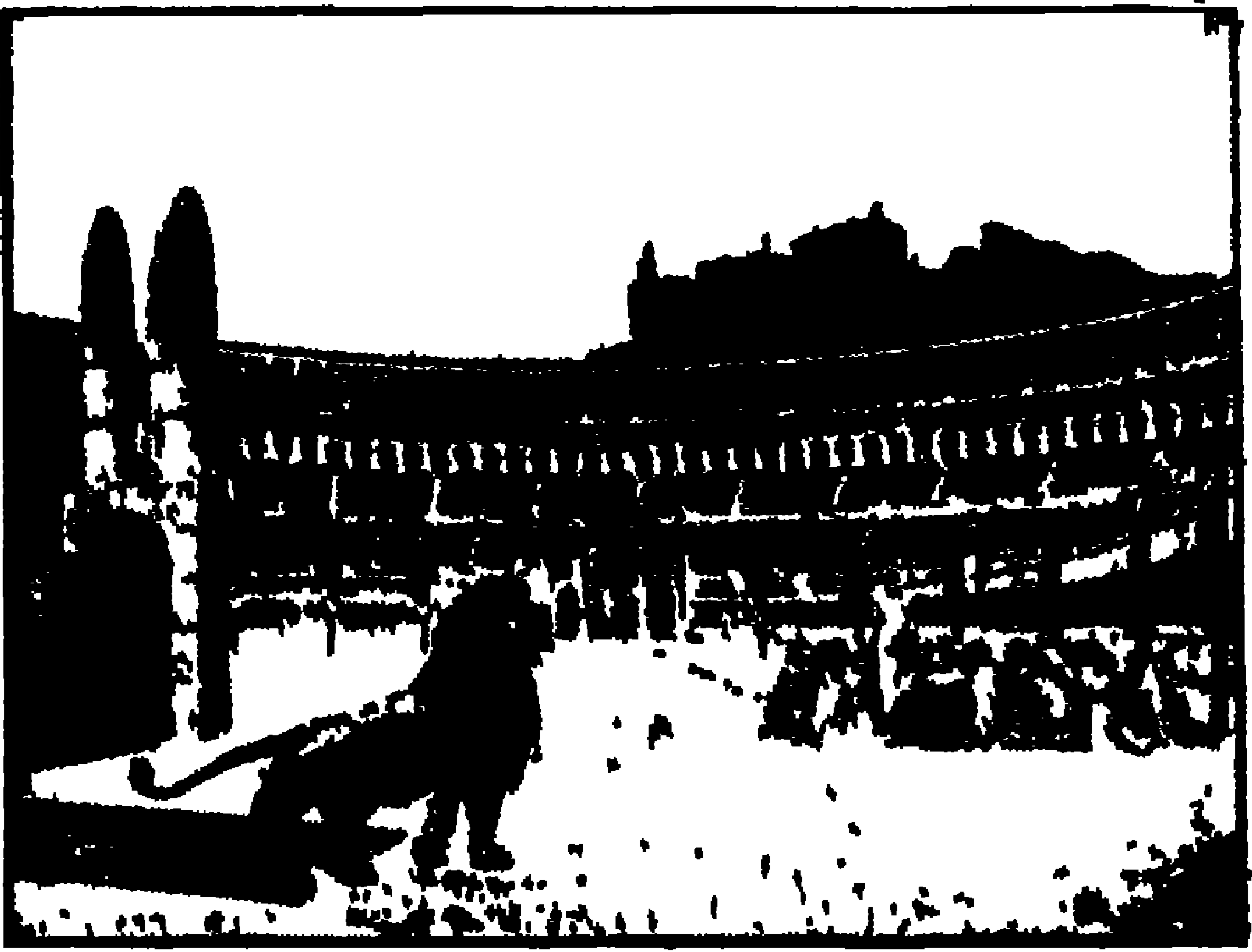
يعدون ذلك نوعاً من النعرة الجوفاء ، يقصد بهـا مجرد الدعاية الكاذبة لكثرة ما تكلفه من نفقات ، خصوصاً فى هذا العصر الذى تظهر فيه إيطاليا بعجزها المالى .

ضواحى روما : أوستيا : وهى مصيف على البحر يبعد عنها بنصف ساعة أسسه موسولينى حديثاً ، فأضحى متنزها جميـلا ومستحما عاماً ، وهو إلى جانب مدينة أوستيا الثغر الرومانى القديم ، ولقد أمضينا بهـا سحابة يوم ممتع ، و بينا كنا نمرح على شاطئ البحر إذ سقطت حقيبة النقود من جيب أحد أصدقائنا المصريين ، وكان بها نحو (١٢٠٠ ليرة) و بعد أن كدنا نيأس من وجودها خطر لنا أن نسأل بعض الحراس عنـد مدخل الحمام ، وما كان أشد إعجابنا بأمانة هؤلاء الناس حين وجدناها عنـده ، وقد عثر عليها حوذى فقير فلم تسول له نفسه أن يأخذها ، ودفعته أمانته إلى تسليمها ، فضيلة جميلة هى أجدر بنا معشر المصريين .

فرسكاتى : وهى ضاحيــة إلى جنوب روما طريقها جبلى تكسى جوانبها بالـكروم فى أغصان صغيرة تقام على أحطاب مثلثة وثمرها وافر للغاية ، ولذلك شهرت الجهة بالنبيذ المسمى باسمها ، وبالمدينــة عدة (ڤلات) فخمة وسط حدائق غناء تثبت أنها كانت مسكن الطبقات الراقية قديماً وأجمل الڤلات الدوبرنديني ، وبها نافورة فى خمسة مدرجات علو الواحد خمسة عشر متراً ، والرابع منهـا يعلوه عمودان تدور المياه حولهما فى شكل حلزونى إلى أسفلهما ، ثم تهوى فى مجموعة من الشلالات ، وكانت مساكن لبعض البابوات قديماً .

تفولى : وتبعد عن روما بساعة ونصف بطريق متعرج يخترق أنفاقا عدة ، وتكسو رباها الخضر والـكروم ، وبها مجموعة من (ڤلات) ذات تنسيق عجيب أشهرها (ڤلادست) على اسم أحد الـكاردنالات عاش منذ أربعمائة سنة ، وفيها من النافورات ما فاق كل شىء جمالا وفناً ، ومنها ينبوع فى ثلاثة صفوف بكل صف مائة نافورة ، وفى تفولى مجموعة من الشلالات الطبيعية الشاهقة ينزل منها ماء نهر (أينو) فرع التيبر فى شعاب عدة ، وقد يبلغ علو أكبرها مائة وعشرين متراً ، نزلنا إلى أسفلها فى طرق مختنقة كثرت لياناتها ، وللماء فيها دوى مخيف ، وهو يخرج من بين الصخر مختنقاً وفى سرعة مدهشة ، ويستخدم غالبها فى إدارة الأرحاء لتوليد الكهرباء ، ومنها ننار مدينة روما كلها ، ونعد تفولى أجمل ضواحى روما التى تتجلى فيها الطبيعة بروعها الجذاب ، وروعتها الساحرة ، وقد كان فيما مضى مصيفاً للقياصرة ، ولطبقة الارستقراطيين .

بيزا : غادرنا روما فى ٢١ يوليه إلى بيزا فوصلناها فى ست ساعات ، وهى بلدة صغيرة لا بأس بنظافتها ، وأجمل ما يزار بها كنيسة الدوومو وهندستها قوطية



(شكل ٩) ملهى (الكلوسيو) بروما وقد أطلق السباع ليفتكوا بالمجرمين من بنى الانسان

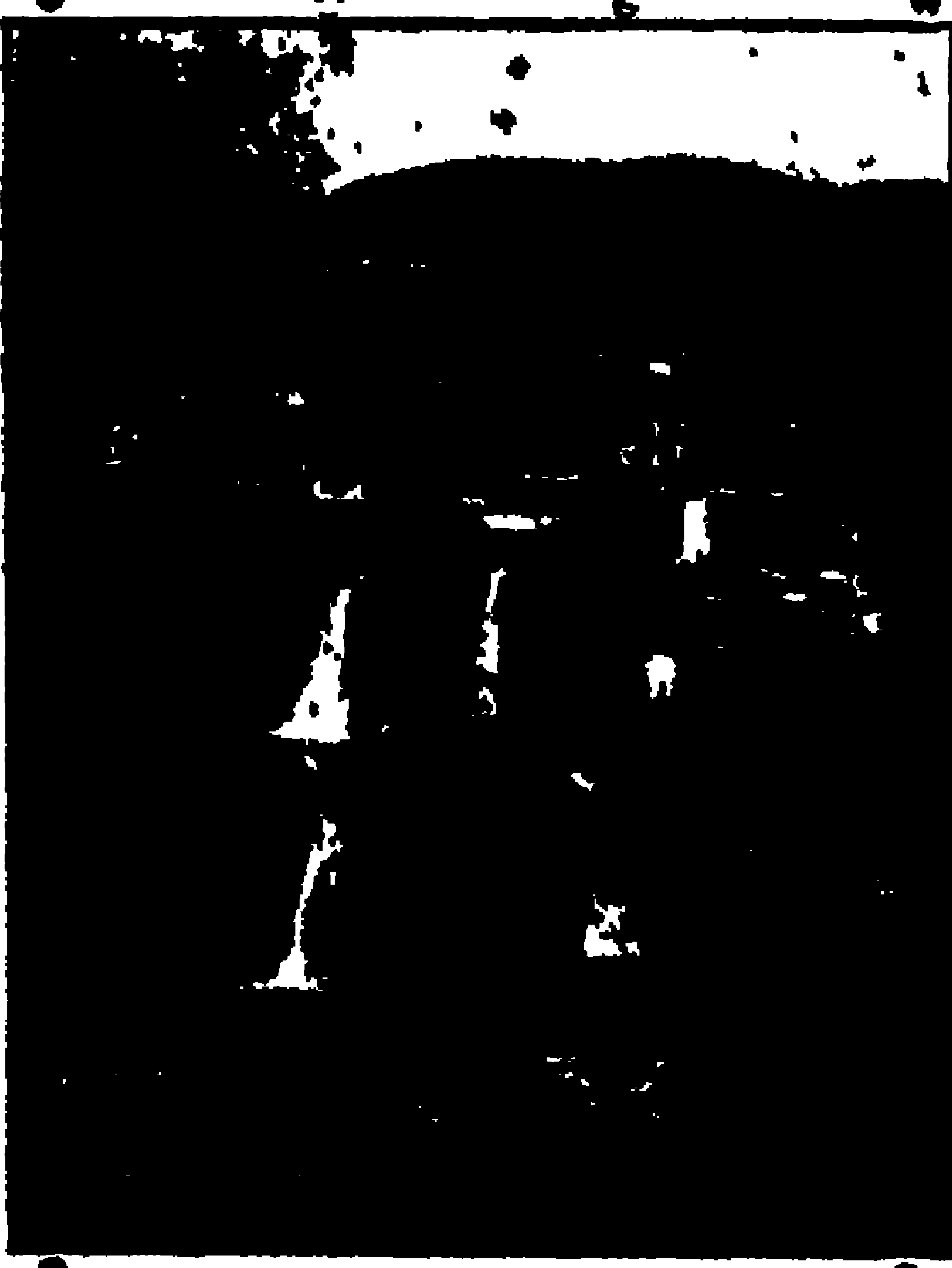
بديعة النقش ، من داخلها و بجانبها قبة التعميد وأقيمت منعزلة عنها ، وفى هندسة غريبة من شأنها أن تكبر موجات الصوت فيرن صداه بشكل مزعج حتى أنك لو غنيت بصوت خافت دوى واستمر رنينه فى كل مكان نحو ست عشرة ثانية ، وتسمع تصفيق اليد وكأنه الرعد يقصف بهزيم مخيف ، وقد بنيت من داخلها فى سكل الناقوس ، وكان كاروزو الملحن الايطالى المشهور يصور أنغامه فيها ، ذاك العبقرى الذى خلف لبنيه ثروة تقدر بثلاثة ملايين من الجنيهات ، وقد زار مصر سنة ١٩٠٦ ورغب فى سماع أجمل المغنين عندنا ، فغناه المرحوم الشيخ سلامه حجازى ، فطرب له كاروزو ودهش لما علم أنه لا يربح أكثر من خمسين جنيهاً فى الشهر ، وقال له : (تعال معى أعلمك الأنغام الأفرنجية وأنا كفيل لصوتك الرخيم بمائة جنيه فى اليوم) أما هو فكان يربح فى يومه ثلاثمائة جنيه فى أيامه الأخيرة .

وأعجب مافى الكنيسة برجها المائل الذى يعد من الأعاجيب لأنه يعلو فى الجو زهاء ٥٥ متراً ، وهو مائل بنحو أربعة أمتار وثلث عن المسقط الرأسى ، وبه سبعة أدوار شاهقة من رخام أبيض مجموع درجاتها ٢٦٥ ارتقيناها فرأينا فى أعلاه سبعة أجراس مدرجة الكبر وزن أكبرها ٣٧ قنطاراً ، وهى فى مجموعها تمثل الأنغام الموسيقية السبع ، بنى البرج سنة ١١٧٥ ، وإنك لتحس شيئاً من الخوف وأنت تراه يميل رغم ضخامته ، ويخيل إليك أنه لن يستقر مكانه ، ولا تكاد تسيغ لك نفسك أن تعتليه خوفاً وحذراً .

قيل إن تصميمه وضع مائلا هكذا منذ البداءة ، على أن الراجح أن ميله نتيجة لهبوط فى الأرض الضعيفة كثيرة الزلازل هناك ، وكان (جاليليو) الفلكى يحاول إثبات قوانين الجاذبية بإلقاء الأثقال من ذروته .

جنوا : قمنا إلى جنوا وكان الطريق جبلياً ، وأخذت تزداد طيات القشرة الأرضية وتتعقد شيئاً فشيئاً حتى كان القطار يسير على حافة البحر والجبل يقاربه من الشرق ، وجل الجبال تكسى بالخضرة وشجر الزيتون والكروم ، ولذلك لا تعجب إذا كان أجود زيوت العالم يعصر هنا خصوصاً فى مدينة لوكا ، ثم بدأ لون الجبل يتغير على بعد فخلناه مغطى بالجليد ، ولكنه اتضح أنها منطقة غنية بالرخام الناصع ، فكنا نرى كتل الرخام الملون تغطى أرصفة المحطات إلى مسافات بعيدة وبخاصة فى بلدة كرارا التى أصبحت شهرتها فى الرخام والمرمر عالمية ، بها وحدها نحو سبعمائة محجر ، ويبلغ ما تصدره من الرخام سنوياً مليوناً من الأطنان ، وكفاها فخراً أن رخام كنائس الدنيا الكبيرة مستمد من محاجرها ، وبعدها كان طريقنا مجموعة أنفاق تزيد على الثلاثين عداً ، وقد استخدمت هنا القاطرات الكهربائية التى كانت تسير بسرعة البرق (نحو ١٥٠

كيلو متراً) حتى كانت تبدو فتحات بعض الأنفاق المطلة على البحر كوميض برق يكاد يخطف البصر ، وغالب القاطرات فى شمال إيطاليا تسير بالكهرباء بفضل كثرة القوى المائية، ولذلك تركزت غالب الصناعات فى الشمال نذكر



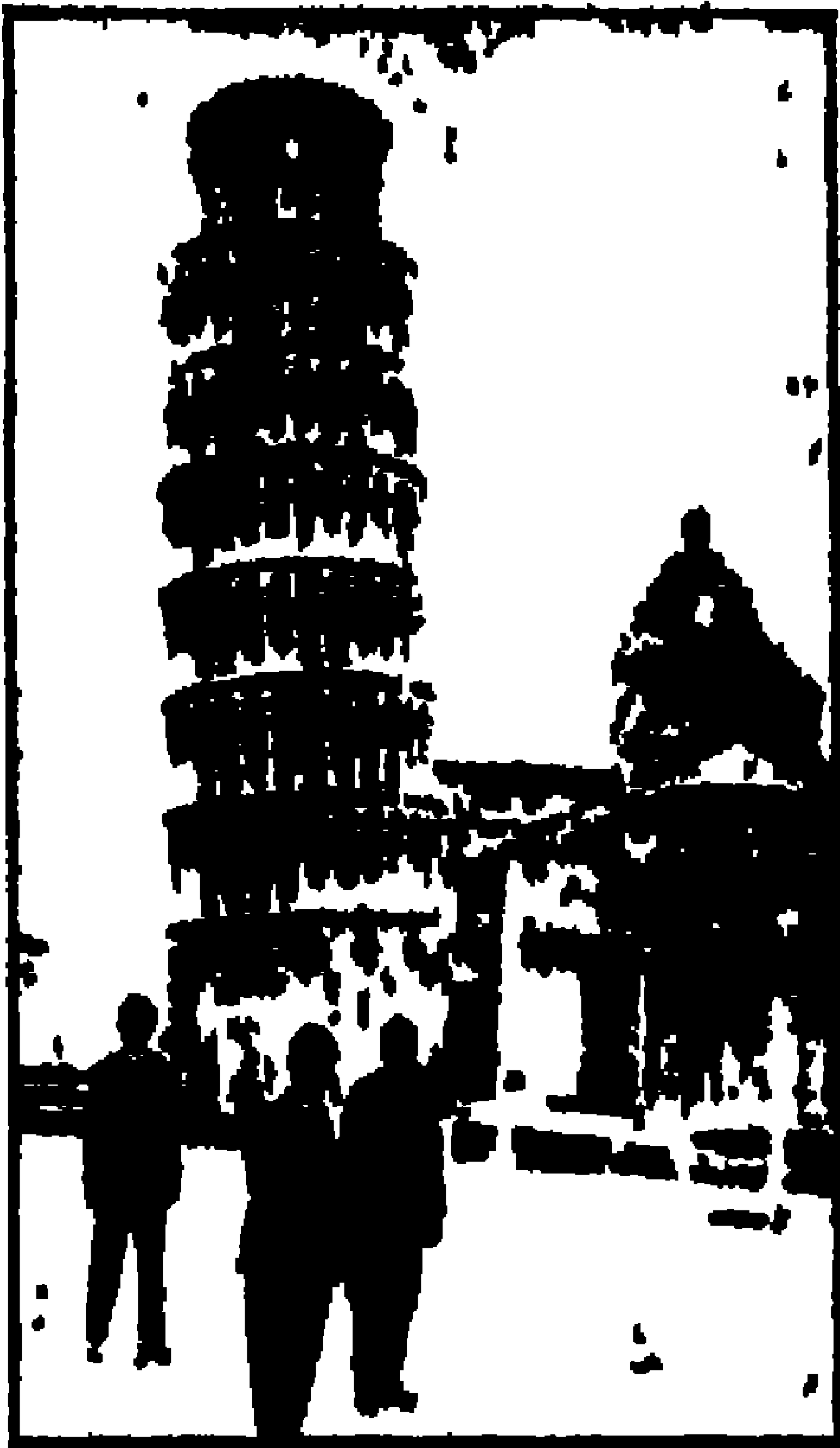
(شكل ١٠) ضاحية تفولى بروما شلالاتها العديدة

من بينها مصانع الأصواف والسيارات (فيات) فى تورين ، ومصانع الحرير فى ميلان . وقد زرت تورين فى عودتى من الرحلة بعد أن اجتزنا الحدود الفرنسية فى مودان ، ثم جزنا مجموعة أنفاق (مونت سنى) التى لبث القطار يسير فى أطولها فوق عشرين دقيقة بسرعة الكهرباء ، ثم دخلنا تورين التى بدت صناعية قديمة تعوزها النظافة فى المبانى والطرق ، و بعدها وصلنا جنوا ، وهى أكبر مبن إيطاليا التجارية ، عظيمة الاتساع ، شاهقة الأبنية ، صخرية السواحل قريبة الشبه بنابلى فى أنها تقام على ربى عالية ، لذلك كانت طرقها منحدرات وعرة ، وأعجب ما فيها

مبانيها فهى تتألف فى الغالب من سبعة أدوار ، ولـكثرة المرتفعات يغلب أن يكون لكل دور باب على طريق عامة ، ولكل دور حديقة معلقة ، والمدينـة أنظف من نابلى كثيراً ، وتشتهر بمقابرها التى يقال إنها أجمل مقابر الدنيا ، فهى فى غاية التنسيق تقام كلها من الرخام الأبيض تزينها التماثيل فى ردهات بديعة ، وفى العراء وسط المزارع تجد مقابر الفقراء وعليها شواهدها تصطف فى نظام دقيق ، وفى حى قديم قذر من المدينة بيت صغير لخرستوف كولمب كاشف أمريكا نقش عليه اسمه وحفظ تذكاراً له ، وأمامه نزل كولمب الذى تناولنا فيه طعام الغداء ، والمدينة تفاخر بأنها أنجبت ذاك المستكشف العظيم وتقيم له تمثالاً فى أكبر ميادينها

الرفييرا : غادرنا جنوا الساعة السابعة صباحاً قاصدين فرنسا عن طريق الرفييرا وهو ساحل جبلى جميل ، يجانب القطار هناك البحر ومن ورائه الربى تكسوها الخضرة النضرة وتتناثر على جوانبها المبانى ، وأكبر المدن الايطالية عليه سان ريمو ، وهى مزار صحى منسق يغص بالحدائق وتزينه بساتين النخيل الباسقة فى كل مكان وعند مدينة الحدود (فنت ميليا) انتقلنا إلى القطار الفرنسى الذى أقلنا إلى مونت كارلو فوصلناها الثامنة مساء ، و إذا بها بدت جنة حقة يضمها خليج صغير غصت منحدراته بالأبنية الفخمة ، من خلفها جبل شاهق ، وتلفت النظر بها نظافتها التامة وسكونها الجميل ، فهى مدينة تبدو عليها علائم الارستقراطية فى مبانيها وشعبها ونزلائها ، و يحق لها أن تسمى عروس المتنزهات ، وهى ضاحية لمناكو تلك الإمارة المستقلة عن فرنسا ، ولهـا حدودها وأنظمتها الخاصة ، و بالمدينـة عدد لا يحصى من الفنادق الـكبيرة يؤمها سراة العالم طلباً للنزهة الهادئة ، و يغلب أن يصحب ذلك لعب الميسر ، فهى عاصمة الدنيا فى هذا المضمار ، وقد زرنا كازينو مونت كارلو ذائع الصيت الذى لا يؤمه إلا غنى مفرط وذو جاه كبير يجلس على مناضد الميسر

ويقامر بآلاف الجنيهات ، وتلك المناضد عظيمة الامتداد ، ترى القوم منكبين عليها تعلو وجوههم علامات القلق فى شبه ذهول ، ومن ورائهم خزائن الصارفة على أهبة تقديم النقود للمقامرين تسهيلا لهم وإغراء ولمديرى الملعب نسبة كبيرة من المال المتداول ، وتتقاضى الحكومة من هذه أتاوة تعد أكبر مواردها ، وعجيب ألا يسمح لأبناء البلاد باللعب ، لذلك لم يسمح لنا بالدخول إلا بعد الاطلاع على جوازات السفر ليتأكدوا أننا من الأجانب ، والمكان من



(شكل ١٠) أمام برج (بيزا) المائل أحد عجائب الدنيا

الفخامة بحيث يعجز القلم عن وصفه ، فمن ردهات وأبهاء زينت بالثريات والنقوش والفرش ، إلى مدرجات وحدائق تتدلى إلى البحر ، وتتوسطها جواسق الموسيقى ، ويجوب ما بين أطرافها الحسان الغيد ، والولدان المتأنقون ، يتهادى كل فى مشيته فى تكلف شديد ، ويرفل فى مترف ملابسه ، وقد أشجت نفوسهم أنغام الموسيقى وهم منصتون لها وكأنما على رءوسهم الطير .

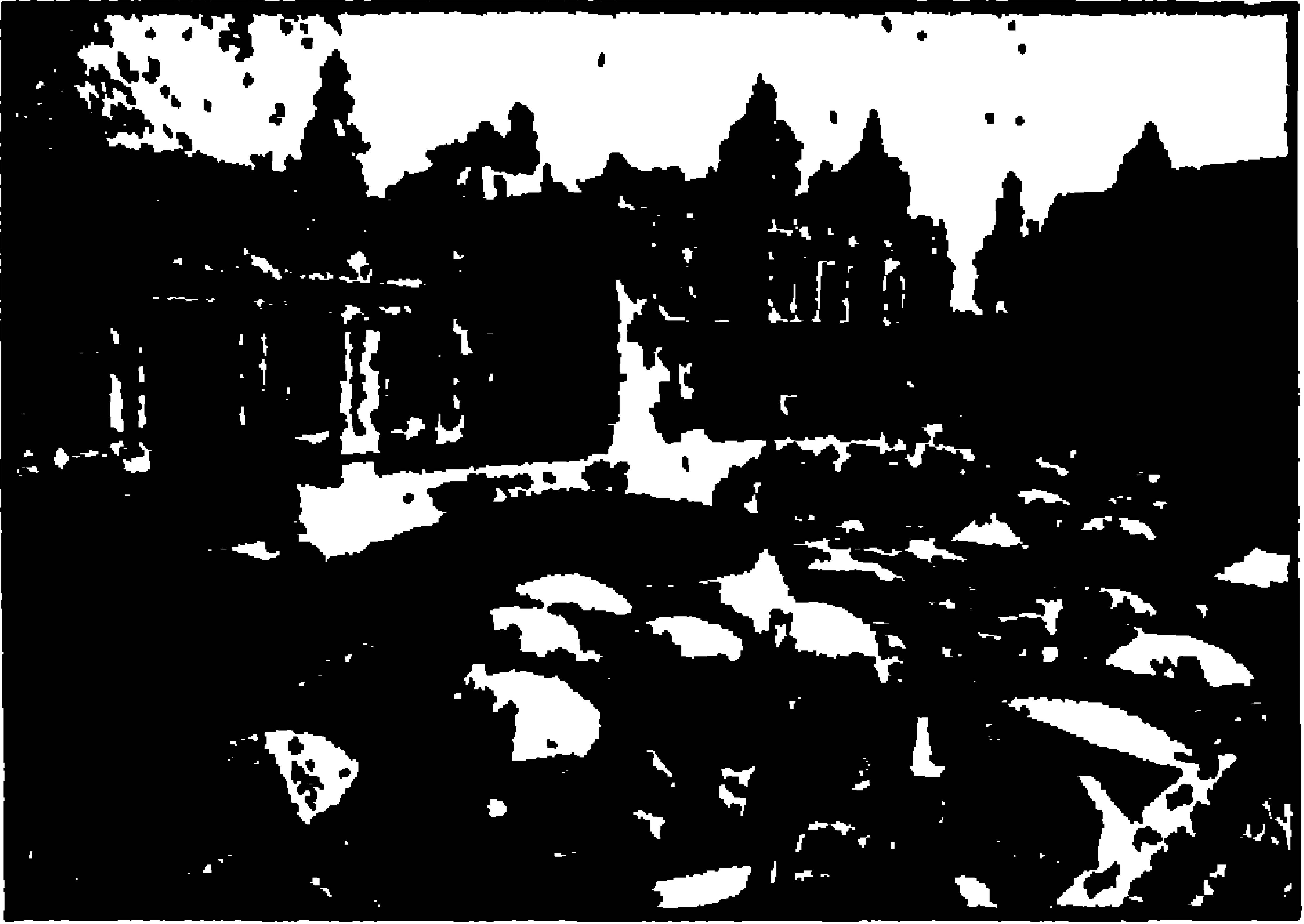
فالحالة الاجتماعية فى منت كارلو تثير الدهشة من عدة وجوه ، فالنساء قد أخذن من الحرية بنصيب كبير ؛ ربما كان خارجاً عن حد اللياقة ، ولطول سهر القوم لا يبدأ العمل فى الصباح إلا بين الساعة التاسعة والعاشرة ، فلا تفتح المتاجر ولا يسير الترام ، ولا تكاد ترى مارة قط قبل هذه الساعة ، قصدنا من ضواحيها

مانتون فلم نر فيها من أبهة مونت كارلو شيئاً ، وكان يبدو على فلاحيها الضعف الصحى والضنك فى المعاش تعوزهم النظافة ، ويظهر أن الطبقات الدنيا فى ريف فرنسا فقراء معوزون ، وربما يعزى ذلك إلى الارتباك المالى وعدم استقرار حال الفرنك .

ويجيد غالب السكان الإيطالية ، خصوصاً فى الضواحى المجاورة لإيطاليا ، وقد ظهر من محادثة رجل شيخ فى مانتون أنهم يمتون بسبب إلى الطليان ، ويودون الانضمام إليهم ، ومن هنا فهمنا مرمى التهديد الذى لوح به موسولينى مراراً لفرنسا بضم الرڤييرا إلى بلاده .

أما الجو فحار يكاد يشبه صيف مصر فالدرجة تزيد على ٣٠ م وسماء البلاد صافية كسمائنا والهواء راكد تحجب أنسمته الجبال من خلفه حتى أن جو بعض الليالى لا يطاق ولذلك لم تصلح البلاد أن تكون مصيفاً فهى مشتى جميل . غادرنا مونت كارلو قاصدين مرسيليا وكان الجو شديد الحر بحيث كان العرق يتصبب من جباهنا بغزارة وقد لازمنا ساحل البحر وأخذت الجبال تجانبنا حتى كنا بين البحر والجبل الشاهق واخترقنا عدة أنفاق ، وأجدر البلاد بالذكر (نيس) وهى مشتى مشهور بدا بقصوره الفاخرة وحدائقه الجذابة ، ومن ورائها (جراس) مركز تجارة الأعطار إذ ترى الحقول قد فرشت بمختلف الزهور التى يعبق عبيرها الأجواء إلى مسافات بعيدة ، وترى الفتيات تحت قبعاتهن التى جدلت من سعف النخل دائبات على قطفه لاستخراج زيته بعد غمره فى الكحول مباشرة أما رواسبه فتعمل منها المربى ، وتكفى جولة فى أحد شوارع المدينة لتعطير ثيابنا أسابيع طويلة .

وكأن جميع القرى التى كنا نمر بها مبعثرة على سفوح الجبال جعلت مأوى لوفود السائحين خصوصاً فى الشتاء ، لذلك ترى جمهور المتطفلين الذين يؤمون



(شكل ١١) كازينو مت كارلو عاصمة الميسر

الرفييرا للاستفادة من موسم السائحين بدأوا ينزحون أفواجاً فى الربيع إلى أمثال أكس لبان وشامونيكس وما شاكلها .

وصلنا مرسيليا أكبر ثغور البحر الأبيض ، وليس به مايجتذب الأنظار سوى أنه عظيم الامتداد يشبه الأسكندرية القديمة ويفوقها فى ضوضائه لكثرة الحركة التجارية فى الطرق وفى الميناء .

ليون : قمنا من مرسيليا السادسة صباحاً صوب ليون وكنا نحاذى نهر الرون سريع التيار وفير الماء طفلى اللون تحف به سهول فيضية أفسح ما تكون فى شرقه وتحده الجبال القليلة العلو على جانبيه ، وكانت السهول تكسى بالنبت وتشقها القنوات مما أذكرنى ببلادنا المحبوبة إلا أن الشجر هناك كثير والربى تكسى بالخضرة ، وقد جزنا عدة مدن من بينها أفنيون (وكانت يوماً ما مقراً للبابا) وفالانس ، ولما قاربنا ليون أخذ الوادى يختنق وبدت مداخن المصانع على بعد ثم

عبر القطار الرون ودخل المحطة ظهراً ، جبنا أطراف ليون بسيارة ، فألفيناها تنقسم إلى ثلاثة أجزاء : الجزء الأول شرق الرون ، غالبه متنزهات وأندية للألعاب ، وهنا شارع ممتد أقيمت به الأبنية على جانبيه لتكون معرضاً صناعياً عاماً يقام فى مارس من كل عام ، والجزء الثانى غرب الساؤون رافد الرون ، وغالبه مرتفعات اعتلينا أحدها ، وزرنا فى قمته كنيسة (الباسليك) من الطراز القوطى الفاخر ، و بجانبها برج من الحديد شاهق العلو تضاء فى ذروته أنوار الكشف بعض الليالى ، ومن هذا المكان تتجلى ليون بنهريها فى مرأى جذاب ، والقسم الثالث يقع بين النهرين ، و به غالب الأبنية الفخمة ، ودور الحكومة والغرف التجارية من بينها (جالارى لافايت) ، وقد زرنا معرض الفن الجميل ، و به مجموعة قيمة من الصور الزيتية القديمة والحديثة ، و بعض التماثيل ، ومخلفات الملوك الأقدمين ، والنهران يسيران متوازيين وفى حجم متساوٍ ، غير أن تيار الرون نهاية فى السرعة ، وماؤه عكر ، تشوبه مادة طفلية على عكس الساؤون ، قليل الماء ، هادئ التيار ، مخضر اللون ، وقد زرت معرض الحرائر وفيه مجموعة من الأنوال القديمة وكيف تطورت إلى شكلها الحديث ، وتعرض بعض الأنسجة القديمة ، وقد وشيت بالذهب ، وزينت بالزخارف والصور الفنية التى تشهد بما نالته ليون من التفوق على جميع مدن الدنيا فى نسج الحرير ، وقد زرت أحد المصانع تدار أنواله بالكهرباء ، وينسج به الحرير المفهف فى ألوانه البديعة ، وغالب عماله من الفتيات ، ويكاد يباع الحرير بأنواعه فى جميع الحوانيت .

اكس لبان : فى خمس ساعات وصلنا إكس لبان ، وكنا طوال الطريق نسير وسط المزارع والربى البديعة ، وهبطنا نزلاً فاخراً ، وقمنا بجولة فى القرية ؛ فإذا بها بالغة التنسيق وسط الربى المكسوة بالخضرة تحوطها المسايل المائية السريعة ،

وقد شهرت بمياهها المعدنية والكبريتيـة ، ولذلك كانت مستشفى يؤمه أمم مختلفة لعلاج الأمراض الجلـدية والكبدية ، وقد رأينا فى جانب من المدينة نبع عين كبريتية داخل مغارة فى الصخر عميقة متلوية حفرها الماء طوال السنين ، وجعل فى جدرانها وأسقفها تجاعيد وفجوات عجيبـة ، سرنا داخلهـا طويلاً فى ظلام حالك ، وحرارة شديدة ، على أن القوم حصروا الماء فى أنابيب تؤدى إلى الحمام الكبير ، وغور العين ثمانون متراً ، وحرارتها ٤٨° م .



(شكل ١٢) الحلاق المتجول يقوم بعمله على قارعة الطريق فى الأحياء الفقيرة من فرنسا

ومن الجهات الجديرة بالزيارة هناك خانق سيروز (Sierroz) و به مجموعة من جنادل تطل عليها الأشجار ، و يسخر ماؤه السريع فى توليد الكهرباء ، و بالمدينة كازينو هام للعب الميسر شبيه بكازينو مونت كارلو .

شامونيكس : قمنا صوب الشرق و بعد اجتياز بلدة (أنسى) التى تقوم على بحيرة هادئة جميلة أخذنا نعلو تدريجا ، وسارت القاطرة بالكهرباء ، وكنا نرى

على الجانبين شاهق الجبال تكسوها الأشجار ، وتجرى من بينها المياه البيضاء فى شلالات وغدران لا حصر لهـا ، وكانت طبقات الصخر كالاردواز ، وفى رقائق شستية ومائلة ميلا مخيفاً ، والشجر ينبثق من بين الصخر فى استقامة عجيبة ، وصلنا شامونيكس على علو ١٢٣٠ متراً تقوم من حولها الجبال الشاهقة ، وقد بتنا ليلتنا فى برد قارس زمهرير إذ كانت درجة النهار أقل من سبع والليل أشبه بليالى ديسمبر ويناير فى مصر لا بل أقسى منها برداً ، وكان السحاب يغطى قطعاً من الجبال كأنه الدخان ويسقط مطراً وابلا استمر إلى الصباح حين قصدنا ثلاجة :

ميردى جلاس : فسرنا فى الجبل صعداً فى ليات عجيبة وسط الأعشاب الجبلية وأشجار الصنوبر الشاهقة القائمة ، وكلما زاد صعودنا انكشفت لنا قمم أخرى لا نهائية ، ودقت قطرات المطر فكانت رذاذا ، وكانت تبدو الشمس مشرقة علينا فى أعلى الجبل ، بينما كانت السحب كثيفة تخفى الشمس عن المدينة من تحتنا ، وكانت تنقش الربى النائية عنا بقع بيضاء وضاءة من الثلج تنزل من سيول الماء كقنوات اللبن الخالص ، وبعد أربع ساعات فى هذا الصعود وصلنا نزلا على الميردى جلاس تناولنا الغداء فيه ، وكانت الحرارة هناك أربع درجات ، والريح متوسط السرعة يذرو فى وجوهنا هباء كالقطن من الربى المجاورة ، وهو الثلج المتساقط من السماء ، ثم اقتادنا دليل عبر الثلاجة ، وهى متدلية فى واد فسيح ثلجه مصمت كثير التغضنات والتشقق ، وكان الماء يجرى وسطها بخرير يسترعى الأسماع ، وكان لون الثلاجة ضارباً إلى الزرقة تعلو جانبيها ركام الصخور التى كانت تغطى الثلج وتبدو كالتلال ، وعند ما عبرنا الثلاجة إلى الجانب الآخر أخذنا نسير فى طرق وعرة ومسالك خطيرة . ولشدة انزلاقها أقيم على بعضها سور من حديد كنا نتوكأ عليه ، ولا تكاد الأرض تستقر تحت أقدامنا لانزلاقها ، وبعد الهوة تحتنا سحو

المائتى متر ، وكدنا نفقد طريقنا فى هذا الجبل المسمى (شاپو) وأخيراً قاربنا مصب الثلاحة ، وعنده يتضاءل الجليد فى السمك ، حتى يصبح لساناً ضيقاً فى آخره شبكة من النهيرات دافقة الماء ، وكان ارتفاع الثلاجة ١٩٠٩ متراً فى



(شكل ١٣) على الحدود بين إيطاليا وفرنسا ، ويرى الفقراء يغسلون ثيابهم فى مياه الغدران القذرة ، والمنظر شبيه بريف مصر

المكان الذى جزناه ، ويزيد علواً كلما أوغلنا فيها حتى نصل القمة البيضاء (مون بلان) التى بدت وضاءة على مقربة منا ، وقد أقاموا مرصداً ونزلاً صغيراً فى أعلاها ، وعلى الجبل أنواع من الزهور الجميلة ، وكان الشجر يتضاءل كلما علونا ، ويمد جذوره فى صدوع الصخر بثبات عجيب ، وينمو أفقياً ، ثم ينثنى رأسياً ويستقيم إلى السماء .

قمنا مبكرين فى اليوم التالى لنعتلى ثلاجة (بوسون) ، وتعلو سطح البحر بنحو ٢٩٥٥ متراً ، وأخذنا نصعد فى طرق متلوية كالأفعى وفى انحدار وعر لذلك كنا

نحس بتعب شديد ، و بعـد ساعتين استرحنا فى نزل للشاى بجانبـه مغارة بديعة وسط جليد الثلاجة دخلناها فاذا بها زرقاء اللون صافية بلورية كثيرة السراديب ، وقد أشعل فى وسطها مصباحان ، والماء يتقاطر من جميع نواحيها ، و يسيل فى مجار ضيقة أسفل جدرانها ، استأنفنا الصعود مرة ثانيـة زهاء ساعتين ، وحللنا نزلا تناولنا فيه الغداء وكنا نرى الثلاجة إلى يسارنا تنحدر إلى أعماق سحيقة ، وكلما طوحنا بنظرنا جهة المنبع تضخمت حتى امتزجت ببسيط الثلج الموصل لمون بلان فى مشهد رهيب ، و يحيط بهـا من الجانبين الشجر والزهر والنبت الوفير ، ولا يفصل بين الثلج والأرض إلا كتل الركام وحطام الصخر الذى فتته جلمود الجليد ، وسطح الجليد مجعد مخيف ، والمـاء يسيل من بين الشقوق فى خرير رهيب لونه أبيض تشوبه زرقة مستملحة تقر لها العين الا قرب الجوانب ، وعند نهاية الثلاجة حيث يكسوها هشيم الصخر ، وفى الحق كان المنظر رهيباً يملأ القلب روعة وجلالا ويذكره بقدرة الخلاق العظيم فيخر خاشعاً يستزيد رسوخاً فى الايمـان وثقة فى الله جل وعز .

أخذنا دليلاً عبر الثلاجة و يالهول ما لاقينا ، بدأنا نخطو على الثلج فى تثاقل بين شقوق تفغر أفواهها إلى مد البصر ، ونواتىء كأنها التلال ، و برك ونقائع راكدة ، وقنوات ومساقط لميـاه جارية فى دوى مخيف ولم نأت على كتلتها إلا بعد ساعة وعندها انطلقت ألسنتنا شكراً لله الذى أنجانا من خطر كبير ، أما جليد الثلاجة فناصع البياض فى ظاهره تغطيه طبقـة رقيقة من الثلج الهش الذى إذا ما انصهر بالحرارة ثم عاد فتصلب تجمـد فى بلورات كالزجاج لا تلبث أن تتحد فتصير مصمتة ، وهى تسير فى مهل بحيث لا يمكن رؤيتها متحركة ، فالمغارة السالفة مثلاً قد انتقلت مائة وخمسين متراً فقط فى سنة كاملة ، وكنا نرى القوم يكسرون



(شكل ١٤) ستترع قليلا من وعاء الصعود إلى ثلاجة (ميردى جلاس) التى تبدو حلما

كتلاً من الجليد ثم يصعونها فى مجرى ضيق أعدوه من الخشب فتنزلق هاوية إلى أسفل الجبل ، وهناك تستخدم فى تبريد اللحوم والمرطبات ، وكنا نلاق صبية الرعاة يسوقون أبقارهم السمان ، وقد علقت فى رقابها الأجراس الكبيرة لتدل عليها إن هى ضلت سواء السبيل .

ويمكن الوصول إلى الثلاجة بوساطة ترام هوائى معلق فى أسلاك يسير كأنه الطيارة غير أنا الفيناه فى حالة عطب أصابه من هيار ثلجى اكتسح بعض قوائمه

وبالمدينة خانق (ديوزاس) الجدير بالزيارة يجرى به الماء فى مساقط رائعة ، والجبال من حولها فى علو شاهق يزيد على المائة متر فى استقامة رأسية ، وقد أعد القوم أفاريز خشبية تسير صعداً فى جوانبه ؛ وتعبره القناطر فى غير موضع واحد ، وكانت صخور الجوانب تبدو هشة منحلة وجلها من رقائق الإردواز ، وقد انهارت كتل عظيمة منها إلى أغوار اليم ، وبالإيجاز فشامونيكس مزار صحى يتمنى طلاب الهدوء ورواد الطبيعة الساحرة أن يتخذوه لهم مقاماً دائماً .

سويسرا

قمنا إلى جنيف تلك التى تهول الزائر نظافتها فى طرقها ، وأبنيتها وساكنيها ، إلى الإفراط فى تنسيقها ، حتى فى أعمـــدة المصابيح التى زينت بالورد والثريات الناصعة البياض ، ويفوق ذلك جمالاً البحيرة التى نسقت أرصفتها على أنماط مختلفة ، وقد ركبنا متنها فى باخرة وجبنا أطرافها . وكنا نستبين شواطئها على بعد كالسحاب ، ورسونا على مدن عدة من بينها لوزان التى تحاكى جنيف فى نظافتها وهدوئها ، وإن كانت دونها جاذبية ، وحيرمازرنا بها قصر عصبة الأمم يطل على البحيرة فى جلال ، أقيم عقب معاهدة فرساى ، ولقد ارتضى غالب الدول إنشاءه هناك اعترافاً منهم بما لجنيف من فضل السبق فى ابتكار كثير من المنشآت الخيرية ، ومناصرة الإنسانية عملاً وقولاً ، ومن أجمل المدن التى رسونا بها (إفيان) ، وبها كازينو شبيه أخيه فى مونت كارلو ويطل على البحيرة ، وتكثر بها الينابيع التى يؤمها المرضى للاستشفاء . وهى داخلة فى الحدود الفرنسية ، إذ أن جزءاً كبيراً من الساحل الجنوبى لبحيرة جنيف داخل فى حدود فرنسا .

وإلى الجنوب الشرقى من جنيف تبدو قمة المون بلان ضئيلة بين الجبال الأخرى لبعدها . ويكسوها الثلج الأبيض الوضاء ، وأينما طوحت ببصرك بدت المنحدرات تكسوها الخضرة ، وتسيل على جوانبها الغدران ، وتتوج ذراها عمائم الثلج فى جمال رائع . ويخرج نهر الرون من البحيرة فى اتساع كبير ، وماء أزرق صاف ، وتيار سريع تعبره القناطر المنسقة ، ولقـد أحاط القوم مياه النهر بسدود توقف تياره ، وتحوله إلى أنابيب ضخمة ، تؤدى به إلى محركات وآلات لتوليد الـكهرباء .



(شكل ١٥) فى ذرى جبال الألب وقد انضمر شجر الصوبر من أثر البرودة

ويبالغ القوم فى العناية بنظافة الطرق ، حتى أن البوليس لا يسمح لأحد بالقاء شىء قط فى الطريق ، حدث مرة أن ألقى أحد المارة بقشر كمثرى كان يأكلها فأدركه الشرطى وأخرج من جيبه كراسة المخالفات وألزمه بدفع الغرامة ، ثم سلمه الإيصال فتناوله الرجل غاضباً ، ثم مزقه ورمى به إلى الأرض ، فاستوقفه ثانيـة ليدفع الغرامة للمرة الثانية ، ثم ألزمه أن يجمع ما ألقاه فى الطريق كله واقتاده إلى سلة المهملات ، وتلك السلال تعلق بكثرة فى أعمدة المصابيح .

أما أهل سويسرا فخليط مشعب من الأجناس والعادات والأخلاق واللغات ، فهم يتكلمون أربع لغات أو خمساً أظهرها الألمانية فى الشمال ، والفرنسية فى الغرب ، والطليانيـة فى الجنوب ، وهم متناقضون فى خلالهم قد جمعوا بين الكرم والبخل ومظهر الرخاء والبؤس ، وهم معروفون بالطمع الشديد الذى أضحى مضرب الأمثال ، لذلك فهم نزاعون إلى استغلال أضيافهم ما استطاعوا كما حدث لنا مع بعض الحمالين بالمحطة الذين أصروا أن يؤجروا فرنكين على كل حقيبة حملوها إلى اللوكاندة المواجهة للمحطة ، وأهل الريف يشتغلون بجد إبان الصيف ليدخروا للشتاء ، ويقيمون مساكنهم الخشبية بأنفسهم ، وينسجون أرديتهم الصوفية بأيديهم ،

وجل غذائهم بسيط ومن الألبان بفضل كثرة المراعى التى تملأ المنحدرات ، ولذلك ليس بعجيب أن تكثر صنوف الجبن الممتاز مثال ذلك جبن (جرويير) وهى قرية من قرى سويسرا ، وبقدر ما ترى الناس فى الريف على سذاجة فى العيش إذا بهم فى المدن قد بلغوا شأوا فى التأنق والتكلف وأتقنوا إدارة الانزال ، وتلك مهنة لا يباريهم فيها غيرهم من سائر الشعوب ، ولعل فى جمال مناظر بلادهم خير مغرى للسائحين ، ومن هؤلاء يستمدون شطراً كبيراً من أرزاقهم .

وأهل سويسرا ديمقراطيون إلى حد كبير ، فالبلاد جمهورية مؤلفة من عدة ولايات متحدة ، وكل ولاية تضم عدداً من الجماعات (Communes) ، والجماعة نفر قليل من الناس أشبه بشركة مساهمة لها رأس مالها وامتيازاتها ، وكل فرد منها مساهم فى الغابات والأراضى المجاورة ، وله قسطه فى الإيراد يتقاضاه لا نقداً بل نوعا ويؤخذ رأيه فى إدارتها ، ولكل ولاية قوانينها الخاصة التى تسن بالتصويت العام فى مجتمعاتهم النيابية التى يعقدونها فى الهواء الطلق مرة كل سنة والتى تعد أعجب النظم الديمقراطية إذ يدعى الشعب فى العراء ويخاطبهم الرئيس قائلا (أيها الاخوان ذوو السيادة) فيقدم كل مقترحه ليناقشوه فيما لا يزيد على نصف ساعة ، ثم يمر الجميع فى صفوف زوجية ، ويعطى كل صوته ثم ينصرف إلى عمله ، وليس لطبقة الأشراف أثر مطلقا فهى غير موجودة ، ورئيس الجمهورية لا يزيد راتبه على أربعمائة جنيه سنويا ، وليس للبلاد جيش وإن كان الدستور ينص على أن كل فرد من الأمة عضو فى الجيش ، والحرس السويسرى معروف بالأمانة والإخلاص ، يؤيد ذلك أنهم فنوا عن آخرهم دفاعاً عن لويس السادس عشر ، وأن حرس البابا لا يزالون من بينهم .

وستری المنظر البولس الذی يتخذ من كلاب سان برنارد تلك التی يربونها



(شكل ١٦)   بعض زهور جبال الألب تنمو على جوانب الثلاجات

رهبان أديرة تلك الجبال على اقتفاء الأثر ، وعمل الإسعاف لمن أصابه زمهرير الجليد ، وتراها تحمل على ظهورها أو فى رقابها بعض العقاقير للاسعاف ، و يهديها شمها الحاد إلى المكان الذى أعارت التلوح فيه على عابرى السبيل أو إلى حيث يصل هؤلاء ، فان أمكنها الإسعاف قامت به و إلا عادت سراعاً لتستنجد ببعض الرهبان .

باريس : عدنا من سويسرا إلى ليون ثانية ، ثم قمنا فى قطار الرابيد ظهراً صوب باريس ، وسرنا فى مروج منبسطة تكسى بالمزارع المنمقة تزينها الأشجار إلى أن دخلنا باريس الثامنة مساء ، ومن العجب أن المدينة لم تسترع من أنظارنا شيئاً لأول وهلة ، وكدنا نؤكد أن عظمة باريس التى طالما سمعنا عنها لم تكن إلا خيالا بعيداً عن الحقيقة فلم نر إلا كثيف المبانى ذات اللون الأسمر الكدر الذى لا يسر العين فى شىء ، ولقد تعبنا طويلا حتى حصلنا على نزل نأوى فيه ليلتنا ، وفى الصباح قصدنا متحف لكسمبرج و به مجموعة قيمة من صور زيتية وتماثيل

يتقدمه متنزه فسيح به نافورة رائعة و بعده ولينا شطر :

ميدان الكونكوردو : فبانت عظمة باريس ، ففي أحد طرفيه قصر اللوفر الذي ينفسح أمامه متنزه أبدع تنسيقه بالزهور والتماثيل والنافورات ينتهي بميدان عظيم الاتساع تقوم به مسلة مصرية شاهقة قد نقلت من عين شمس ، وفي هذا الميدان كان يجتمع رجال الثورة الفرنسية وهنا سفكوا دماء الأشراف بآلة المقصلة ثم يمتد منه طريق الشنزلزيه الذي يبهر النظر بنظافته وحسن تنسيقه وقد أحيط بالشجر المزدوج من الجانبين يؤدي بنا إلى قوس نصر فاخر أقيم لتخليد انتصارات نابليون ، وعليه تنقش بعض وقائعه الحربية وتحته اليوم قبر الجندي المجهول ، وعنده تشعب رئيسي لاثنى عشر طريقاً كبيراً سميت بأسماء كبار القواد والوقائع التي انتصروا فيها ولقد عبره الألمان منتصرين في حرب السبعين ، وأمامه طريق غابة بولونيا الذي يؤدي بعد طول السير إلى الغابة نفسها وهي متسع من الأرض تكسوه أشجار البلوط والصنوبر و يبدو كأنه غابة كثيفة تتوسطها بحيرات عديدة تحصر بينها جزائر عدة ، وتجوب خلالها زوارق الرياضة وعليها تقام المقاهي وهي من أجمل متنزهات باريس .

اللوفر : كان من قصور الملوك الأقدمين ومن بين من سكنه شارل التاسع الذي كان يتصيد أفراد الهيجونوت الهاربين بالنار من أحدى نوافذه و به اليوم متحف عظيم من أكبر متاحف الدنيا جمع فأوعى به مجموعة من الصور الزيتيه لكبار مصوري العالم ومن بين معروضاته صورة الجيوكوندا من عمل لوناردو دافنشي وهي صغيرة لاتزيد على نصف متر في ثلاثة أرباع المتر وتمثل سيدة تعلوها ابتسامة يحار اللب في تفسير مغزاها سلبها نابليون من إيطاليا ، وحدث أخيراً أن

نقاشاً إيطالياً كان يعمل داخل المتحف سرقها ، فعينت الحكومة الفرنسية مليوناً من الفرنكات لمن يدل عليها ، ولما انكشف سر الرجل فى إيطاليا أودع السجن ، وردت الصورة لفرنسا ، وترى آثار القطع واضحة فى جوانبها ، وهناك صورة لنابليون يلبس التاج لجوزفين ، ويباركه البابا وهى تملأ الحائط بأكمله فى



(شكل ١٧) خروج من معارة فى قلب ملاحة (بوسون) ستامونيكس

روعة وإتقان ، وبالمتحف جانب للسفن البحرية منذ نشأتها إلى اليوم ، وبها نماذج لجميع السفن شراعية وبخارية ، وعجيب أن كانت سفن القرن السادس عشر الشراعية فى هذا الحجم المروع ، وتعلو فى ستة طوابق ، وهى مزودة بالمدافع الكبيرة ، وبالمتحف قسم مصرى قديم ، وآخر لمخلفات أشور ذوات العمد ، تعلوها رءوس الثيران ، وتقيمها السباع البارزة ، وتزينها الكتابة المسمارية إلى ذلك بعض آثار كريت وقبرص والأغريق . وأعجبتنى هناك خريطة لفرنسا وأنهارها من فضة ، وأسماء مدنها كتبت من ذهب ، ومواضعها صيغت من جواهر ثمينة ، أما القصر نفسه فمن معجزات فن العمارة والنقش ، وبه حجرة من حجرات

نابليون ، وكثير من أساس لويس الرابع عشر وغيره .

وزرنا ميدان الباستيل وليس به من أنقاض تدل على ذاك الزمن العاتى زمن الاستعباد الذى دكه الثوار سنة ١٧٨٩ اللهم إلا عمود فخم من البرنز يتوجه تمثال الحرية ، وقد أمسك بشعلة النجاح فى إحدى يديه و بسلاسل الاستعباد المهشمة فى اليد الأخرى وعليه خطت بحروف من ذهب أسماء ٦١٥ من الأبناء البررة الذين ساعدوا على هدمه .

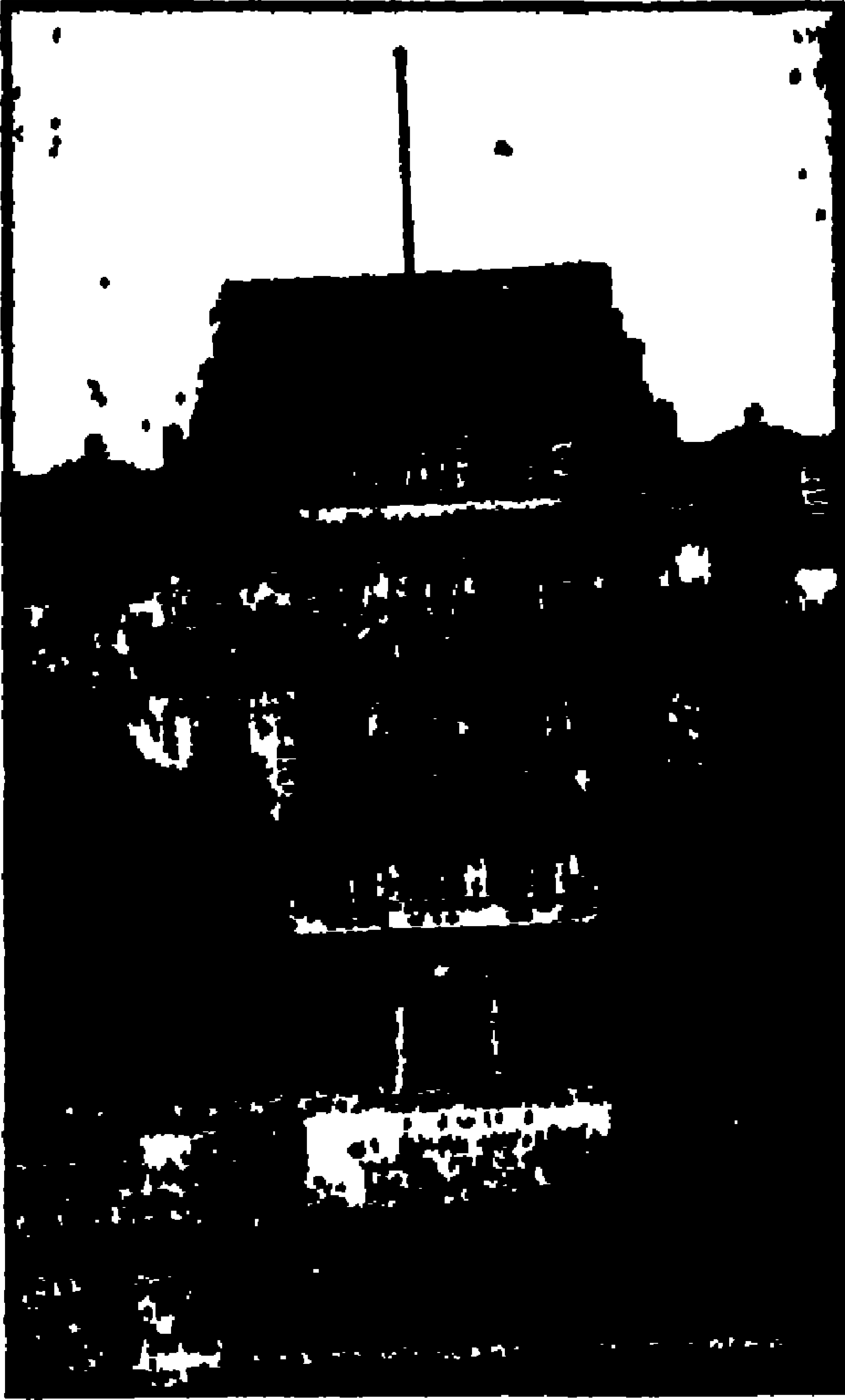
فرساى : ضاحية من باريس تبعد عنها بنصف ساعة فى (المترو) بها قصر فرساى ذائع الصيت أقبلنا عليه فى بهو طويل تحفه الأشجار المزدوجة فبدا آية فن العمارة والزخرف الذى كاد يفوق الفاتكان وقد عرضت بحوائطه صور زيتية لجميع الوقائع الهامة فى تاريخ فرنسا نخص منها معاهدة باريس ، وتقهقر نابليون من روسيا ، وفتح أنفرس ، وهزيمة الأمير عبد القادر كلها فى لوحات ذرع الواحدة عشرون متراً وهناك بهو كامل لنابليون ووقائعه فى نقش بديع وفى مختلف الحجرات يعرض الآثاث القديم كسرير لويس الرابع عشر بفراشه ومكتبه ، و بعض العدد التى كان يتسلى بها لويس الخامس عشر وكان كلفاً بأشغال النجارة ، والمنضدة التى أمضيت عليها معاهدة الصلح سنة ١٩١٩ فى صالة المرايا التى عقد بها مؤتمر فرساى ، وفى الطابق الأسفل أقيمت غالب التماثيل تذكاراً لغالب الملوك ومشاهير السياسيين ، والقصر يطل على متنزه يعد أجمل حدائق الدنيا نسقت فيه أحواض الزهور على أنماط جذابة ويواجه القصر طريق فسيح يؤدى إلى سلم فخم تنزل منه إلى نافورة شاسعة زينت بالسلاحف والأفاعى يتفجر من أفواهها الماء فى تقوسات بديعة ، ومن دونها سلم آخر يؤدى إلى طريق ممتد إلى نافورة من الخيول أمامها نهر من الماء الساكن وغابات الشجر تمتد إلى أفق السماء وتتخللها بين أونة وأخرى



(شكل ١٨) شارع (مون بلان) فى جنف ، ويرى الموج
مون بلان بيضاء فى الصدر

النافورات والمقاصير كل ذلك يذكر المرء بعظمة لويس الرابع عشر منشىء هـذا القصر فلقد كان حقاً خليقاً بتلك الأبهة وذاك المجد والفخار الذى كان يزهو به ، وفى هـذا القصر توج الأمبراطور غليوم الأول الألمانى سنة ١٨٧١ منتصراً على فرنسا ، ومن عجائب الأقدار أن فرنسا ثأرت لنفسها بعد خمسين سنة فأملت شروط الصلح فى نفس المكان وداخل ردهة المرايا وعلى نفس المنصدة سنة ١٩١٩ .

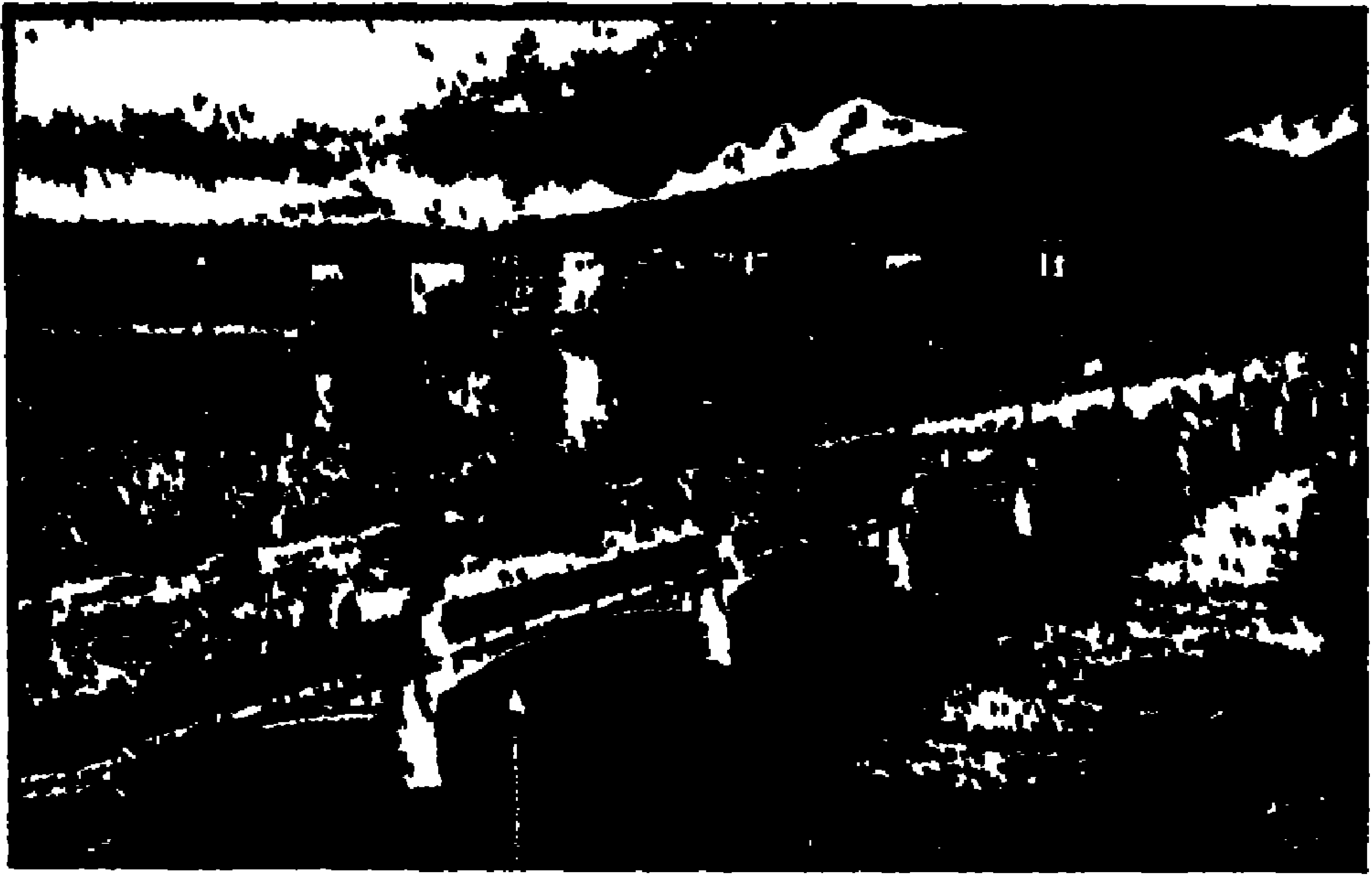
قصر فنتانبلو : ومعناه نبع الماء الجميل (Fontaine de belle eau) فى ضاحية تبعد عن باريس بساعة وربع فى القطار ، بنـاه مهندسون إيطاليون عهد فرنسوا الأول واتخذه نابليون مسكناً وفيه حجز البابا بيوس السابع سجيناً وأرغم أن يمضى عقد الاعتراف بإغلاقه الموانى فى وجه انجلترا بعد أن رفض البابا ذلك . وهو فخم قد يفوق فرساى فى أبهة النقش والزخرف من داخله فيه من الأثاث الفاخر شىء كثير كحجرة النوم لنابليون ومكتبته ، وصالة المشورة وبهو العرش


(شكل ١٩) قصر عصبة الأمم فى لوزان

وحجـرة مارى أنتوانيت ، وسريرها ، وروضـة هنرى الثانى أفخر الحجرات فى العالم أجمع ، ومن المعروضـات القيمة المنضـدة التى كتب عليها نابليون صك اعـتزاله للملك ، وفى هذا القصر ودع حاشيته وحراسه ، وهو خارج إلى منفاه فى جزيرة ألبا ، وكفى القصر فخراً أن قال عنـه بونابارت فى مذكرات منفاه (إنه لقصر خليـق بسكنى الملوك ، قصر لا تبلى جـدته السنون) .

متحف جريفان : أقيمت به مجموعة من التماثيل شكلت من الشمع الأبيض تمثل كثيراً من مشاهير الرجال مثـل كلنصو ومصطفى كمال ونابليون وبعض الوقائع كهجوم الثوار على لويس السادس عشر والقبض على الملك والملـكة وصلب المسيح ، وبه حجر تسمى (كاتا كومبو) بها تماثيل لمساجين هزال الأجسام ذوى وجوه شاحبة ناحلة مخيفة ، وكذلك بعض الموتى وما إلى ذلك من المشاهد المرعبة .

برج أيفل : وأقيم من الحديد الخالص فى شباك متقاطعة تدق وتتقارب



(شكل ٢٠) قنطرة (مون بلان) عند منفذ الرون من بحيرة جنيف

كلما صعدنا ، ولقد اعتليناه بمصعد كهربائى إلى الطابق الثالث وكان علوه ثلاثمائة مترا ، وكانت باريس على عظمتها تبدو ضئيلة كأنها خريطة بيد صغيرة يتبين المرء عليها جميع مواقعها ، وفى أعلاه ردهة فسيحة بها نزل للطعام ، ويعلوها طابق رابع للاشارات اللاسلكية ، وعلى اتصال بوزارة الخارجيـة ، والبرج ملك لشركة فرنسية تتناول جعلا قدره ستة فرنكات على كل زائر ، والزحام هناك بالغ نهايته وقد استغرقت الزيارة ساعة ونصف .

البانتيون : كنيسة تتقدمها الأعمدة على النظام الاغريقى ، وتعلوها قبـة فخمة تظل مدافن العظماء اعترافا بفضلهم ، ومن بين من دفنوا هناك ثم انتزعت جثثهم ثانية ميرابو وألقيت جثته للرعاع الثائرين ، ومارت وألقيت جثته للكلاب وكلاهما من رجال الثورة الفرنسية ، كذلك جثة فكتور هوجو التى اختفت معالمه بعد دفنها ولا يعلم اليوم مستقرها .



(شكل ٢١) احدى ولايات سويسرا حيث نرى القوم فى اجتماع برلمانى فى العراء

نوتردام دى پارى : أكبر كنائس باريس على النظام القوطى يتقدمها برجان بولغ فى حفرهما وزخرفتهما وفى داخلها قبة مزركشة أبدع ما يسترعى النظر نوافذها التى يكسوها الزجاج الملون تنعكس منه الأضواء القاتمة فتكسب المكان رهبة ، أما باقى الكنيسة فعادى فى نظرنا خصوصاً إذا قورن بكنائس روما .

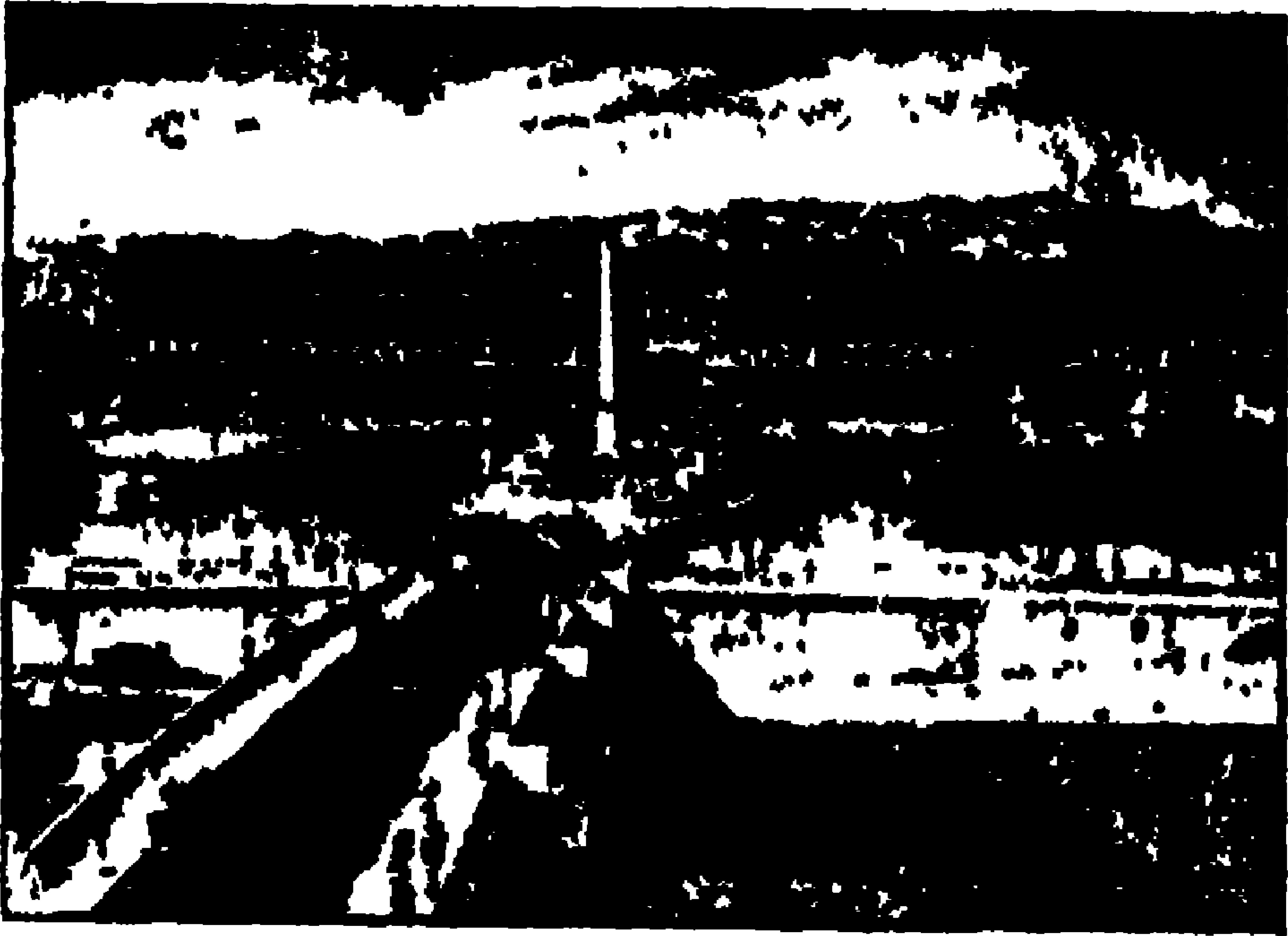
قصر الانفاليد : بناه لويس الرابع عشر ، وهو الآن معسكر دفنت فيه رفات نابليون تحت قبة فخمة ، وذلك بناء على وصيته التى قال فيها : إنى أحب أن تدفن رفاتى على ضفاف السين بين أبناء شعبى الذين أتفانى فى حبهم . وإن المرء لمجرد وقوع نظره على القبر لتعروه دهشة فى ذهول وروعة فى جلال حين يذكر أعمال ذاك البطل وأطماعه تلك التى يضمها ذاك الحيز الضيق — فسبحان مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء وهو على كل شىء قدير — والقبر من الجرانيت الصغير المجزع يطل عليه الزوار من سياج عال كى يطاطىء



(شكل ٢٢)   كلاب سان برنارد تقوم بعمل البوليس فى الضبط والاسعاف

[أعظم الزائرين رأسه إجلالا للامبراطور واكباراً لشأنه ولو كره ذلك ، وترى الناس وكأنما على رءوسهم الطير من روعة الموقف ، أذكر أن الأخ عبد الرحمن نسى ولبس قبعته ، وما كاد يضعها فوق رأسه حتى دوى صوت الحارس على شيخوخته وكأنه الرعد من أقصى المكان قائلا : اخلع قبعتك اجلالا ياسيدى .

وتواجه الضريح مقصورة فاخرة النقش يتوسطها المسيح وهو مصلوب ، وقد حليت الجدران بالصور التى تمثل وقائعه الحربية وأحيط به أخواه وعظماء قواده فى نواويس من الرخام والجرانيت ، وترفرف على الجميع الأعلام التى انتزعوها فى الحروب التى انتصروا فيها ، ومن بينها أربعة وخمسون غنموها فى واقعة أوسترلتز ، ولقبر نابليون باب بمصراعين من الحديد نحتت عليه الزخارف و بعض الوقائع ، بعضها بارز والبعض غائر ، صيغ كله من حديد المدافع التى غنمها نابليون فى واقعة أوسترلتز ، وقد عنى المهندسون الذين أقاموا الضريح بتصميمه ، بحيث تاتى شمس الأصيل بأشعتها الذهبية على رأسه مباشرة .



(شكل ٢٣) قصر اللوفر وأمامه الكركردو ، ميدان الثورة الفرنسية

وفى القصر متحف صغير للعدد الحربية القديمة ، وللجنود يلبسون الدروع ، ويمتطون جيادهم ، يتقدمهم ضابطهم ، بحيث يخيل للمرء أنه وسط جيش من القرون الوسطى ، وقد أحيط فناء القصر بالمدافع الضخمة منذ عهد نابليون ، وكذلك عربة السكة الحديدية التى أمضى فيها الجنرال فوش الصلح عقب الحرب الكبرى سنة ١٩١٨ ، وتتقدم القصر من جانبيه حدائق منسقة على أكمل مثال .

ذلك مثل مما يشاهده السائح فى باريس سيدة العالم فى التأنق والتبرج والزينة ، ترى النساء وقد خلعن العذار وأسرفن فى المجون وتغالين فى طلاء الوجوه بشكل مبتذل ، والفتيان ولا عمل لهم سوى تعهدهم هندامهم بالمحسنات ووجوههم وشعورهم وأظافرهم بمختلف وسائل التجميل ، وكأنما خلقوا للمغازلة ، والحق أن نظام الحياة فى باريس أبعد ما يدل على الفرنسى الصميم لأنها مزيج من مترف



(شكل ٢٤) بهو المرايا الذى أمضيت به معاهدة فرساى

العالم أجمع ، حتى قيل إن الأجانب هناك باريسيون أكثر من الفرنسيين أنفسهم ، ذاك لأن ثلاثة أرباع الشعب الفرنسى من طبقة المزارعين الذين لا يؤمون المدن بكثرة ، ولقد كان لامتلاكهم للأراضى ، وتوريثهم إياها لبنيهم واعتمادهم عليها أثر فى توثيق عرى الروابط العائلية واستقرارها فى القرى وقلل من الفوارق الكبيرة فى الثروة ، لذلك يقل الفقراء المعوزون ، كما يندر المولون المفرطون فى الغنى ، ولقد أثرت تلك الروابط العائلية فى مشاعرهم ، فكان الفرنسى معروفاً بشدة حنوه وعطفه ودقيق إحساسه ، على أنه حط من قيمة المرأة قليلاً ، حتى أن الزواج فى الريف كثيراً ما يتم باتفاق الآباء أنفسهم ، دون أخذ رأى الزوجين ، والفرنسى سريع الغضب ، حساس لكرامته إلى حد المغالاة ، حدث مرة أننا أردنا النزهة فى سيارة ، فأقبل رفيق لنا مصرى على السائق يناديه بنغمة الآمر ، وكان السائق متكئاً على سيارته يقرأ جريدة الصباح ، فنظر إليه السائق شذراً وأهمله ، وما كدنا نصله ونفتح باب السيارة حتى انفجر الرجل غاضباً ، ورفض طلبنا فى إباء .

لندن

غادرنا باريس قاصدين لندن ، عاصمة بلاد الإنجـليز ، وهى مشتقة من كلمة كلتية معناها كثيب المناقع (lake dune) أو (lyn din) ، وعند ما وصلنا ثغر دييب ركبنا باخرة كبيرة عبر المانش وهو بحر عظيم الاتساع ، سواحله صخرية مشرفة فى بياض تشوبه سمرة وتعلوه الخضرة ، وبعـد ثلاث ساعات رسونا على نيوهيفن من ثغور انجلترا ، ومنها أخذنا القطار إلى لندن فى ساعتين ، أما المناظر فعادية ، مروج فسيحة مفصنة السطح تكسوها الخضرة وتتخللها الأشـجار ، ولندن بدت فى نظرنا أقل شأناً مما سمعناه عنها فى حركتها ، ومبانيها ، وتنسيقها ، ونظافتها . خرجنا إلى : هيد پارك وطفنا به ، فإذا هو متنزه عادى ، ليس فيه من الجمال شىء غير أنه فسيح جداً ، ثم قصدنا شارع (پكاديلى) قلب المدينة النابض وهو أيضاً بدا عادياً ، وفى جولاتنا بالمدينـــة مررنا بشارع (فليت) مقر الجرائد الـكبرى ، ثم شـارع (دننج) ، وبه دور الحـكومة ، ولا بأس بفخامتها ، ثم اخترقنا شارع (الدار البيضاء) وميدانها وميدان البرلمان ، وبه دار النيابة ببرجيها الشاهقين تشرف على التاميز فى عظمة وجلال بجانبها كنيسة وستمنستر يواجهها تمثال كرمول ، وإلى الجانب الآخر الشارع الملكى يؤدى إلى قصر بكنجهام ، وهو صغير أمامه تمثال لذكرى فكتوريا ، وعلى الجانبين متنزه سانت جيمز الجميل ومن ميادين المدينة الممتازة (ترافالجار) يتوسطه تمثـال نلسون الذى أقيم تذكاراً لانتصاره وموته سنة ١٨٠٥ .

برج لندن : يرجع عهده إلى يوليوس قيصر ، والراجح أنه من عهد وليم الفاتح (١٠٧٨) وقد أضيفت اليه أجزاء فيما بعد ، وهو مقام على التاميز ، ومن



(شكل ٢٥) النافورة الفاخرة فى حديقة قصر فرساى (باريس)

حوله خندق متسع كأنه نهر صغير كان يملأ ماء من فتحة تتصل بالنهر عليها باب حديدى وسلم ، وكان المسجونون والمحكوم عليهم بالإعدام يدخلون منه وهم الخونة إذ ذاك ولذلك كتب عليه (باب الخونة) ومن بين من ماتوا فيه هنرى السادس و إدوارد الخامس والسيدة جين جراى التى تولت العرش ثلاثة أيام فقط ثم استعادته مارية تيودر الوارثة الشرعية وقضت باعدامها ، وتعرض هناك بعض أدوات التعذيب والقتل التى تدل على مبلغ استبداد ملوك انجلترا فى ذاك العصر ، وأفخر ما بها حجرة عرضت بها التيجان والصولجانات الملكية ، وهى مجموعة قيمة من الذهب المحلى بالجواهر الكبيرة مثل اليواقيت وقطع الماس فى أحجام تبهر النظر ، وهناك تعرض أكبر قطعة للماس فى الدنيا وهى فى شكلها الغفل ولم تقد بعد ، وترى فى مواجهة النهر مجموعة من المدافع القديمة التى غنمها الإنجليز من الهند والروس وسلطان عدن ، وعلى بعضها كتابة عربية فى خط جميل .

و بجانب البرج القنطرة المعلقة أقدم قناطر لندن من الحديد الضخم ، وفى



(شكل ٢٦) غرفة العرش لنابليون — قصر فنتانبلو

وسطها برجان شاهقان بينهما قنطرة سماوية ، وسكان هـــذا الحى على جفاء فى الطباع وخشونة فى المعاملة ، وهم كثيرو الجلبــة قذرون ، ولا يتورع الواحد منهم أن يتهكم على المارة وبخاصة الأجانب منهم بألفاظ وقحة وهم يشيرون إليه فى غير حياء كما حدث لنا .

كنيســة سنت پول : أكبر كنائس لندن وأعلاها ذروة ، فهى تعد رابعة كنائس الدنيا ، وهى مقامة فى شكل صليب تتوسطه القبة الشاهقة العلو التى يراها البعض من أفخر قباب الدنيا ، وهى فى هندسة قوطية لـكنها فى نظرى بسيطة ليس بها من الزخارف القيمة إلا القليل ، وبالمقارنة بكنائس روما لا تعــد شيئاً مذكوراً .

دير وستمنستر : كنيسة فسيحة الأرجاء عاليــة الأبراج فى هندسة قوطية كثيرة الفتحات المدببة والنوافذ يكسوها الزجاج الملون فى قطع صغيرة تبعث



(شكل ٢٧) غرفة النوم لمارى أنتوان زوج لويس السادس عشر — قصر فنتانبلو

بظلامها الداخلى شيئاً من الرهبة خصوصاً وتقوم فى أركانها مدافن العظماء ، ففى مقصورة ترى مشاهير الكتاب والشعراء أمثال شاكسبير وسكوت وتنيسون ودكنز ، وفى جانب آخر رجال الدين والسياسة نخص منهم بلمرستون ، ومن الملوك أدورد واليصابات وآن وكرمول ذاك الذى دفنت جثته هناك سنة ١٦٥٨ ، لكن فى سنة ١٨٦١ انتزعت جثته وألقى بها فى حفرة فى (تيبرن) وهو المكان الذى ظل إلى القرن الثامن عشر معداً لتنفيذ حكم الاعدام ، وقد علقت رأسه فوق ذروة فى وستمنستر ، وظلت هكذا ثلاثة وثلاثين عاماً حتى هشمتها عاصفة عاتية هبت هناك .

وفى مقدمة الكنيسة قبر الجندى المجهول ، وهناك حجرة صغيره يخالها الناس من الكنيسة ، وهى فى الحقيقة دار البرلمان الذى كان ينعقد فى عهد كرمول ، وأغرب ما فيها صغرها الذى لا يتسع إلا لنفر قليل ؛ وهى منقوشة نقشاً فنياً بديعاً وبجانبها :



(شكل ٢٨) مدفن نابليون تحوطه أعلام النصر

دار البرلمان :

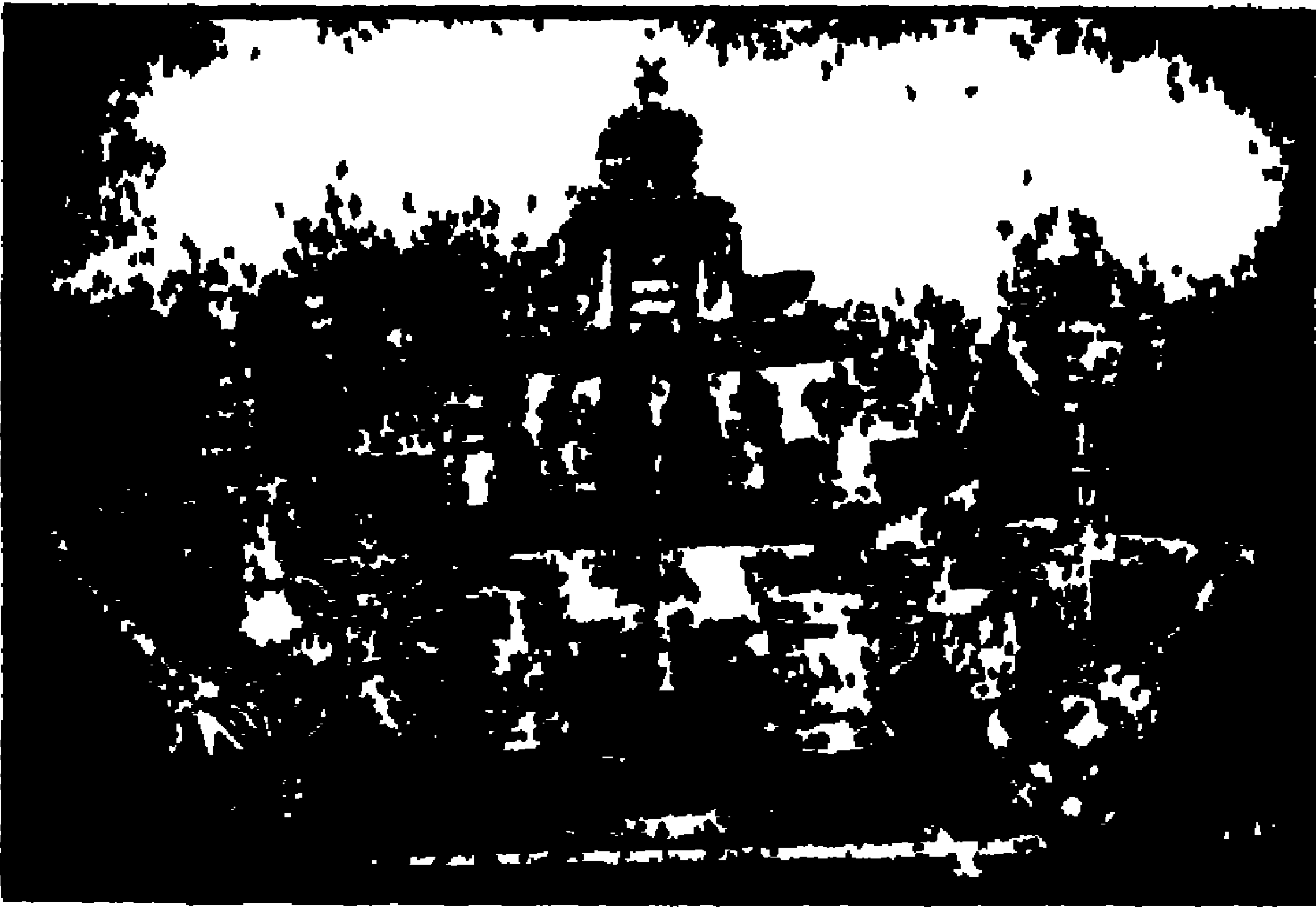
القاخرة ويشمل غرفة مجلس الأعيان (اللوردات)، يؤدى إليها بهو وردهة أقيمت على جوانبها تماثيل الملوك والملكات ، وصورت على جدرانها أعظم الحوادث التاريخية ، من بينها موت نلسون ، وواقعة ووترلو ، وكذلك بعض حوادث البرلمان سالفاً ، وفى سقفها من الزخارف بالذهب والفضة ما يحار فيه اللب ، وإذا ما جزته دخلت الدار فاذا هى آية فى الإبداع من نقوش جذابة إلى زخارف ثمينة إلى مقاعد وثيرة تكسوها الجلود الحمراء البراقة ، وفى زواياه تماثيل لمن أرغموا الملك جون على إمضاء العهد الأعظم (ماجنا كارتا) دعامة الدستور الأنجليزى ، وهم ثمانية وعشرون بارونا والمكان حقاً يمثل عظمة الدولة البريطانية ، ولعله أفخر ما يراه الإنسان فى لندن كلها ، أما مجلس النواب فجميل فى بساطة لم يبالغ فى نقشه ، ولم يسرف القوم فى تنسيقه ، تغطى مقاعده بالجلود الخضراء وعددها ٤٧٦ مع أن مجموع الأعضاء ٦١٥ ولا يسمح لأحد بزيارته وقت



(شكل ٢٩) السيدة جين غراى والجلاد قد أمسك بالمقصلة لفصل رأسها

انعقاده إلا بتذاكر خاصة عدا يوم السبت وهو يوم عطلة للبرلمان حين يسمح للجميع أن يدخلوه .

حى لفربول : وهو الحى الوطنى الذى تقطنه الطبقات الفقيرة ، ضيق الطرقات قذرها بحيث يحاكى أزقة الحسينية عندنا ، وترى الباعة قد نشروا سلعهم على منـاضد خشبية وهم ينادون عليها فى غير نظام ، إذ ترى بائع السمك القذر إلى جانب بائع الحلوى والفاكهة والخيـار (المخلل) يعف عليها الذباب فى شكل تعافه الأعين والطرق قد لوثت بما ألقى فيها من أوضار ، وبما تسيل فيها من مياه كدرة ودماء اللحوم القذرة ، والعامة هنالك كثيرو الجلبة رثو الهيئة ، والصبية الهمل كأبناء الشحاذين عندنا ، وكم كنت أود أن آخذ بعض الصور الفوتوغرافية ، ولـكنى دهشت لما خبرنى بعض الأصدقاء أن القوم لا يسمحون بذلك مطلقاً ،



(شكل ٣٠) التيجان والجواهر الانجليزية التي تلبس في الحفلات
(في أعلاها تاج فكتوريا وبه أكبر ياقوتة في العالم وفي الصولجان الأوسط
أكبر ماسة في الدنيا — ٥١٦ر٥ قيراطاً)

وقد حاولها هو مرة فلم يستطع ، وانتهى الأمر إلى تحطيم آلة التصوير ، وكان شجار ثم ملاكمة نجا منها بعد لأى ، هذا مثل من احترامهم لقوميتهم جدير بكل إكبار ، وخليق أن نحتذيه نحن في بلادنا .

ثم مررنا بحى (كفنت جاردن) وهى السوق العامة للفاكهة والخضر عظيمة الحركة والضوضاء خاصة بالحوذية والحمالين ، الذين يسوقون عربات الحمل بسلال الفاكهة في تزاحم شديد ، والمكان تعوزه النظافة وسكانه قذرون للغاية .

المتحف البريطانى : لعله أكبر متاحف الدنيا ، به من الآثار مجاميع قيمة لا تحصى جىء بها من جميع الدول حتى أمريكا وجزائر المحيط الهادى والهند والمستعمرات كلها ، وفى قسم الآثار القديمة جانب مصرى فى ست حجرات كبيرة أقيمت فى هندسة مصرية قديمة وبعض أعمدتها وجدرانها من



(شكل ٣١) البرلمان يشرف على التامز فى لندن

الصخور المصرية القديمة يلفت النظر من المعروضات المعدومة النظير فى مصر : حجر رشيد وهو أسود كالاردواز سمكه نصف متر وهو الذى هدانا إلى فك الطلاسم المصرية لأنه منقوش بثلاث لغات الإغريقية والديموطيقية والهرغليفية عثر عليه أحد ضباط الحملة الفرنسية ، ثم تملكه الأنجليز عقب انتصارهم على الفرنسيين وحملوه إلى لندن ، وقد توصلوا إلى فك رموزه اليونانية أولاً فإذا بها شكر كتبه الكهنة إلى بطليموس سنة ١٩٤ ق م واستعانوا على تفهم الديموطيقى ثم الهروغليفى الذى كان من المعميات من قبل ، كذلك جعل (جعران) كبير يبلغ طوله المتر وهو أسود براق ، ومن الأجسام المحنطة نحو الخمسين حفظت حفظاً تاماً فى لفائفها من الكتان ربطت بالجلد ونقش على القماش بعض صور الموتى ، وأهمها جثة مدفونة فى قبر صخرى ضخم ، وقد أطبقت الرجلان إلى البطن ، واليدان إلى الوجه وقلبت على وجهها ، كذلك شعر سيدة مستعار يلبس فى الرأس فى تجاعيد ذهبية تتدلى منها



(شكل ٣٢) بعض فقراء الانجليز فى أسمالهم الرثة بمرى الشواطئ

الحلل الدقيقة فى شكل يحكى ما يعمله بعض الطبقات الراقية من نسائنا اليوم .

وفى الأقسام غير المصرية معروضات هندية و برازيلية ، وكذلك مخلفات من العصر الحديدى ، والبرنزى ، والحجرى ، وحجرة للجواهر ، وأثمن ما بها جرة بورتلند (Portland Vase) من زجاج أسمر ، حفرت عليها التماثيل بحجر الماس بدقة فنية مدهشة وهى الوحيدة من نوعها فى العالم عرض على صاحبها مليون من الجنيهات ثمناً فرفض بيعها وأهداها للمتحف ، و بالإيجاز فالمتحف عالى فى معروضاته يتطلب فى تفقده شهوراً و يتساءل المرء كيف أمكن لهؤلاء الجبابرة الحصول على تلك المجاميع القيمة الوفيرة .

معرض الفن الأهلى : و به صور زينية قديمة ، من مختلف مصورى العالم ، من بينهم رفائيل وميخائيل انجلو ورامبرانت وفان ديك ، والقوم قد عنوا بترتيبه حسب العصور والمدارس الفنية المختلفة ، و يدهش المرء لكثرة الزحام خصوصاً من السيدات اللاتى ينظرن إلى الصور نظرات عميقة تشعر بحسن ذوقهن


(شكل ٣٣) لندن : أحد الحدائق فى حى كمت جاردن القدر

وتقديرهن للفنون وهن يصحبن أولادهن الصغار ويشركنهم فى تفقد الصور لكى تتربى فيهم الملكة الفنية ، وتساعد الحكومة على ذلك بإباحة الدخول مجاناً للجميع ، وفى كل المعارض والمتاحف .

ومن معارض الفن الحديث (Tate) باسم مؤسسه يحوى مجموعة قيمة ، لكنها دون ما رأيناه فى روما بكثير ، إذ المقدرة الفنية فى التصوير تكاد تقرأها فى كل صورة تراها من صنع يد الإيطاليين ، أما بين الأنجليز فهذا نادر لأن صورهم يسودها شيء من الجمود وافتقارها للحياة ، فكأن البرود الإنجليزى قد خلف أثره حتى فى تصويرهم .

أدجوير : ضاحية من لندن تعد موطن الطبقات الوسطى ، بيوتها صغيرة متواضعة ليست متلاصقة ولا مرتفعة ، يحيط بكل حديقتان صغيرتان ، ويفصل بين كل مجموعة من المساكن مرج فسيح أخضر ، ويسترعى النظر فيها نظافتها وبساطة بنائها فهى تقام بالآجر الأحمر ، وتكسى واجهتها بالزجاج الذى يبالغ القوم فى مسحه ، تغطيه الستائر من داخله ، وترى فى مدخل كل صالون الاستقبال ، وقد

نسق فى بساطة ، وعلقت على جدرانه الصور الزيتية وباقات الزهور فوق المناضد ، وقد زرنا إحدى العائلات هناك فى رفقة زميل لنا كريم ، وتصادف أن كان وقت الغداء وقد مد القوم السماط ، وعجيب أنهم جميعاً قابلونا بترحاب وأجلسونا حولهم وهم يأكلون ولم يتعرض واحد منهم لدعوتنا ولو (عزومة مراكبية) فكنا ونحن جلوس نحس بشىء من الخجل ، وظننا أنهم سيقدمون لنا تحية من القهوة أو ماشا كلها كما نفعل نحن ، لكن شيئاً من ذلك لم يحصل مطلقاً ، فودعناهم ونحن ذاهلون من ذاك الجمود الذى نعده عندنا ضرباً من التنطع الذى لا يغتفر .

سكان لندن : قوم صحيحو الجسوم بفضل ميلهم للرياضة نظيفو الهندام يسيرون فى نشاط الشباب حتى الشيوخ منهم لا يضيعون وقتهم الثمين فى التلكؤ فى الطرقات أو التسكع على المقاهى ، وعجيب ألا توجد المقاهى هناك قط اللهم إلا أماكن تفتح ساعة أو ساعتين فى اليوم ، ويؤمها العمال لتناول الشاى أو القهوة ، أذكر أننا كنا نحن كثيراً إلى مكان نجلس فيه لتناول بعض المرطبات فلا نجد إليه سبيلا فى جميع الأرجاء ، وقد أعيانا التعب ونال منا ، فهم قد استعاضوا عنها بالأندية التى لا تكاد تجد فرداً إلا وهو مساهم فى واحد منها ، والنساء هناك رشيقات يمشين فى وقار ولا يتكلفن فى أرديتهن ولا يطلين وجوههن بشىء إلا نادراً على عكس ما يفعل الباريسيات ، على أن اختلاطهن بالشبان كثير جداً فى المتنزهات وبشكل فاضح ، ولعل أجل صفات الانجليز رزانتهم وقلة الجلبة بينهم على نقيض الفرنسى ، حدث مرة أن انجليزيا كان راكباً فى قطار فرنسى إلى باريس فى المقعد الذى يواجهنا فأقبل فرنسى ولم يجد له مكاناً ، وكان فى المقعد المجانب للانجليزى حقيبة فأشار عليه أن يرفعها ليجلس فلم يعن الانجليزى بأمره واستمر يقرأ كتابه فما كان من الفرنسى إلا أن هدده بالقائها من النافذة فتمادى الانجليزى فى جموده

لحملها الرجل وألقى بها من النافذة والقطار يسير كالبرق ثم جلس مكانها فلم يحرك الانجليزى ساكناً ، و بعد قليل ونحن نتهامس عجباً جاء صاحب الحقيبة و بحث عنها فارتبك الفرنسى وأقبل على الانجليزى يلومه ، وأخذ يعتذر لصاحبه و يتكفل له بالعمل على احضارها له . فانظر مبلغ تسرع الفرنسى وطيشه وجمود الانجليزى ورزانته : وهم يراعون النظام فى كل شىء ولا يتعدون حقهم أبداً ، وكذلك لا يسمحون لغيرهم أن يسبقهم إلى حقهم . حدث مرة أن رجلا أخطأ وتعجل دوره فى طريق مزدحم ، وكان يحمل ابنته الصغيرة على ذراعه فلكمه الثانى بيده غاضباً وهو يقول إلزم مكانك خلفى فتقبلها الرجل فى برود ، وخاطب طفلته متهكما وهو يقول يظهر أن صاحبنا هذا رجل مفتول العضلات !

متحف التاريخ الطبيعى : مجموعة لاتبارى نباتيـة وحيوانية وجيولوجية ولا يستطيع المرء تفقدها فى أيام بل فى شهور ، فمن الحيوان ترى جميع هيا كلها العظيمة محنطة بأحجامها المختلفة وفصائلها المتعددة ، وقسم الحفريات رائع إذ ترى من بقايا الحيوان البائد ما يهولك كهيا كل الماموث والماستودون وغزال ارلندا الـكبير ذى القرون المفرطحة فى طول مترين ، و بقر البحر الذى يبلغ ثمانيـة أمتار فى الطول والـكسول (Giant Sloth) وطوله تسعة أمتار والارمادلو كالقبة التى يبلغ ارتفاعها مترين وطولها أر بعة وزاحف طائر كالخفاش طول امتداد جناحيه أر بعـة أمتار وعائلة البنتوسورس وطول سنه نحو شبر ودينوسورس وطوله ثمانون قدماً وعلوه ثلاث عشرة ، وسلحفاة تسع عشرة أشخاص فى داخلها ، وهناك قسم للحشرات حاضرة و بائدة ، وآخر للنبات ، وأعجب ما هالنا به جذع شجرة قطره ستة أمتار ، وعمر الشجرة يرجع إلى عهد جستنيان منذ سنة ٥٥٧ ميلادية ؛ وفى جانب آخر ترى بقايا الإنسان البائد من أسلحة وعدد وعظام وغير ذلك مما

لا يدخل تحت حصر ، فالمتحف من أمتع المجموعات العلمية يسهل على الطلاب معميات علومهم ، و يفيدهم فى الدرس كثيراً .

حديقة الحيوان : تتوسط متنزها كبيراً يسمى (چيمز) و بها مجموعة كبيرة من مختلف حيوان العالم ، وأعجب الحيوان بها : البوما والتابير والبيسون وكلب الماء وحجرة الحشرات أمثال النمل الكبير والعقارب التى قد تبلغ الواحدة حجم راحة اليد فى شوارب بالغة الطول ، وهنالك قسم للأسماك (اكواريوم) به مختلف السمك وأعجبه السمك الكهربائى وقوته إذا لمس مخيفة إذ تبلغ خمسمائة ڤولت ، والسمك ذو الرئة الذى يستطيع أن يعيش فى الهواء ، وذو القناع تحوطه أغشية حريرية بيضاء رقيقة ، والسمك ذو الأهداب الفسفورية التى تنير كأنها أسلاك الكهرباء الدقيقة الملونة ، وقد أدهشنا تزاحم القوم على الدخول إذ كانت الجماهير تعد بالألوف يقفون فى صفوف تمتد بعيداً ، والحديقة أقل من حديقة القاهرة تنسيقاً وجمالاً ، و إن كانت أغنى منها فى مجموعة حيواناتها ، والحق أنى لم أر حديقة تعادل حديقتنا فى سائر المدن الأوربية .

حديقة كيو : مساحتها ٢٨٨ أيكر و بها ٠٠٠ ر ٢٤ فصيلة من النبات ونحو مليونين من العينات المختلفة ، وهى أكبر مجموعة فى العالم ، أقيمت بها البيوت الزجاجية تنمو داخلها نباتات الأجواء المختلفة ، فنبات المنطقة الإستوائية مثلاً ينمو فى مقاصير من الزجاج ترفع درجتها بالبخار إلى ٩٠° ف ، وتمتد فى عنان الجو ، وأعجب ما رأيت داخلها : طبق الماء وهو ورق كالإناء شائك من أسفله وقطره نحو مترين ، وورد الماء أحمر اللون فى حجم كرة القدم الكبيرة ، وهناك مقصورة للنبات آكل اللحوم ، وله كأس فى نهاية الورقة قد تكون فى حجم كوب الماء الكبير ، وعليها غطاء يغلق إذا ما دخلتها حشرة فيمتصها النبات ، ومن

أنواع النخيل نرى عشرات بين الترجيل ونخيل الزيت والساجو والدوم ونخيل البلح فى طول شامخ وكله داخل الزجاج ، أما النبات والشجر الذى فى الهواء الطلق فغالبه من نبات البلاد الباردة من نفضى وصنوبرى . أمضيت فى الحديقة يوماً كاملا ولم أتفقد إلا بعضها فهى مدرسة للنبات يجد فيها الطالب ميداناً خصيباً للبحث والدرس والتجربة .

القصر البلورى « كرستال » : يقام من بوائك حديدية يسد ما بينها الزجاج الثقيل ، بنى فى هيدبارك عهد فكتوريا وابتاعته شركة ثم نقلته إلى مكانه الحالى فى الضواحى ، ورغم غرابة بنائه وعظمته فقد زاد القوم منفعته فأقاموا به معارض علمية للحيوان المحنط وللمخلفات الجيولوجية ، ولعل أجمل ما به قسم الهندسة المعارية ، وبه أقيمت مقاصير كبيرة فى هندسة العصور المختلفة فترى بهواً مصريا قديماً بعمده وتماثيله ونقوشه الهيرغليفية ، وإلى جانبه آخر اغريقى صميم ، وثالث رومانى ، ورابع عربى ، ترى به ردهة السباع من قصر الحمراء ، وخامس قوطى ، وسادس لهندسة عصر النهضة الايطاليـة بحيث يكفى للطالب الصغير أن يقوم بجولة حولها ، فيتفهم الفوارق الرئيسية فى فن العمارة والنقش ، وفى داخل كل تماثيل لأعاظم رجال العصر ، هـــذا إلى النافورات البلورية وأنواع الألعاب التهذيبية ، وأمام القصر حديقة نسقت أيمـا تنسيق .

هذا شىء عن لندن ذات المبانى المتراصة غير الجذابة التى يقام غالبها بالآجر الأحمر لأن التربة من الطفل ويندر وجود الحجر ، وهى ذات جو عكر من كثرة الدخان الذى تصعده المصانع والمدافىء ، لذلك ترى الهواء كدراً حتى أنك إذا مسحت أنفك بمنديلك ألفيته أسود فاحماً ، وقد كسيت الجدران بطبقة من الفحم سميكة أكسبتها لوناً قاتماً ، لذلك يغسل الأغنياء واجهة بيوتهم كل حين ، وتقوم

بذلك شركات خاصة ، هذا إلى الجو الغائم كثير السحب فهو غير مأمون يباغتك من غير انذار بالعواصف يتلو بعضها البعض ، وقلما يمضى يوم تصفو قبة السماء وينقطع المطر ، على أن هذا لا يعيق الانتقال قط لسهولة سبل الاتصال وتعددها حيث تشق الطرق الحديدية الأرض تحت قدميك فى ثلاثة طوابق ، وفوق السطح ترى السيارات والأوتوبيس الأحمر ذا الطابقين الذى قد تقرأ فى أرقامه المسلسلة عدد خمسمائة ، أما الترام فقد قصر على الضواحى فقط ، وتغص الطرق بالمارة خصوصاً بين السابعة والتاسعة صباحاً ، والرابعة والسابعة مساء ، حين لا يكاد يشق المرء طريقه وسط الجماهير ، ولا عجب فسكان المدينة يقربون من نصف سكان القطر المصرى ، وأنت ترى البوليس المهيب يسير الحركة بيديه ، ويشرف على كل شىء فى لباقة واهبة للأرشاد لا نراها فى بوليسنا ، ويرى البعض أن بوليس لندن هو المثل الأعلى وإن كنت أرى أن بوليس ألمانيا لا يقل عنه إن لم يفقه يقظة ودقة ، والإنجليز يرتادون المدن بكثرة (عكس الفرنسيين) لأن جل اشتغالهم فى المناجم والمصانع ، ولقد أثبت الاحصاء الأخير أن ثلاثة أرباعهم من المشتغلين بالصناعة والتعدين .

الرحلة الثانية

يونيـــة ١٩٣٠

أوروبا : دول الشرق والوسط والشمال

بين الاسكندرية والبحر الأسود

إلى أتينا : فى أقل من أربع وعشرين ساعة بدت أرض جزيرة (سكارباتيا) على اليمين وكريت على اليسار فى شبح فاتر ، و بعد ست ساعات اضطرب البحر ، وزاد عصف الريح ، وترنحت السفينة ، و بدا مرض البحر على سيماء بعض الركبان ، فانسلوا إلى مخادعهم ، ولم نعجب لذلك إذ بدت جزائر بحر الأرخبيل ، وهى تنتثر من إيماننا وشمائلنا كأنها ربى جبلية تقام القرى على حجورها ، وغالبها مجدب عار عن النبت ، ودخلنا ميناء بيروس ثغر أتينا ، وكانت جزيرة سلامس التاريخية ترى إلى اليسار . جبت أرجاء بيروس ، فبدا قذراً منفراً ليس به من شىء جدير بالزيارة وأقلنى الترام إلى :

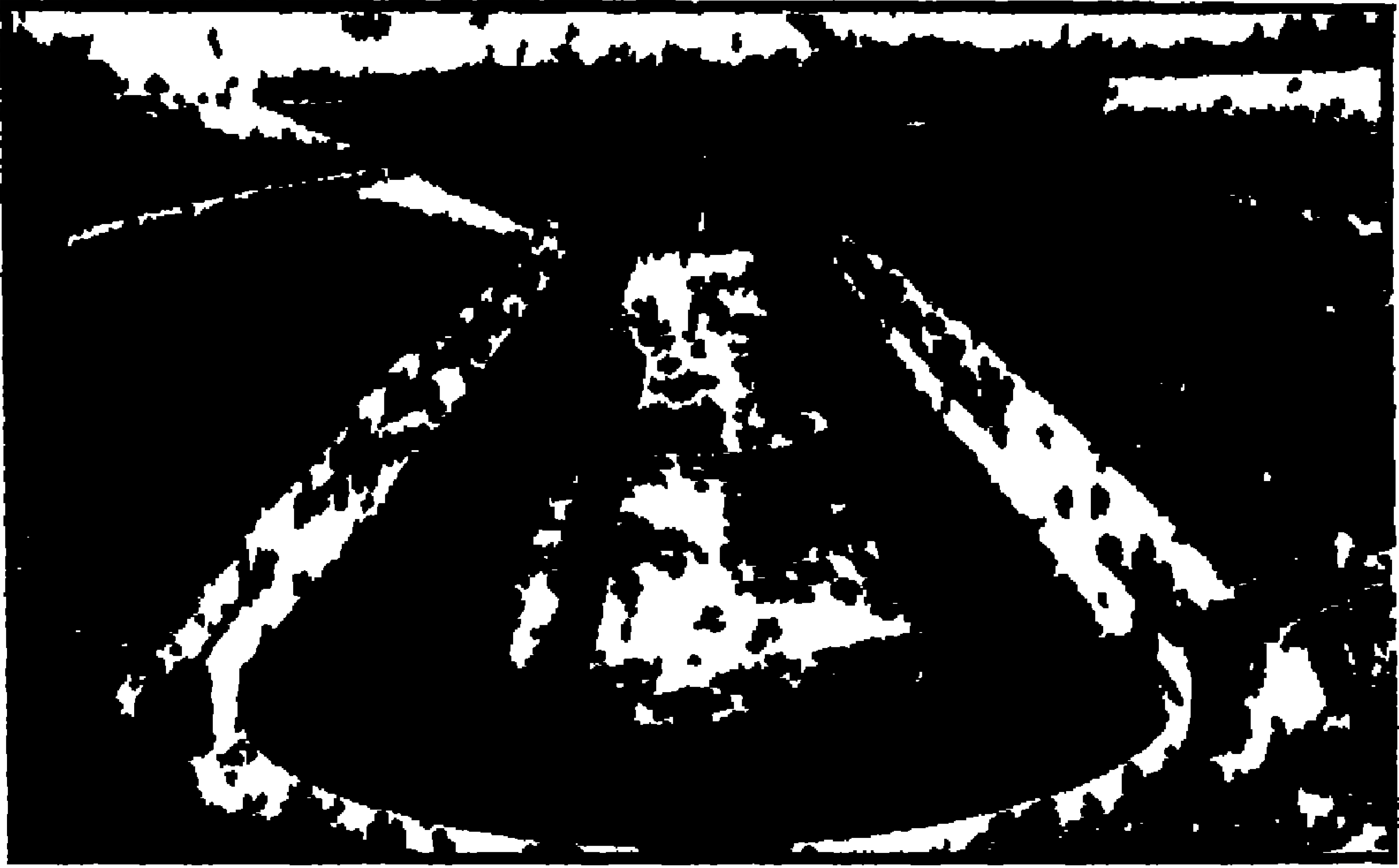
أتينا : عاصمة بلاد الأغريق ، وكنا نرى قبالتنا ربوة بيضاء عالية كأنها الهرم تسترعى النظر ، إذ تمتد على مدرجاتها مبانى المدينة تتوجها الأكربول التى تسلقناها فبدت عليها المعابد الإغريقية القديمة ، وكانت مقر الملوك الأقدمين ، ثم أضحت خاصة بالآلهة ، وغالب الآثار قد مسته يد البلى إلاّ القليل ، ولعل أجلها البارثنون ، وهو معبد العذراء أتينا آلهـــة الحكمة ، وبه ٩٨ عموداً من الرخام الأبيض فى النحت الاغريقى المحزع ، ومن حولها معابد أخرى أقل شأناً منها ،



(شكل ٣٤) فوق أطلال (الاكروبول) بأثينا وبعض شبان الجند يلبسون الأردية الأغريقية القديمة

وفى أسفل تلك الربوة قوس هادريان الذى يظن أنه نهاية أثينا القديمة ، ومن أفخم ما يرى المرء هناك الملعب (Stadium) يمتد فى شكل اهليلجى عظيم الاتساع ، وتعلو على جوانبه المدرجات المعدة للناظرين ، وقد جدد حديثاً بالرخام الأبيض على النظام القديم ويتسع لأربعين ألف متفرج ، وفيه تعقد الألعاب الأولمبية مرة كل أربع سنين بانتظام ، ولم تتوقف حتى فى أيام الحرب الكبرى ؛ على أننى وأنا واقف بين تلك الأطلال ذكرت آثار أجدادى فتلاشت أمام عظمتها — وبخاصة الكرنك — تلك المخلفات الإغريقية التى كنت أخالها أكبر من ذلك سنًا ، أما المدينة نفسها فعادية يعوزها كثير من النظافة والنظام ، طرقها متربة ، والمقاهى بها كثيرة ، على أن مناضدها بالخشب العادى ، ومقاعدها بالقش والخوص ، (كالقهاوى البلدى عندنا) .

وفى عودتى من رحلتى فى سبتمبر سلكت سبيلى إلى أثينا بطريق اكسبريس



(شكل ٣٥) دار (الاستادوم) مقر الألعاب الأولمبية بأثينا

الشرق ، الذى اخترق يوجوسلافيا ، و بعد مغادرة بلدة نيش القذرة بقليل دخلنا الحدود الأغريقية ، (وقد فتشنا البوليس اليوجوسلافى ونحن فى القطار نحو الست مرات داخل حدود بلادهم مما يدل على عدم اطمئنانهم لرعاياهم) ، وقد بدا الفرق الشاسع فى النظافة والنظام وجمال الخلق والخلقة بين هذه البلاد و بلاد وسط أوروبا وشمالها وكنا كلما قدمنا نحو أثينا زاد البؤس والجفاء فى الطباع ، و بدا على الخلق الهزال والجوع والملابس الرثة المرقعة ، وكثر الشحاذون وأبناء الشوارع بشكل مزرى ، والبلاد تكاد تكون صحراوية ، فالربى لا يكسوها إلا العشب الخشن ، وتبدو بعض المجارى المائية الصغيرة التى يكاد ينضب ماؤها حتى وصل القطار سلونيك ثانية مدن اليونان ، فسكنت بها يوماً ظناً منى أنها على شىء ، فإذا بها بلدة قذرة قديمة مهدمة متربة ، أهلها فى غاية القذارة ، على أن القوم جادون فى إصلاح بعض شوارعها ، مثل شارع فنزيلوس ، وأيا صوفيا ، وشارع البحر . وميناؤها صغير تقام عليه المقاهى ودور الملاهى وجزء من المدينة فوق الربى المدرجة

ومنظره يبدو جميلا على بعد فإن دانيته بدا أكثر قذارة وأشد بؤساً .

على أنى هنا فقط بدأت أتذوق الطعام الشهى الشرقى بعد ثلاثة شهور حيث خلدمت إلى أطباق الخضر ولحم الضأن اللذيذ ، والفاكهة كثيرة الوجود ، جيدة النوع بثمن بخس ، إذ المعيشة رخيصة بالنسبة للأجنبى ، وإن كان يراها الوطنى غالية لأن متوسط دخل العامل المجد فى اليوم اثنى عشر قرشاً ، وهذا القدر لا يسد عوزه . وحدث أن قام العمال بمظاهرة هناك ضد الحكومة احتجاجاً على بطالتهم ، وكانوا يصيحون والبؤس يتجلى فى مظهرهم إذ كان غالبهم حفاة خلق السرابيل يركب بعضهم عربات النقل القذرة (الكارو) ويحملون المكانس والنبابيت ، وبالمدينة بعض بقايا الأسوار والقلاع القديمة التى يرجع عهدها إلى الإسكندر الأكبر ، قمنا صوب أثينا بعد أن عبرنا نهر الوردار بقنطرة عظيمة الامتداد ، على أن ماءه كان آسناً إذ أنه لا يكون طامياً إلا إبان الشتاء ، ولما أن انعطف الطريق جنوباً بدا البحر إلى يسارنا ، وجبال أولمبيا المقدسة على بعد إلى يميننا ثم قاربناها تدريجاً فكانت صفحة شاهقة معقدة عاتية عريت عن النبت إلا القصير المتناثر ، وأعلى ذراها ٢٨٠٠ متر ، وقد اخترقنا منها جملة أنفاق أدت بنا إلى أرض تساليا أمام طابية الإسكندر الأكبر بسلونيك وهى خليط من الربى والسهول أعقبتها جبال ترموبيل التى بدت أشد قسوة وأصلب صخراً من أولمبيا ، وبها من الممرات والعقد والأنفاق ما لا يحصى ، وكنا نسير تحتها وهى تعلو فى صفحة رأسية رائعة ، وبين آونة وأخرى كانت تتخللها المجارى المختنقة السريعة ، ولقد أثار هذا المكان فى النفس ذكريات تاريخية تالدة لأمة كانت كل شىء ، فأخنى عليها الدهر ولم يخلف منها إلا الفقر المدقع والبؤس المبيد .

وكان القطار يقف فى محاط صغيرة جداً وموحشة ، وكنا نرى بائعى اللحم

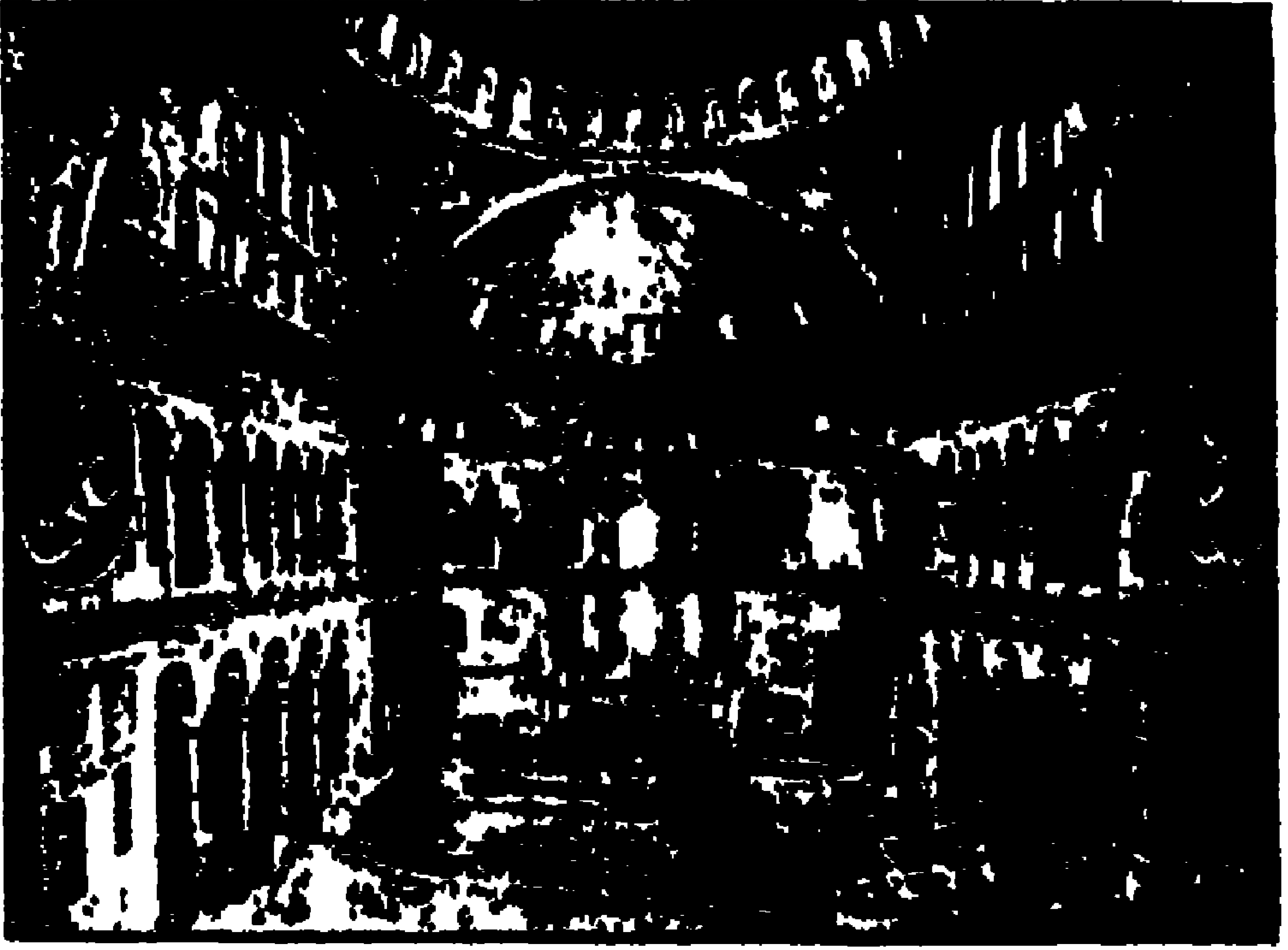


(شكل ٣٦) أمام طابية الاسكندر الاكبر سلونيك

والجبن والخبز ، وقد افترشوا الأرض والذباب والنحل يكاد يكسو المبيمات بغشاء تعافه الأعين ، وأخيراً أقبلنا على أتينا خلال طرق قذرة ، وأطلال بالية متربة ، إذا ما رآها السائح سئم المقام وآثر الارتحال ، فالطرق أسوأ اعلان عن البلاد ، وعامة القوم على قذارتهم يتكلمون الفرنسية ، ويظهر أنها اللغة السائدة فى جميع الأنحاء بين بودابست وأتينا ، أما طريق اكسبريس الشرق بين هاتين البلدتين لجاف مجدب فقير بمناظره الطبيعية ، وحره فى الصيف قائظ محرق ، ولذلك ليس بعجيب أن يكون جمهور المسافرين فيه قليلاً ، ركبت البحر ولم تترك أتينا فى مخيلتى من المظلمة التى خلتها بها إلا قبساً ضئيلاً لم تثره آثارها بل مظهر فقر الأهلين ، أولئكم الذين لا يكاد المرء يعتقد أنهم فرع عن ذاك الأصل التالد العريق .

الى القسطنطينية : أقلعت الباخرة من الميناء وسط الربى الجزرية وظلت هذه تبدو فى جميع الآفاق فى حمرة قرنفلية لا يشوبها إلا بقع سوداء من عشب وشجر منثور ، ونقط بيضاء تنبئ عن منازل القوم ، ثم دخلنا مأزقاً اشتد فيه الموج بين جزيرتى أندروس إلى اليمين ، ونجر وبنت إلى اليسار ، وظل الماء يضطرب طوال الليل ، وما كانت الساعة الخامسة صباحاً حتى كنا بين ربوتين ، هما مدخل الدردنيل ، عليهما أطلال حصون قديمة ، ومنارات مشرفة

أذكرتنى بما كان لهذا الموقع المنيع من الجبروت إبان الحرب الكبرى ، و بعد انقضاء ساعة بين تلك الربى ظهرت على الجانبين أبنية منسقة نظيفة ، بينها مآذن لمساجد عدة ، وقد أقيم على شطوط كل منها حصن جبار ، وتسمى هذه البقعة المختنقة (شنَل قلعة) يقطنها عدد كبير من الأتراك ، وهنا جاء زورق مصلحة الصحة التركية للتفتيش الصحى ، ثم بدأ بعدها منعطف شديد إلى اليمين سلكته السفينة بين تلك الربى اللانهائية التى تكسو أعاليها الأعشاب أو الأشجار ، و بخاصة على الجانب الأوروبى ، وفى المنخفضات يستنبت القوم القمح والشعير على المطر ، أما الشجر فغالبه من الزيتون القاتم ، وكان اتساع الدردنيل يختلف انفراجاً وانقباضاً ، ولبثنا نسير فيه ست ساعات كاملات ، بدا بعدها على بعد منا بحر مرمرة ، وقد أخذت تنفرج سواحله وتنأى عنا ، بحيث لا تكاد ترى إلا فى طيف ضئيل ، ثم ظهرت أطراف البسفور الجنوبية على بعد فى شكل اهليلجى يرى مغلقاً ، ولا يستبين المرء له منفذاً ، وعلى جوانب القوس أقيمت المساكن ذوات السقف الحمراء مدرجة على جوانب المرتفعات ، وأخذنا نتبين مآذن المساجد الفخمة وقبابها وكلما قاربنا المكان زادت تفاصيله فى جمال رائع إلى يميننا جانب اسكدار الأسيوى ، و إلى يسارنا اسطنبول ، و بجانبها القرن الذهبى الذى تعبره قنطرة جالاتا . وتصل بين حى بيرا الأوروبى الحديث شمالاً ، واسطنبول القديم جنوباً ، وتلك البلاد التى تكون فى مجموعها القسطنطينية مقامة على سبعة تلال تكون مثلثاً ، وهى فى الواقع قطعة من آسيا فصلتها عوامل الرفع التى أحدثت شقاً هو البسفور ، وقصارى طوله تسعة عشر ميلاً وعرضه ميلان ، و يسير فى اتجاه من شمال الشمال الشرقى إلى جنوب الجنوب الغربى عمقه بين ٣٠ ، ١٢٠ متراً ، و به تيار دافق من البحر الأسود غالباً بسرعة عقدتين ونصف فى الساعة إلا حيث يختنق جداً ، و يحدث



(شكل ٣٧) النقوش الفاخرة داخل مسجد آيا صوفيا — اسطنبول

دوامات مروعة ، و يعزى إلى الرياح الشمالية الشرقية السائدة .

رست السفينة فى مدخل القرن الذهبى قرب القنطرة (جالاتا) ، ودخل البوليس لفرز جوازات السفر بدقة متعبة ، والمسافرون الذين أغفلوا التأشير على جوازاتهم لم يسمح لهم بالنزول إلى البر ساعة واحدة إلا بعد دفع رسم قدره جنيه مصرى ، حللت أرض المدينة الأوروبية (بيرا) ، ولا بأس بمبانيها ونظافتها على أن طرقها ضيقة ترصف بالأحجار الصغيرة ، وتعلو آونة وتهبط أخرى ، وهى غاصة بالحركة التجارية والترام يتلوى فيها ليات مدهشة ، و يتسلق ربى ثم يهوى بانحدار مخيف مما يؤيد أن البلد مقام على تلال وبها حى كثيز للملاهى اسمه (Taxim) ، تتعدد به المتنزهات والمقاهى ودور الموسيقى والغناء التى تحكى (ألف ليلة) عندنا ، وفيها نسمع أنغاماً شرقية جميلة (والعود) ، (والقانون) ، من الآلات الموسيقية الهامة لديهم ، ثم عبرت قنطرة جلاتا إلى اسطنبول ، الحى الشرقى البحت بأزقته

المختنقة وحوانيته التى تحكى جهة (خان الخليلى والخيمية) عندنا ؛ وأجمل ما زرنا بها مساجدها القاخرة المتعددة التى تشمخ بقبابها ومآذنها العديدة ، وفى مقدمتها : (مسجد أياصوفيا) وهندسته تدل على أنه كان كنيسة ، لأنك ترى الصلبان بادية فى بعض نقوشه وفتحاته ، بل وفى مجموع شكله من الداخل ، ذلك الذى يعجز القلم عن وصف إبداعه الفنى ، وزخرفه الجذاب فى القبة الفخمة والأعمدة الشاهقة والفناء الرحب ، وأينما طوحت ببصرك ألفيت المخطوطات القرآنية صيغت بالذهب ، وتعلق أطر مستديرة كبرى فى الأركان تحمل الأسماء الكريمة المقدسة ، ومن محتوياته القيمة مجموعة من عمد خضراء ، نقلت من معبد ديانا فى افيوس ، وأخرى حمراء ، جئ بها من معبد الشمس فى بعلبك ، وهناك سجادة تنسب للنبى صلعم ، ومهد المسيح وحوضه نقل من بيت لحم ، وعمود يرشح منه الماء الذى يبرئ المرضى ، وفى أبهائه الخارجية عدة أسبلة عربية أنيقة ، وقد أقامه جستنيان سنة ٥٣٢ م ليكون كنيسة ، ثم حوله الأتراك مسجداً بعد ذلك بنحو تسعمائة سنة ، وأمامه ميدان فسيح يزينه من الجانب الآخر (مسجد السلطان احمد) بمآذنه الست الدقيقة وقبته الكبرى التى ترتكز على أربعة أعمدة تفوق فى ضخامتها عمد الكرنك وتحتها أربع قباب نصفية تحت كل ثلاث صغيرة ، والنقوش هناك رائعة ، وعالبها بالقيشانى الأزرق الجميل ، ولذلك يسمى بالجامع الأزرق أحيانا ، ويتقدم المسجد مسلتان إحداهما مصرية ، هذا وتقام كثير من مبانى المدينة بالخشب ، ولذلك كثيراً ما تشب النيران فيها فتحدث أضراراً جسيمة ، وقد حدا بهم هذا إلى إقامه برج شاهق على ربوة كان يقف فيها الحراس لتعرف مواضع النيران عند منبوبها . أما الأتراك فيبدو عليهم النشاط جميعاً ، وتفيض نفوسهم بالحماسة الوطنية ، فالكل يتعصبون لقوميتهم إلى درجة الجنون . لبسوا القبعات جميعاً ، وأسفر نساؤهم بحيث لايفرقهم



(شكل ٣٨) أمام مسجد السلطان احمد — اسطبول

المرء عن سائر الأوربيين ، والمحال التجارية تكتب عنواناتها بالتركية فى حروفها اللاتينية الجديدة ، ولا يسمح لأحد أن يكتبها بغير لغة البلاد ، مظهر للقومية جميل لا نراه فى مصر مع الأسف الشديد ، والغازى مصطفى كمال يجوب الطرق فى سيارة عادية من غير حراس ، وكان كلما تعرفه القوم على بعد هاجوا وصاحوا قائلين (الغازى الغازى) مهللين مبتهجين ، وهو محبوب منهم إلى حد التقديس ، على أن القوم يعوزهم المال على ما يظهر من الحالة الرثة لكثير من أبنائهم ، فهم لا يزالون يعانون من ألم ما عقبته الحرب من سيئات .

قامت الباخرة تشق عباب القرن الذهبى ، وإلى يمننا مدخل مرمرة ، وأمامنا مدخل البسفور ، فكانت الطبيعة تتجلى فى جمال فتان من ربى ووهاد تكسى بأشجار الفاكهة والزيتون فى خضرة قاتمة ، وقلات أقيمت على درج المنحدرات بسقفها الحمراء المنحدرة ، ومآذن المساجد تناطح السحاب ، وكان البسفور آونة ينقبض ويختنق ، وآنا ينفرج وينبسط فى تعرج خفيت ، وعند كل اختناق

أقيمت القلاع ، وقد بدا عليها القدم والتهدم ، ولبثنا فى تلك الجنة الخلابة عشرين ميلاً و بيوت الأستانة تمتد على الجانبين الأور بى والاسيوى ، وألفت نظرنا القصر الشاهانى المشرف على الماء فى الجانب الأور بى ، ومعسكر قيل إنه أكبر معسكرات الدنيا فى الجانب الأسيوى ، والحق يقال ان هذا المنظر لا يعدله منظر فى العالم أجمع ، فهو يفوق سويسرا وجبالها جمالاً وروعة .

دخلنا البحر الأسود ، وأخذت الأراضى تنفسح حتى اختفت وراء الآفاق ، وكنت أتوقع اضطراب الماء فى هذا البحر ، وقد عرفنا أنه مقر الأنواء والعواصف الشتوية التى تلقى عليه من سحبها القاتمة الكثيفة غبرة أكسبته اسمه ، ولكن ظروفنا كانت موفقة ، وظل البحر هادئاً جميلا ، ولو أن ماءه لم يبلغ من الصفاء ما يبلغه ماء البحر الأبيض ، وظل حيوان الدلفين طويلاً يناطح مقدم السفينة كأنه يقف فى سبيلها ، وأخيراً بدت أرض :

رومانيا : وألقت الباخرة مراسيها على مدرجات ثغر قستنزا الساعة الثالثة صباحاً ومدخل الثغر وطئ قليل النظافة ، نرتقى خلفه ربوة تقام عليها المدينة ، ولا بأس بتنسيقها ، واسترعى نظرى بها بعض المساجد ، إذ أن المدينة وما يليها جزء من (دبروجه) الاسلامية التى كانت تحت حكم الترك ، ولذلك لا يزال يلبس غالب سكانها الطرابيش .

قمنا إلى بوخارست وسط سهول مبسوطة تمتد إلى الأفق يكسوها النبت وبخاصة القمح والذرة ، وكان القوم يحصدون القمح وقتئذ (٢٥ يونية) بمحاريث غالبها آلى حديث ، تجرها الخيول : وغريب أن تروى الأرض بالأمطار فحسب ، وليس هناك من قنوات تصلها بالدانوب وفروعه رغم قربه منها ، والبيوت والقرى مبعثرة وسط تلك الحقول ، وجميعها تطلى باللون الأبيض وتسقف بالآجر الأحمر ،



(شكل ٣٩)   السور المختنق تشرف عليه طوابى (روملى حصار)

وكان الجو جيلاً أميل إلى الدفء ، ويعمل النساء بكثرة فى الحقول مع الرجال ويكثر توظيفهن فى خط السكة الحديدية ، وعند ما قارب الدانوب فى بلدة (سرناقوده) اجتاز قنطرة هائلة فى ثلاث قطع بينها بعض الجسور ، ومجموع طولها عشرة أميال لأنها تقام حول شعاب الطونة الكثيرة ومناقعه العديدة هناك والنهر وطئ هادئ متسع ، ويكاد يساوى النيل عرضاً ، وكانت ترى مآذن المساجد بكثرة فى القسم الأول من البلاد ، وفى منتصف الساعة الثانية عشرة دخلنا :

بوخارست : عاصمة البلاد ، وتسمى باريس الصغيرة ، لأن أحياءها الجديدة تشبه باريس ، جوها متطرف قائظ فى الصيف جليدى فى الشتاء ، ولذلك تنزع العربات عجلاتها شتاء تأهباً للزحف على الجليد ، ولقد استعمر تلك البلاد تراجان امبراطور الروم فى القرن الثانى الميلادى ، ولذلك لا يزال القوم يتكلمون لهجة رومانية رغم مضى سبعة عشر قرنا على انفصالها عن روما ، وقد غالبت جميع الغزوات الأخرى ، وحافظت على لغتها ، على أن الأتراك لم يخضعوا البلاد

تماماً ، بل أقاموا عليها ولاة من قبلهم كانوا ينتخبون من رعاياهم من الاغريق ، وهؤلاء وشيعتهم كان لهم النفوذ الأكبر ، حتى أنهم لا يزالون الملاك للمساحات الأرضية الكبيرة ، ويمثلون الطبقة الارستقراطية ، وهم يترفعون عن العامة ويتكلمون الفرنسية ، وتطبع جرائدهم وكتبهم ، وتمثل رواياتهم بالفرنسية ، والطلبة اليوم يحتجون بمرارة ، ويسمون ذلك بالهوس الفرنسي (Francomania) ، وقد كان هؤلاء القوم أشبه برؤساء الأقطاع إذ تملكوا غالب الأراضي ، على أن الفلاح بدأ يمتلك الأرض ، وبدأت فوارق الطبقات تخف عن ذى قبل ، ونسبة المزارعين ٨٠ ./. ورغم ذلك فان سكان المدن ينظرون إليهم نظرة احتقار ، وقانون البلاد مقتبس من القانون الفرنسي ، ومعظم الشئون المالية في يد طائفة من الإسرائيليين يبلغ عددهم (٤٤٠٠٠) والأجراء من المزارعين يمقتون الأغنياء ، لأنهم لا يمهرون إلا كراء زهيداً ، وهذا الحيف دعا الحكومة إلى تعديل نظام الملكية بعد الحرب ، فأخذت من الملكيات الكبيرة حتى التابعة للملك منها ووزعتها قطعاً على صغار الفلاحين بعد تعويض أصحابها ، وملابس القوم بسيطة في جمال وحسن ذوق ، يبدو في كثرة التطريز وزهاء الألوان ، وكل نسائهم مهرة في أشغال الابرة التي تعد أحسنها في الدنيا ، وفنهم خليط من البيزنطى والسلافى ، والغذاء القومى لديهم من الذرة ويسمى (مامالجا) وهو يحكى (العصيدة) عندنا ، وأحب الشراب الجعة التي تستعمل لدرجة الادمان .

وأعظم شوارع المدينة (كاليا فكتوريا) أو شارع النصر تذكاراً لانتصارهم على الأتراك في بلفنا سنة ١٨٧٧ وبه القصر الملكى المتواضع وبه عدة مبان فاخرة ، وكنائس المدينة عديدة تناهز المائتين غالبها على المذهب الاغريقي وهندستها قريبة للعربية ، واسم كارول شائع في كل المحال العامة خصوصا متنزه كارول وهو



(شكل ٤٠)
فلاحات روماميا يشتغلن فى الحقول حماة

فسيح بديع التنسيق ، به كثير من الربى ، وتتوسطه بحيرة شاسعة ، وفى نهايته يقوم متحف للأسلحة القديمة ، وبالمتنزه مسجد كان القوم يصلون به الجمعة عند زيارتنا ، وكان به نحو ثلاثين شخصاً يلبسون الطرابيش ، وقد خطب الخطيب وصلى بالعربية ، وعلمنا أن عدد المسلمين هناك ربع مليون ، وبالمدينة كثير من المتنزهات الأخرى ، بها المقاهى التى تسمع فيها الموسيقى الشجية التى تقرب أنغامها من الأنغام الشرقية ، والقسم الحديث من المدينة منسق الأبنية متسع الطرق كثير الثلات ، وأهله متأنقون ، يؤمون المقاهى بكثرة ، وقد زرت هناك متحفاً للفن الجميل ، به مجموعة للتصوير لابأس بها ، أما الأحياء القديمة ، فتعوزها النظافة ، ترصف طرقها بالحجر الأسود الصغير ، وصادف أن كان القوم يعقدون محفلاً شبيهاً (بالمولد) عندنا ، وكانت طبقة العامة تبدو هناك فى سذاجة وجهل وقذارة يبيعون (الشربات) فى أحواض زجاجية ، مكشوفة يعف عليها الذباب ، كذلك اللب ، والسودانى ، والفشار الذى كان أظهر ما يتسلى به الفقراء ؛ لخيل إلىّ أنى فى حىّ تحت الربع تماماً .

ويحيط بالمدينة سور من حصون أقيم سنة ١٨٨٥ وكلفهم أربعة ملايين من الجنيهات لكن لم يغن عنهم فى الحرب فتيلاً ، و يشق المدينة نهر (Dimbovitza) فرع الدانوب ماؤه قذر محمر ، تكسوه طبقة من الطحالب المنفرة ، وعنده حى قذر ترى البائسين يفترشون الأرض لمرض سلعهم ، كذلك ترى الخدم بمكانسهم فى انتظار من يستأجرهم ، هذا واللغة السائدة هناك الألمانية ، أما الانجليزية والفرنسية فقليلة ، ولقد كانت التجارة الألمانية رائجة فى رومانيا وما جاورها قبل الحرب وأخذت تعود لمجاريها الأولى .

هذا وقد لاقت رومانيا أحسن الجزاء فى الحرب الكبرى ، فأصبح سكانها سبعة عشر مليوناً بعد سبعة ، أما أهل بوخارست فنحو ٣٥٠ ألفاً .

غادرت المدينة قاصداً قرية جورجو فى جنوبها وتقع على الدانوب ، وهناك حلت الباخرة (أورانوس) من سفن الدانوب ، قاصداً القيام برحلة نهرية إلى بودابست ، وكان تيار النهر هادئاً ، وماؤه وطيئاً كدراً تشوبه حمرة ، وكنا نرى بلاد بلغاريا على الجانب الآخر ، وكانت السفن تقف بين آن وآخر على بلاد بلغاريا لنزول المسافرين ، وكانت المناظر الطبيعية غنية جداً بأشجارها الكثيرة ، وأرضها المدرجة فى تقسيمات زراعية منسقة تدل على مهارتهم الفائقة فى زراعة المنحدرات التى قد تميل جوانبها ٤٥° ، وكانت تبدو القرى مقامة على جانب النهر بأكواخها الصغيرة ، وكان الشاطىء البلغارى أكثر تموجاً وجمالاً مما يشعر بأن النهر سلك السفح الشمالى لجبال البلقان ، فكانت المرتفعات تحف بالنهر من هذا الجانب ، وكنا بين حين وآخر نلاق البواخر تمخر عباب الماء فى كثرة عجيبة ، وترسو فى محاط أعدت لذلك ، وتصل إليها من البر الطرق الحديدية مما يثبت مبلغ استفادة القوم من الدانوب فى النقل ، وكم كان أسفى شديداً عند ما ذكرت النيل



(شكل ٤١)
كاليا فكتوريا أكبر شوارع بوخارست وهو دون شارع فؤاد الأول عدنا

المبارك الذى يفوق الدانوب طولاً وعرضاً لكن وسائل النقل فيه لا تمشى مع نهضتنا الاقتصادية .

ومن غريب ما يكون أن العلاقة بين شعوب رومانيا وبلغاريا المتجاورة متوترة ، فقد كنت أعتقد أن الانتقال من شاطئ إلى آخر سهل ممكن ، لكنى علمت أن القوم يمنعون ذلك ويفرضون ضرائب فادحة لمعاكسة ذلك ، رغم اشتراك مصالحهما فى النهر ، ومن مدن بلغاريا التى زرتها مدينة :

لوم : وهى أشبه بمركز صغير من مصر ، طرقها قذرة متربة وأهلها تبدو عليهم سيماء الفاقة والتشرد وبيوتها متناثرة بين الربى والوهاد ، بها بعض المساجد المهملة ، وقد قيل لنا إن المسلمين هناك يرتدون بسهولة ، وأمم البلغار شعب من التتار حلوا هذه البلاد أوائل العصر الميلادى ، ثم أخضعهم الترك لحكمهم إلى سنة ١٨٧٨ حين انفصلوا و بقى للترك الاشراف الأسمى ، ثم استقلوا وطردوا

الأتراك وضموا الروملي الشرقي ، وقد مثلوا بالباشا التركي أشنع تمثيل إذ أركبوه حصاناً وأداروا وجهه إلى مؤخر الحصان وطافوا به المدينة مهللين محقرين ، وقد دخلوا ضد الحلفاء في الحرب الكبرى طمعاً في الغنائم من رومانيا لكن خاب فألهم وفقدوا جنوب دبروجه التي ضمت لرومانيا ، وتراقيا الغربية وأخذها الاغريق ونزل سكانهم من ٧½ مليوناً إلى خمسة ، والقوم متأخرون جداً أكبر مواردهم الورد ذو الروائح التي يشتمها المرء على بعد أميال ، ومنه يستخرجون زيت الورد الذي أصبح العنصر الرئيسي لغالب الأعطار العالمية وهو يساوي وزنه ذهباً ويقطفه الفتيات من أغنى جهاته وهي حدائق كازانلك بالروملي الشرقي ومرشبكا على سفوح جبال البلقان بفضل التربة الرملية والجو والشمس ولابد من تقطيره يوم قطافه ، وقد قدر للأوقية الواحدة من العطر ستون ألف زهرة .

الباب الحديدي : بعد أن بدت سواحل يوجوسلافيا بقليل دخل النهر في عقدة من الجبال الغنية بنبتها وشجرها ، وأخذ النهر يلتوي ويختنق وتياره يشتد ، وقد أقام القوم جسراً من حجر أصم وسط منعطف النهر وحطموا جزءه الواقع بين الجسر وساحل يوجوسلافيا وأخلوه من جنادله فأضحى صالحاً للملاحة ، وفي اتساع قناة السويس تقريباً ، أما الجانب الآخر فظل بجنادله ودواماته ومنحدراته وبعد نهاية الجسر بقليل ظهرت جزيرة مستطيلة وسط المجرى تكسوها الغابات وتقام فيها البيوت الصغيرة واسمها (جزيرة أكادالي) وبها مسجد بمئذنة دقيقة وتلك كانت في قبضة الأتراك ، واليوم تحت لواء رومانيا ولا يزال أهلها مسلمين ، وبعدها بقليل رست الباخرة على أرشوفا آخر مدن رومانيا على النهر ، وكانت قبل الحرب تحت حكم النمسا ، ولا شك أن هذا المكان ساحر في جماله وتنوع مناظره وتعقيد جباله وامائه ومناعة موقعه . مكان أثار في النفس شجوناً كثيرة



(شكل ٤٢)   هؤلاء الفلاحين والرعاة فى مساكنهم الريفية برومانيا

وذكريات خالدة ، بدأ النهر يدخل فى ثنيات بين الربى الشاهقة سريعة الانحدار يكسوه النبت المنزرع إذا سهل للمنحدر عانو والبرى فوق المزالق السريعة وبين آونة وأخرى كانت تبدو فى النهر مجاميع الجنادل فى جهات تجتنبها السفن بعلامات أقيمت لها وسط الماء ، وفى بعضها كانت دوامات النهر قاسية عاتية ، وصخور الجوانب تسير فى طبقات ملتوية التواء شديداً تهوى تحت اليم ، ثم تبدو ثانية على الجانب الآخر مما يشعر بأن هبوطاً عظيماً حدث فى سلسلة جبال ترنسلفانيا هنا فسلك النهر طريقه وسطها ولا يزال يدأب على الجرف من جوانبه بنشاط غريب يدل على ذلك أثر طريق قديم عبده (تراجان) الرومانى على حافة الماء ، ولم يبق منه اليوم إلا جدار نقش عليه اسم ذاك العاهل ، وقيل إن الدانوب كان يصب فى بحيرة أو بحر داخلى حوضه اليوم سهل المجر ، وذلك قبل أن يهوى جانب الكربات ويمكنه من السير إلى البحر الأسود .

أما مناظر ذاك الخانق فساحرة تأخذ بالألباب ، فهى تمت إلى مناظرسويسرا

بشبه قريب إن لم تفقها ، ولا يعدلها جمالاً غير منظر البسفور وما يحوطه من جلال ، وقد لبثت السفينة تسير فى ثنياته ثمانى ساعات و بعدها انفرج النهر وتباعدت الجبال سراعاً ، وهنا أخرنا ساعاتنا ساعة كاملة لنسير مع زمن أوروبا المتوسط الذى يتأخر عن ساعة مصر لأنه يقع غربها بنحو ١٥° درجة طولية ، هذا عند نهاية حدود بلغاريا ، على أن الجانب الآخر من النهر وهو رومانى ظل على زمنه الشرقى حتى اجتزنا حدود رومانيا ، ذلك لأن رومانيا تمتد على طول النهر أكثر من امتداد بلغاريا ، هذا ومواسم الزراعة فى تلك البلاد جميعها الربيع حين ينزل أكثر المطر ، وتزرع الغلات خصوصاً القمح والذرة ، و بعد الحصاد تترك الأرض للسنة القابلة ، ثم يعيدون زراعة غلة أخرى ، وهناك نوع من القمح يزرع فى الخريف ، فإذا ما حل الشتاء نزل الثلج وكسا الأرض إلى علو قد يبلغ المتر فيحمى النبات من البرد القارس الذى ينزل بالحرارة عشرات تحت الصفر ، و إذا كان الربيع ذابت الثلوج فارتوى النبات ونما عاجلاً ، وكنا نرى بواخر عديدة ليوجوسلافيا ، وتلك البلاد على نفور وعداء مع جارتها بلغاريا أيضاً ، وهى تحرم على أبنائها السفر فى غير بواخرها لتساعد شركاتها الملاحية .

يوجوسلافيا : أقبلنا على بلغراد عاصمة يوجوسلافيا التى تمتد طويلاً على النهر ، وعندها يصل نهر الساف أباه الطونه ، والمدينة يعوزها الشىء الكثير من النظافة والتنسيق ، فغالب ميادينها قذر مترب ، وأهلها كذلك قذرون فقراء ، وأجمل جهاتها الجزء المقام على النهر ، واسم المدينة أجمل منها ، إذ يسميها القوم : بيوجراد ، ومعناها القلعة البيضاء ، ولقد تخلفت فيها عند عودتى فلم يرقنى بها شىء ، وأخذت القطار إلى نيش التى وصلتها فى ست سلعات فبدت حقيرة منفرة فى كل شىء .



(شكل ٤٣) طريقتهم الساذجة فى استخراج عطر الورد

هذا و بلاد يوجوسلافيا تضخمت بعد الحرب جداً وناهز سكانها اثنى عشر مليوناً بعد أن كانت قاصرة على حدود الصرب التى لا يزيد أهلها على خمسة ملايين ، والصرب تعرف (بجنة الفقير) ، لأنه يمون فيها نفســه بكل لوازمه بغير حاجة إلى النقود إلا بقدر ما يدفع الضرائب ، والقوم يعيشون جماعات قد تبلغ الواحدة المائة عداً ، يخضعون لزعيم واحد يضع لهم نظام المعيشة ويتدخل فى كل تفاصـيلها ، وقد يمتد البيت فيشغل حياً بأكمله ، و يتعاون الفلاحون بوساطة لجنة اسمها (Moba) تؤلف من الجيران الذين يخدمون بدون أجر ، ومن عاداتهم الغريبــة أن يعلقوا دمية على النافذة من الداخل ليراها المـارة فتدلهم على وجود آنسة ترغب فى الزواج ، كذلك يعلق الجميع ســنابل القمح على المنازل ، فإن سرقت عد ذلك فألاً بقرب زواجها ، وعندهم من أمثال تلك الخرافات كثير : كأن تشوى الضفادع والجعلان فيأكلها الطفل المريض ليبرأ من علته ، وكلهم يعتقدون أن الأطفال يطيرون ليلاً لامتصـاص الدماء من غيرهم وما إلى ذلك .

وقد ضم لأملاكهم (الجبل الأسود) الذى كان مستقلاً من قبل ، ويعرف أهله بالقوام الشامخ والسحن التى تشبه قدماء الرومان تماماً ، وتكاد تقتصر صادرات البلاد جيمها على الفاكهة بأنواعها والأخشاب .

غادرنا بيوجراد وكانت سهول المجر تبدو إلى يميننا فى انبساط إلى الأفق ، لذلك أصبح للنظر موحداً مملاً ، وأخيراً تعددت الجزائر والغدران ، وبدت الأشجار ومقاطع الخشب ، وكانت ترص على الضفاف هدارات مائية تحكى (العوامات) ، تتوسطها عجلة ذات أجنحة يديرها التيار فتطحن الغلال ، وفى الساعة الثانية مساء استهلت بودابست عاصمة بلاد المجر بمداخنها العديدة وقصورها الشامخة وامتدادها العظيم على جانبى النهر ، إلى اليمين (بست) المدينة الجديدة المنبسطة ، وإلى اليسار (بودا) القديمة ذات التلال العديدة ، ويخترق النهر هنا نحو سبع من القناطر الجذابة .

المجر : بلاد تشبه فى نظامها الاجتماعى بلاد القرون الوسطى فقد كانت إلى سنة ١٨٤٨ تحت حكم الأشراف أصحاب الأرض الذين يسخرون العامة فى فلحها وفى خدمتهم نظير إعفائهم من الضرائب ، ونحو أربعة أخماسهم يعملون فى الحقول وهم فى الصناعة أقل نشاطاً واستعداداً من جيرانهم النمساويين ، وغالب تجارتهم وأموالهم فى أيدى طائفة من الاسرائيليين يناهزون الخمسة فى المائة من المجموع وهم مبغضون من طبقة الشعب لكنهم أكثر الطبقات علماً ، فغالب الأطباء والمحامين والمهندسين من بينهم ، وفى بودابست عدد عظيم من اليهود ولذلك يلقبها بعضهم Judapest لذلك ليس بعجيب أن تباح المقامرة وتصبح مورداً هاماً حتى فى الاكتتابات للمنشآت الخيرية والدينية ، والمجرى مرح خفيف الروح رقيق العواطف ، ومن ثم كانت شهرته فى الموسيقى ، وهو ساذج الطبع كريم نظيف



(شكل ٤٤)   الباب الحديدى وجباله العاتية

حتى أنه يعد فرضاً مقدساً عليه أن يغسل فمه بالسواك مرتين فى اليوم ويعنى بتطبيق ملابسه بنفسه قبل النوم ، فهو فى ذلك شبيه بالفنلندى الذى يمت إليه بصلة القرابة إذ أن المجرى أسيوى الأصل وفد إلى تلك البقعة سنة ٨٩٥ ، ويؤيد صلته بالمغول انحراف عيونه وبروز خديه ولغته المغولية ، ولذلك كانت المجر أشبه بواحة أسيوية وسط أوروبا ، ولا يزال بينهم كثير من الرعاة المعروفين بالمهارة فى ركوب الخيل التى جلبوها معهم من آسيا ، والتى أكسبتهم من الفروسية ما فاقوا بها (كاوبويز أمريكا) ، ويسمى فرسانهم : شيكوز (Chikos) ، وتسترعى النظر كثرة الخيول فى البرارى الجافة عندهم ، فقد يبلغ القطيع الواحد سبعمائة ، ونساؤهم ذوو سحن جميلة للغاية ، وهن مهرة فى التطريز ، وعادة تقبيل أيدى النساء شائعة بينهم جميعاً ، فالرجل ينحنى على يد السيدة يقبلها إذا بدأها السلام .

بودابست : ما شعرت بالاستمتاع الكامل لما كنت أرى من تنسيق

وخفة روح وحسن ذوق ولين معاملة قدر ما أحسسته هنا ، فهى بحق تسمى (ملكة الدانوب) ، ويسترعى النظر فيها بوجه خاص كثرة ميادينها ذات المتنزهات والتماثيل ، وكذلك تمدد قناطرها ذات المنظر الجذاب فوق الدانوب ، وبخاصة قنطرة إليصابات ، قلبها النابض شارع أندرسى أوت ، وفيه تبلغ حركة المرور حداً مخيفاً ، ونظام البوليس على رءوس شوارعها العامة دقيق للغاية ، فهو لا يسمح لأحد أن يسير أسفل إطار الطريق ، ولا يعبر الشارع إلا فى مكان معين ، وعلى رءوس الطرق يحاط الإطار بسياج من سلاسل محكمة القفل ، وسير العربات إلى اليسار والمارة إلى اليمين ، وفى قبالة قنطرة إليصابات ربوة بودا الشاهقة ، صعدناها بطريق متلوية بين الشجر والنبت ، ويقوم فى أعلاها تمثال سان جيرار ، وقلعة كبيرة هى أقدم بناء فى المدينة ، وإلى جوارها كنيسة التتويج التى توج فيها فرنسوا جوزيف ، فى هندسة قوطية ، مظلمة الداخل إلا يتخللها قبس ضئيل من النور ينفذ من زجاج نوافذها النحيلة بألوانه المتعددة ، وأمامها ردهة يقوم فيها بعض تماثيل القديسين ، ويحف بها سور تقوم أركانه فى شكل الطوابى ، وتنزل منها الدرجات إلى متنزه جميل يقوم به تمثال لهنياد المجرى الذى طرد الأتراك ، وهو يرتدى لباس الفروسية بدروعه ، ويقف وبيده حسامه وقد وطىء بقدميه علمين للأتراك ، وكان الأتراك عند فتحهم المدينة قد حولوها إلى مسجد .

ومن أبنية بودا الجديرة بالزيارة : القصر الملكى الكبير الذى يشرف على النهر ، دخلته فتجلت فيه عظمة الملك حقاً فى امتداد أبهائه ، والإسراف فى زخرفه . حجراته ٨٦٠ ، وقد بدأ المجر تشييده يوم أن حلوا تلك البلاد من آسيا لكن الأتراك دمروه تماماً ، ومكثوا يحكمون البلاد ١٤٥ سنة ثم طردوا ، ومن



(شكل ٤٥) وسط الباب الحديدى بالدانوب

العجب أنهم لم يتركوا بالبلاد أثراً لا فى البناء ولا فى الدين مما يدل على سوء إدارتهم ، خصوصاً وأن القوم كانوا وثنيين ولم يعتنقوا المسيحية إلا قريباً ، وقد جدد القصر بشكله الحالى فى عهد مريا تريزا ، ومن الصور الزيتية الكبيرة التى تزين بعض الجدران ، صورة ليوجين ساڤوى ، وقد هزم الأتراك وكبلهم ، وأخرى لفرنسوا جوزيف امبراطور النمسا وهو يتوج ملكاً على المجر ، وهذا تذكار لبدء العهد البرلمانى ، ثم صورة أخرى لفرنسوا فى رداء (الهوسار) ، والكلمة مجرية معناها (العشرون) ، أخذت من أن الجندى الذى يقع ترتيبه فى صف المجاهدين العشرين كان يعفى من القتال ليؤلف فرقة الحرس الملكى ، ومن آيات فن التصوير لوحة بها منظر طبيعى لطريق يقف وسطه فارس يمتطى جواداً ، فإذا نظرت إلى الصورة من اليمين امتد الطريق إلى اليسار وكان الفارس متجهاً كذلك ، والعكس إذا نظرته من اليسار ، ويواجه القصر من الجانب الآخر للنهر : البرلمان ، ولعله أفخم مبانى المدينة ، من الخارج يشرف بأبراجه وأسنانه الباسقة المتعددة وقبابه الخضراء الجذابة ، ومن الداخل يبدو بنقوشه وزخرفه الفائق ، فهو فى مجموعه أبدع

إتقاناً من برلمان لندن ، ولا يزيد عدد أعضاء المجلس الأدنى عن أعضاء المجلس الأعلى كثيراً مما يشعر أن للأشراف أثراً كبيراً فى البلاد ، ويمثل به رجال الدين من الكاثوليك والبرستانت واليهود ، وللميادين حوله منسقة تنسيقاً عظيماً فسيحة الرحاب جداً ، وهناك أقيم نصب تذكارى احتجاجاً على معاهدة الصلح ، وبه أشخاص يمثلون هيآت المجروهم غضاب نافرون فى مظهر مخيف احتجاجاً على حرمانهم من كثير من أرضهم ، وكذلك احتجاجاً على نفى مليكهم شارل الرابع وعائلته إلى جزائر مديرا ، وكان قد فر بعد دخول البلشفيك ثم حاول العودة مرتين ، لكنه أرغم على الانسحاب بتهديد من يوجوسلافيا وشكوسلفاكيا ، وقد مات شارل ولا يزال ابنه (اتو) منفياً فى الجزيرة ويطالب الشعب بعودته ملكاً ، وقد رفضوا الجمهورية ، وعينوا نائباً عن الملك إلى أن يتمكنوا من فك عقال هذا ، وقد لبثت البلاد تحت حكم البلشفيك ١٢٤ يوماً بزعامة إسرائيلى اسمه كوهين ، على أن مجلس الأمة اجتمع فى هيأة واحدة ورفض الاعتراف بالبلشفية وأباح الاشتراكية فحسب .

ومن المتنزهات الرائعة جزيرة مرجريت إلى شمال المدينة وهى مجموعة حدائق منسقة تقام بها الانزال الفاخرة ، والحمامات البديعة ، والبرك المعدة للرياضة ، يؤمها القوم عند الأصيل طلباً للراحة والهواء البليل ، وتصلها ببودابست قنطرة بثلاث شعاب ، ومن متاحفها القيمة المتحف الفنى وتعرض به آيات التصوير القديم والحديث التى تثبت أن المجر ليست أقل عناية بالفن من كبريات دول أوروبا ، أما المتحف الزراعى فحدث عن عظمته ، فهو حقاً معدوم النظير فى العالم كله ، معروضاته غنية وقيمة للغاية ، ترى به خرائط زراعية لمناطق الزراعة والغلات تقسيما مفصلة ، كذلك أنواع الأسمدة المختلفة والعناصر المعدنية التى تتألف منها



(شكل ٤٦) بلغراد وهى عتد على الدانوب

تربة بلادهم ، وأهم الأقسام قسم الغلات نفسها تعرض فى نماذج وافية فى سنابلها وكيزانها وأغصانها ، وتبدو الجذور نامية فى سوائل داخل اسطوانات غليظة من زجاج ، ومدهش أن ترى طول جذور بعضها فوق المتر وسمك مجموع الجذيرات قدم وبخاصة القمح والأرز وجذور الكروم تمتد نحو أربعة أمتار ، كذلك ترى نماذج لطرق الحرث والرى وللآلات نفسها ووسائل تبخير الشجر ، ثم ترى بعض الغلات معروضة فى أحجام تسترعى النظر فقرن القول طوله شبر ونصف والقرع (العسلى) قطره ذراع والكمثرى فى حجم الشمام والتفاح فى حجم البطيخ والجوز فى حجم كرة التنس ، كذلك ترى آفات جميع النباتات فى مختلف أطوارها ونماذج كاملة للقرى والزرائب والمزارع والمعامل ، وبعضها يشغل بهواً بأكمله ، وفى الطابق الأعلى تعرض كافة حيوانات البلاد محنطة وأظهرها الخيول التى خصص لها بهو كامل ، ثم البقر والخراف والدجاج التى تبلغ الواحدة حجم (الديك

الرومى) والأوز والحمام والدجاج الرومى والأرانب ، ثم دود القز وتربيته وجمع الحرير واعداده .

وقد علمت أن جلالة الملك قد زار هذا المتحف وسر به كثيراً ويعتزم إقامة مثله فى مصر ، وقد عرضت حكومتنا أن ينتدب مديره لإدارة متحفنا عند إكماله مقابل مرتب قدره ١٥٠٠ جنيه فى العام وهو الآن نزيل مصر ، والحق أنه أجدر بنا أن نقيم متحفاً كهذا يخدم الزراعـة ولا تزال أكبر مواردنا ، ويطبع القوم مجلدات زراعية قيمة بمختلف اللغات ويوزع غالبها مجاناً ، وقد قابلت وكيل المتحف وحدثته بشأن مصر وشؤونها الزراعية طويلاً ، وقدم إلىّ مجلداً بالإنجليزية لمختلف غلات الدنيا ، وقد لاحظت أنهـم يكثرون من طبع الخرائط لبلادهم بحدودها الطبيعية الكاملة ويعرضونها فى كل مكان ، مظهرين للعالم مقدار الحيف الذى حل بهم فى معاهدة الصلح ، ويزعمون أن شعوبهم تشـمل ٢١ مليوناً من الأنفس ولم يعط لهم فى المعاهدة إلا ثمـانية ، وتلك الأجزاء ضمت لرومانيـا وشيكوسلفاكيا والنمسـا وإيطاليا ويوجوسلافيا ، وهم ينشرون الدعاية ضد هـذا التقسيم تحت عنوان : مأساة هنجاريا .

النمسا : البلاد الجديرة بالعطف : غادرت بودابست منتصف التاسعة صباحا قاصداً فينا حاضرة النمسا ، تلك البلاد التى تتمثل فى أهلها الجاذبية ورقة الحاشية إلى كفاية فى الأعمال ، فهم دائماً باشون رغم جهدهم اليوم فى الحصول على الرزق ، عكس ما تراه فى الألمـانى الذى يبدو لأول وهلة مقطب الوجه ، فالنمساوى قلمـا يغضب لشىء ، وهو مثقف إذ كان التعليم يقصر عليـه دون زملائه من الجنس السلافى ، ذلك لأن النمسا كانت تحتقر أتباعها من غير الجنس الجرمانى ، وهـذا سبب تمرد تلك الأجناس عليها وانسـلاخهم منها بعد الحرب الـكبرى . وصلت



(شكل ٤٧) (الشيكو) رعاه المجر يروضون الخيل الجامحة

ڤينا منتصف الساعة الثانية مساء ، فبدت من المدائن الفاخرة بمبانيها الضخمة ، وطرقها الفسيحة ، ومتنزهاتها الجذابة ، وبخاصة على طريق (الرنج) الذى يطوقها ويحصر داخله ڤينا القديمة ، وهو أفسح طرق الدنيا ، تحفه أشجار وارفة مزدوجة ومن أفخر مبانيه :

البرلمان : ومدخله ذو شعبتين تؤديان إلى البهو الأوسط ، وعلى جانبيه سلمان يؤديان إلى الطابق الأول ، وفيه ردهة فخمة على النمط الاغريقى ، أعدت لفسحة الأعضاء ، ثم دار المجلس الأدنى ، وبه ٥١٢ مقعداً لأعضاء الولايات التى كانت خاضعة للنمسا قبل الحرب ، وقد نزل العدد اليوم إلى ١٦٥ ؛ لذلك أصبحت هذه الغرفة لا تتناسب مع عددهم القليل ، فأعدوا لهم غرفة أصغر منها ، وتركت هذه بأثاثها القديم ، وفى الجانب الآخر المجلس الأعلى ، وقد نزل عدد أعضائه من ٢٤٢ إلى ٥٠ ، وهناك صالة للجنة المالية تزين جدرانها صور زيتية لفرنسوا جوزيف ووزرائه ؛ ثم جميع أعضاء البرلمان ، والبناء فخم يكسى داخله

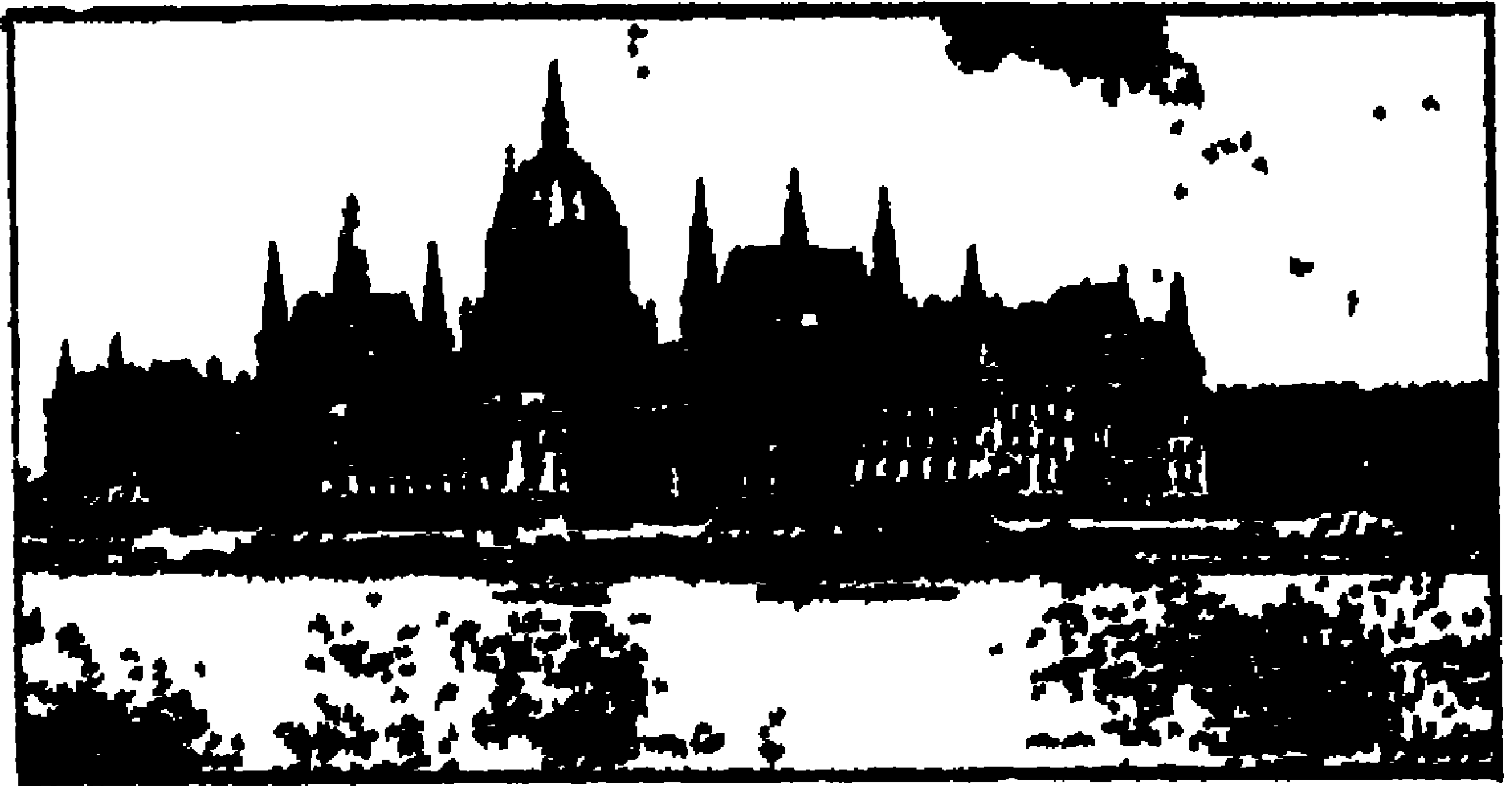


(شكل ٤٨) عند قنطرة (اليصابات) بين بودا القديمه إلى اليسار ، وبست الحديثه إلى اليمين

بالرخام الذى جئ به من غاليسـيا ، وتزينه النقوش الفاخرة .

زرنا بعـد ذلك متحف الآثار والفنون ، ومن آثاره القيمة : القسم المصرى والإغريقى والرومانى ؛ وحجرات كل قسم تقوم فى هندسة البـلاد نفسهـا ، وفى الدور الأعلى معرض التصوير ، ومررت على دار الاستشارة بأبراجه الباسقة ، وبجانبه الجامعة التى دخلتها وطفت بأرجائها ، وكانت حركة الطلبة من الجنسين ناشطة ، وبخاصة فى المكتبة الفسيحة التى كانت تغص بالطلاب وهم منكبون على درسهم ، ومنظرها الخارجى يمثل عظمة العلم وخلوده .

ثم قصدت متحف التاريخ الطبيعى ، وبه مجموعة غنية جداً ، ففى قسم الجيولوجيا قطع لا حصر لها من بلورات يزيد طول الواحدة على المتر (وبخاصة الكوارتز والجبس) ، وكتل من ذهب خالص فى طول ذراع غالبها من أستراليا ، وآرال ، وأخرى من معادن غفل ، والداليات ، والصاعدات (ستلكتيت وستلجميت) ، وكتل من ملح ، يزن بعضها ٢٢٤٠ كيلو جرام ، والبعض ١٦٨٠ فى مكعبات ، أو مسلات ، وحصى غليظ شق وسـطه فبدا منقوشاً فى تجزيع طبيعى مدهش ، وأنواع الرخام : الغفل ، والمصقول من مناجم غاليسيا بألوانه العجيبة ، وخشب متحجر ؛ قد تبلغ طول الشجرة ثلاثة أمتار ، وحفريات لأوراق الشجر ؛ مطبوع



(شكل ٤٩) بودابست : دار البرلمان الفاخرة على الدانوب

على الصخر أو على الفحم بأشكال عدة ، وقطع من ورق الشجر المتحجر ينفذ منها الضوء فتظهر تفاصيلها جلية ، ويرى الذباب وهو مطبوع عليها .

وبه قسم للحيوانات البائدة التى قد يشغل الواحد منها الفناء بأكمله ، ثم آلات العصر الحجرى والحديدى ، وهياكل الإنسان فى مختلف العصور ، وجماجمه من مختلف القارات والأزمان ، وبناء المتحف فخم للغاية ، ويعلق بندول فوكولت فى قبة البناء لإثبات دورة الأرض حول محورها أمام الزائرين .

ومن المتنزهات القيمة فى المدينة (Prater) يشبه الغابة بكثرة أشجاره ، وبه مجموعة من الطرق المعبدة ، والمقاهى ، والمراقص ، ودور الموسيقى ؛ فهو مكان تسلية عام ، وفى جانب كبير منه دور للألعاب على اختلاف أنواعها من أراجيح وماطرات ، ودور للملاهى لا حصر لها .

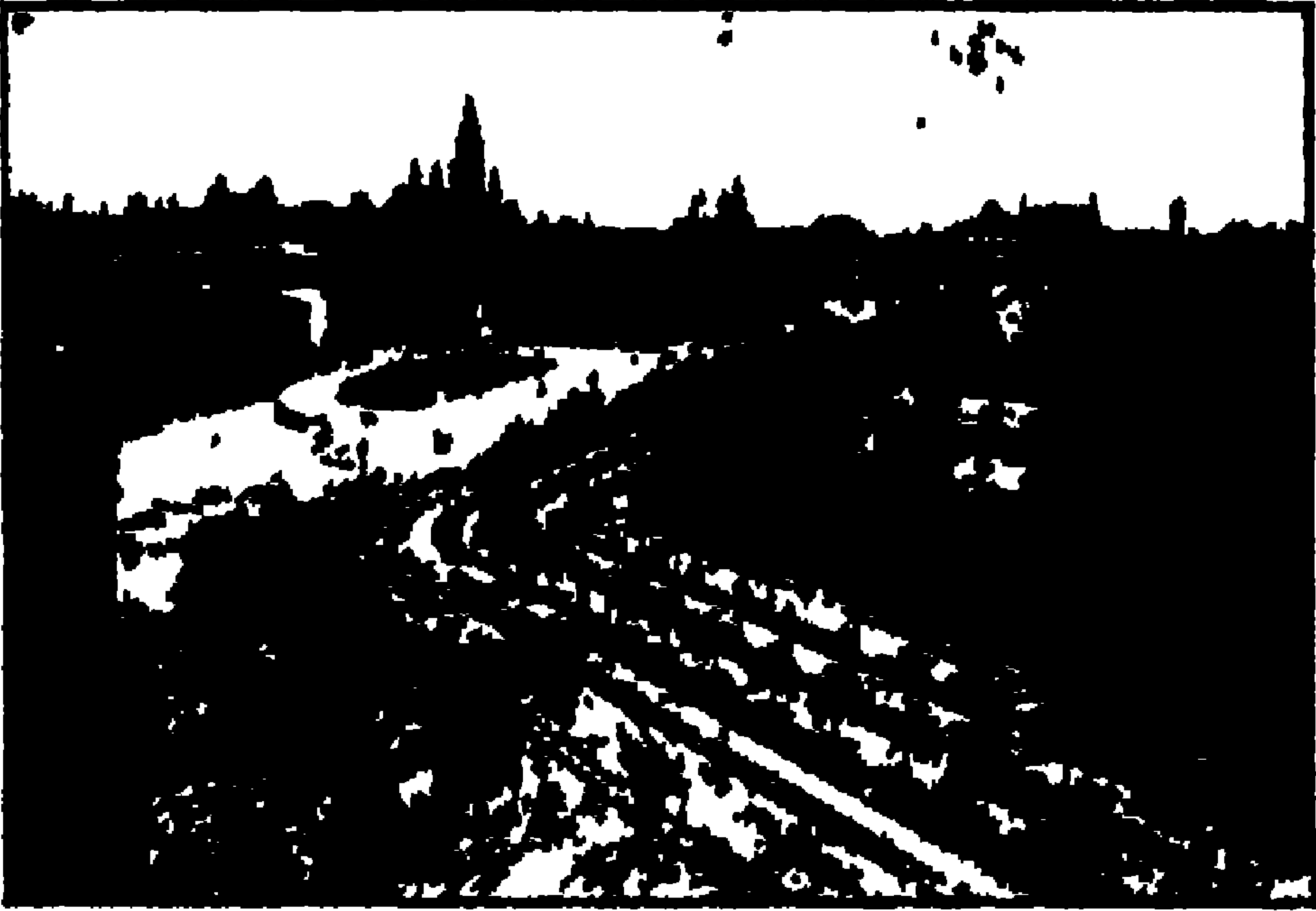
وهذا المكان يظهر مبلغ ميل الشعب النمساوى للهو والمرح رغم ما حل به من نكبات الحرب ومعقباتها القاسية .

قصر شوينبرن : مسكن مريا تريزا الأنيق تمتد من حوله المتنزهات ،

وقد شذب شجرها فى شكل بوابات وأقواس ، وفى الأرض بدائع الزهور ولفائف الطرق تمتـد فى كل جانب من القصر إلى قصارى مسارح النظر ، والنافورات والبحيرات تترامى أمام القصر . دخلناه فبدا فاخراً ، به مجموعـة من مخطوطات مريا تريزا بتوقيعها ، وكرسى العرش ، وحجرة الطعـام ، وقد مد السماط بكامل أدواته ، وتزين جوانب الحجرات الصور الزيتية التى تمثل الحروب والحفلات ، كذلك تعرض به مجموعة من جواهرها وأسلحتها ونياشينها ، و بعض الأعلام التى كسبتها فى الحروب ، أما الأثاث ففخم للغاية وعلى أشكال منوعة ؛ أجلها حجرة النوم ، وسماط للشاى بأوانيه من الذهب الخالص ، كذلك بيانها ذو الطبقتين ، و بجانبـه مجموعة من النوتات الموسيقية لموزار وغيره ، أما الحجرات نفسها فيأخذ نقشها بالأبصار ؛ فمن خشب مطعم بالذهب الخالص فى إسراف شـديد ، وقماش يغطى الجدران ، وقد وشى بالألوان الخلابة ، فهو حقاً قصر لائق بعظمة الملوك الخالدين ، رغم أن الملك شارل آخر ملوك النمسـا ؛ قد وقع صك اعتزاله للملك فى إحدى تلك الحجرات الفاخرة التى بلغت نفقاتها أر بعين ألف جنيه .

وفى المساء دخلت الأبرا وكانت تمثل رواية (Boheme) الغجرية ، فبدت الدار فى جلال واتساع يضم ٢٢٦٠ نفساً ، ألواجها أر بع طبقات فوقها مدرج فاخر (لأعلى التياترو) ، ومشاهد التمثيل كانت رائعة أعجبنى منها منظران ، منظر حانة للرقص غصت بالغجر ، ومنظر للساكن وسط الليـل ، وقد هطل الثلج عليها فى رهبة موحشة ، كذلك لا أنسى فرقة الموسيقى التى كانت تفوق المائة عدا

يعجب المرء إذ يرى كل تلك العظمة ، فى بلد يضم أكثر من ثلث سكان مملـكة كان ملكها يمتد إلى الآفاق ، فـكيف يمكن لماليتهم الصغيرة الآن أن تسد تلك النفقات ، وتقيم تلك المظاهر . حقاً أن موقف النمسا ليبعث الشجون و يثير



(شكل ٥٠) (الرنج) : أفسح طرق الدنيا تعرف عليه دار البرلمان فى ڤينا

العطف على ذلك الشعب الرقيق الذى أضحى مثقلاً بالديون الأهلية والأجنبية ، حتى أن الحكومة تلجأ إلى فرض الضرائب الباهظة على الدخل ، تلك التى قد تبلغ خمسين فى المائة و بخاصة على الأغنياء أمثال رتشلد خصوصاً بعد أن انحط إنتاجها الصناعى الكبير ، واندفع المتعلمون إلى طلب الوظائف الحكومية التى أخذت تضج من كثرتهم (تشبه مصر فى ذلك) ، والمدينة آخذة فى الاحتضار ، إلا إذا قام ائتلاف بين صغار الدول من حولها واعتبروها مركزاً لهم ، و إلا أضحت أثراً بعد عين ، وحل بها ما حل بطيبة ونينوى و بابل ، ولذلك ليس بعجيب أن يؤيد فكرة انضمامهم لألمانيا عدد كبير منهم .

و يحيط بالمدينة مجموعة من الضواحى التى يستهوى جمالها الزائرين من بينها :

كو بنزل (Cobenzl) التى تعلو ڤينا بنحو ١٢٠٠ قدم ، وتقع جنوبها والطريق إليها كثير الربى تكسوها الكروم التى زادت شهرة الأقليم فى النبيذ . ولياته من الأعاجيب ، وكنا كلما علونا كشفنا مناظر ڤينا ومن حولنا الربى

تكسوها الغابات ، وفى نهاية الطريق نزل فاخر أعد للمقام الهانىء والمتاع الكامل .

سمرنج : ولعله أجمل ضواحيها الجديرة بالزيارة ، ظل القطار يسير بنا ثلاث ساعات ونصف . وهو يجوز مناظر ريفية هادئة التغضن ، ومررنا فى الطريق على بادن وعلى راكس ، حيث بدأت الجبال ، ودخل القطار فى أنفاق لا عد لها وهى فى مجموعها تكون نفق سمرنج الذى يصل النمسا بإيطاليا عن طريق فيرونا وكانت ترى القرى فى بطون الأودية من دوننا وتنتثر بيوتها الصغيرة على جوانب المنحدرات ، وأخيراً وصلنا مدينة سمرنج ، وهى مصطاف جميـل لا يسأم المرء المقام فيه قط ، تكثر من حولها الطرق الجبلية المتلوية ذات المقاعد المنثورة وهى على ارتفاع ألف متر ، وبعد أن أمضيت فيها زمناً رجعت إلى ثلث الطريق حيث أخذت تراماً إلى (راكس) وهى للمدينة التى تحيط بها مجموعة ذرى تكون جبال (Rax Alpes) وهى تماثل سمرنج وفى نهاية الترام أقام القوم تراماً آخر هوائياً ، يصعد على أسلاك معلقة إلى قمة مشرفة تكشف منظر القمم الأخرى جميعها فى مشهد يأخذ بالألباب ، ركبنا تلك العربة المعلقة ، وقد وسعت عشرين نفساً ، وأخذت تصعد بنا وكانت تنضمر للمدينة من تحتنا تدريجاً وتكشف مدن الأودية الأخرى حتى وصلنا القمة بعد نصف ساعة وكأننا طائرون فى الهواء ، ولا أستطيع أن أصف مشاهد الطبيعة التى تجلت أمامنا من تلك القمم ، فالغـابات إلى مد البصر ، والصخر لا يخلو فى مكان من النبت وغدران المياه تنزل إلى بطون الأودية فى خرير جذاب ، والسحب تبدو وتجلو ، وخلالها تستبين الشمس تارة فى قوة وأخرى فى فتور ، وقد طال تجوالى فى تلك الربى ولولا ضيق الوقت لرغبت عن النزول .

بادن : ومن ضواحى فينا التى لا يصح إغفالها : بادن التى وصلناها بترام كهربائى وعربة أمنيبوس ، فألفيناها جنـة تزينها حماماتها العديدة ، وهى تغص



(شكل ٥١) شوينبرن — قصر ماريا تريزا فى ڤينا

بحدائقها ومقاهيها وأنزالها ، ومن حولها التلال العالية يكسوها الشجر وعلى جوانبها شقت الطرق المختنقة تصف بها المقاعد والمناضد يجلس عليها من أراد ، وهى شبيهة (باكس لبان) تلائم الحياة الهادئة التى لا تقبل إنتقالاً إلا بين ثنيات التلال بجوارها ، وعلى مقربة منها زرنا « لكسمبرج » وهى متنزه كأنه الغابة كثيرة القنوات والبحيرات ، وبها قصر على نظام قلاع القرون الوسطى ، أقيم وسط جزيرة ، وقد دخلته وهو يحوى جانباً من الآثار القديمة والصور الزيتية ، وبه بعض الأبهاء والحجرات فاخرة النقش .

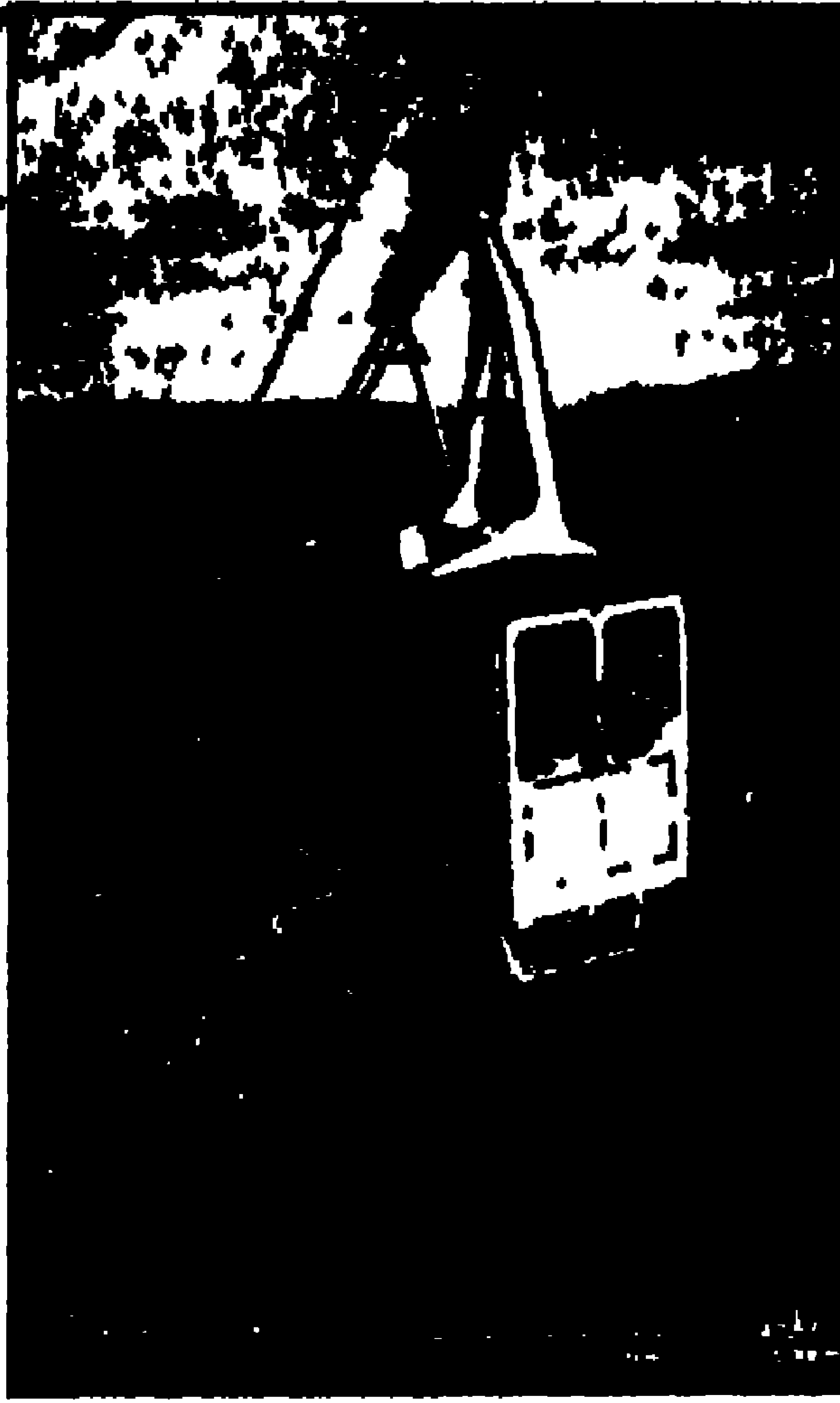
ويدهشنى من أولئكم القوم عنايتهم بأماكن النزهة لهم ولأبنائهم من إقامة الفنادق وتعبيد الطرق ، وتيسير سبل الاتصال ، وتوفير أسباب الراحة حتى فوق تلك الجبال النائية ، وقد بلغ بهم غرامهم بالطبيعة أنهم لا ينفكون يرتحلون كلما أتاح لهم وقتهم ذلك ، والكل يرتدون ملابس الرحلات فى شىء كبير من التقشف



(شكل ٥٢)
أمام مدخل نفق (ممرنج) بالنمسا

ويحملون وراء ظهورهم جعباً كبيرة، وفى أيديهم العصى، وهم يتسابقون فى الصعود والركض، رجالاً ونساء وأطفالاً، شيوخاً وشباناً، ويخيل إلى أن هذا نظام شبيه بالكشافة العسكرية، أو بنظام الفاشيست الإيطالى، والإقبال عليه شائع بين الجميع، هذا والاختلاف إلى المتنزهات التى تملأ الميادين كلها مقدس لديهم حتى وقت الظهيرة حين ترى الأطفال مع مربياتهم وأمهاتهم يمرحون فى تلك الحدائق، وقد زود بعضها بالحمامات أعدت للصغار، ويغلب أن توجد مقصورة فى الحديقة لأجهزة الاختبارات الجوية، وترى الكل حتى الصبية والرعاع يرقبونها ويتفهمون منها حالة الجو المنتظرة.

سالزبرج: وصلتها فى أول سبتمبر فى عودتى من ميونخ، وكانت مناظر الطريق سهولاً، ثم مالبثت أن أخذت الربى تبدو وتتزايد حتى دخلنا المدينة بعد ساعتين ونصف، وهى فى وهدة بين القمم التى تكسوها الغابات؛ وتسيل على جوانبها الغدران، وأول ما زرنا بها: مناجم الملح الشهيرة فى إحدى ضواحيها الداخلة فى الحدود الألمانية؛ وتبعد عنها بساعة ونصف فى الترام، وهنا ألبسنا الحراس أردية خاصة تشبه أردية السجون عندنا، وركبنا جرارة كهربائية مستطيلة أوغلت بنا فى سراديب لا حصر لها كأنها السرابيوم فى سقارة، ذات

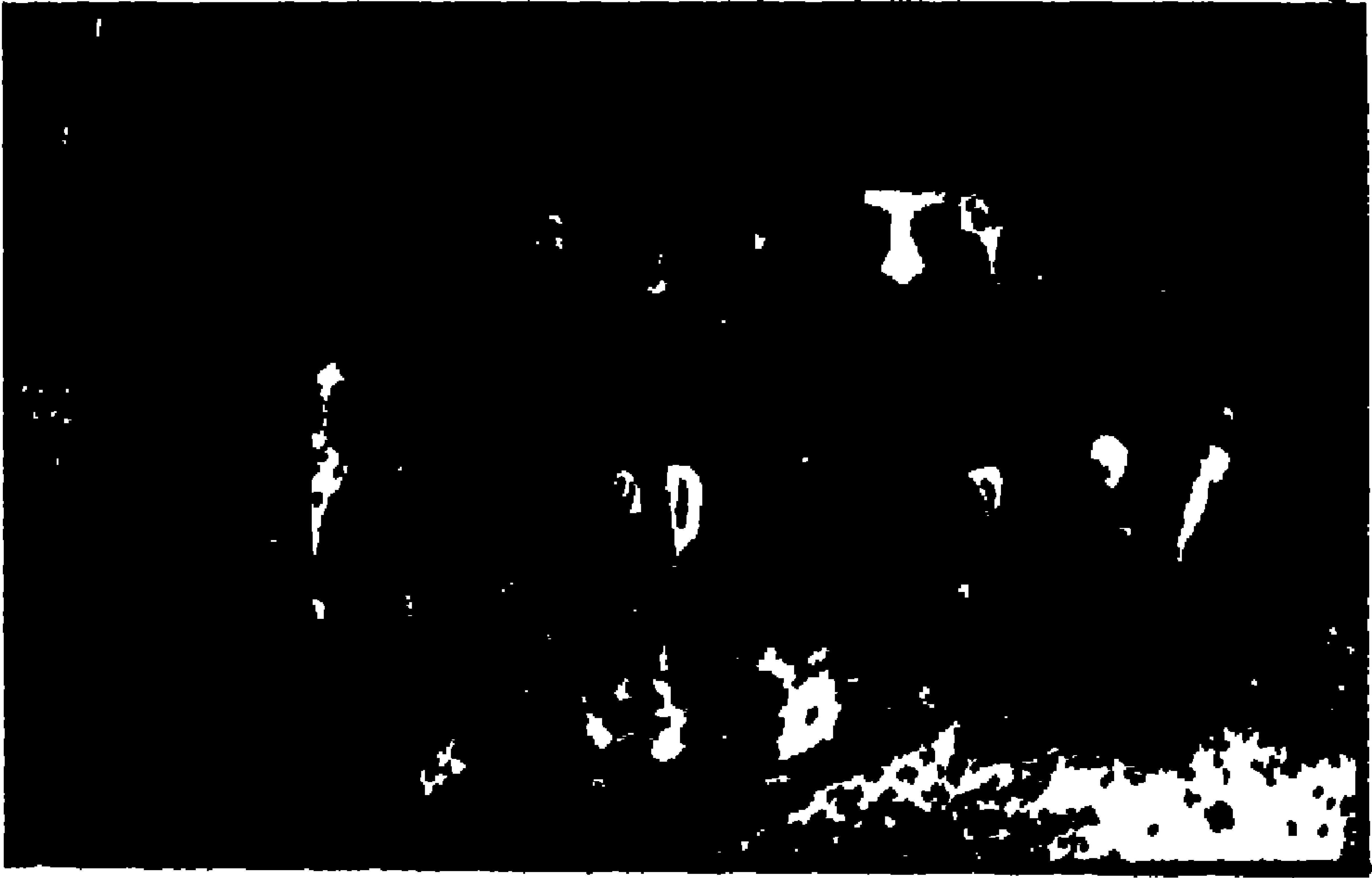

(شكل ٥٣) الترام الهوائى يناطح السحاب فى صعوده إلى ذرى جبال راكس بالنمسا

شعاب متعددة ، وفى طوابق مختلفة صعدنا بعضها بالدرج وهبطنا البعض بالانزلاق الذى يبلغ أحياناً خمسة وعشرين متراً ، وكنا بين آن وآخر نرى تجاويف شاسعة فى الصخر عند أمكنة استخراج المعدن ، وفى كل تجويف يعرض القوم نماذج من الملح مختلف اللون ، فى شكل مصابيح ، زجاجها من الملح ، ومن التجاويف مايملأه الماء فى بحيرات أكبرها خمسون متراً ، جبنا أطرافها فى زوارق ، والكل يضاء بالثريات الكهربائية ، وكانت درجة الحرارة داخل المنجم منخفضة إلى حد يشبه الجليد ، وعلو بعض نواحى المناجم يناهز ثلاثة آلاف المتر ، والحق أن الإنسان ليدهش لجهود هؤلاء الجبابرة من الألمان ، ولعظيم المشقة التى لاقوها فى إنجاز عمل خطير الشأن كهذا ، وقد لبثت داخل المنجم نحو ساعة .

قمت بجولة استعرضت فيها كل مدينة سالزبرج الظريفة التى تقع على جانبى نهر (Salsach) وهو يتلوى بلونه الخضر ، وتياره السريع ، تعبره القناطر المعلقة

الرشيقة ، وقسم المدينة القديم يقع إلى يساره ، وطرقه مختنقة جـداً غاصة بالحركة من الزائرين ، وبها جملة كنائس فاخرة ؛ وقصور لبعض الأرشدوقات مثـل : (Mirabell) ودار الحكومة ، وأجمل ما راقني كثيراً : موطن موزار الموسـيقى الشهير ، فله هنـاك بيتان : أحدهما ولد به ، والثاني كان يقطنه ، وفي أحدهما تقيم الحكومة متحفاً باسمه تعرض به مخلفاته ، وله ميدان يقوم فيه تمثاله وقنطرة تتوج باسمه ، فهو خير من أنجبته المدينة ، وتشرف على المدينة قلعة قديمة ضخمة على علو ٥٦٠ متراً تسلقناها بترام كهربائي فتجلى منظر المدينة ، تعانقها الربى من حولها ، ويجرى من تحتها النهر الثعباني ، فكان المنظر فذاً فاتناً ، ولذلك لم أعجب لما علمت أن بعض الشعراء قد عدها ثالثة مدن العالم جمالاً ، فالمدينة مصطاف غنى بمناظره الخلابة وأنزاله الفاخرة .

شيكوسلفاكيا : مثال التضحية والثبات : غادرت فينا عاصمة النمسـا ، فكنا نسير في مروج وغابات تكسو الأرض المموجة ، وما لبثت أن تعـددت الربى واشتدت كثافة الغابات كلما قاربنا هضبة بوهيميا ، وكان جل صادرات القرى من الأخشاب ، ولمـا دخلت حدود شيكوسلفاكيا زاد تعقيد الجبال ، وهي تكاد تختنق بالشجر ، وبدأ الصخر يتغير ، إذ تحول من الجير إلى النيس والجرانيت ، وأخذ القطار في الهبوط تدريجاً حتى دخلنا براج عاصمة البلاد ، بعد أن اجتزنا نفقاً طويلاً ، وكان يومنا كله غائماً ماطراً ؛ ظل الوابل طوال النهار وشطراً كبيراً من الليل ، فكأني بذلك قطعت أكثر من نصف هضبة بوهيميا أغنى أقسام تلك البلاد الفتية العتيقة ، فتية لأنها حديثة عهد بحياة الاستقلال الجديدة ، وعتيقة لأنها غالبت الزمن طويلاً ؛ فلقد أمها منــذ القدم خلق من البدو كثير أولهم الكلتيون ، ثم جاء شعب من الألمان ؛ ولم تنزل أمم السلاف بهـا إلاّ في القرن



(شكل ٥٤) تعودنا ملك الحرارة الكهربائية فى سراديب مناجم الملح بسالزبرج

السادس واختلطوا ، فكان من الجميع شعب شيكوسلفاكيا ، ولقد اندمجوا فى الإمبراطورية الرومانية الغربية ، وفى ٨٣٠ استقلوا واعتنقوا النصرانية ، ولما أغار المجر على الدانوب انحلت امبراطورية مورافيا ، وانفصل صقالبة الشمال عن صقالبة الغرب ، والتشك عن السلفاك نحو ألف سنة ، على أن الروح الشيكوسلفاكية لم تخمد بينهم قط ، وقد نهض قوم من التشك فى بوهيميا وكونوا لهم دولة دخلت مع الدولة الرومانية المقدسة فى حروب شعواء بين القرن العاشر والرابع عشر ، وأخيراً حصلوا على استقلالهم فى القرن الخامس عشر ، ومن أكبر أمراء التشك الذين ساعدوهم على بناء دولتهم (سانت فاكلاف) الذى أقيم له حفل هذا العام بمناسبة مرور ألف عام على موته ، وقام (جون هوس) الأستاذ بالجامعة بمجهود فى تثبيت أركان اللغة التشكية ، وصبغ التربية بصبغة قومية ، لكنه اختلف مع زعماء الكنيسة ، فحوكم وقضى عليه بالحرق سنة ١٤١٥ فألهب ذلك نار الحروب الموسية ، وأقام الثورة ضد الكنيسة ، وأخيراً انتخب فرديناند الأرشدوق

النمساوى من أسرة هيسبرج ملكاً على بوهيميا ، وبهذا انتفى استقلال بوهيميا بذاتها وحلت فينا محل براج فى الحضارة ، وحاول فردناند إصلاح ما بين الشعب وروما ، لكنه فشل ؛ وزاد فى كراهية الشعب له تقييده نظام الملكية ، فألقى الشعب ممثلى الحكومة فى براج من النوافذ ، لكن ثورتهم أخمدت فى قسوة بعد واقعة الجبل الأبيض (سنة ١٦٢٠) ، واضطهد التشك وبخس حقهم ، واستمر التدهور على أيدى النمساويين ، ومنعت دراسة اللغة التشكية من المدارس والكنائس ، وقد ساعد أشراف التشك الأعداء النمساويين على الشعب حتى تم استعباده سنة ١٧٢١ عهد شارل السادس ، وفى حكم ابنته مريا تريزا أصبحت فينا كل شىء ومحيت دولة التشك من الوجود ، على أن عقلاء الشعب ما فتئوا يوقظونه خصوصاً بعد نشر المذاهب الحرة فى فرنسا ، لكن قاومهم مترنيخ برجعيته حتى كانت سنة ١٨٤٨ حين منحوا بعض الحريات ، وبدأوا يطالبون بالاستقلال ، وعلى أثر الملكية الثنائية (النمسا والمجر) تصرف هؤلاء فى رعاياهم من غير الجنس الجرمانى كما يشاؤون ، فقاوم التشك حتى نالوا بعضاً من استقلال التعليم ، فبدأ العلم يزدهر فى بلادهم ثانية ، وأخيراً قامت الحرب الكبرى فتأهب التشك لمناصبة النمسا العداء وانحاز رجالهم إلى جانب الأعداء ، وكانت النمسا قد أعلنتهم للدفاع عنها ، فحاربوا ضدها فى الروسيا وإيطاليا وفرنسا ، ثم تألف فى باريس المجلس الوطنى التشكى تحت زعامة الدكتور مزريك الأستاذ بجامعة براج الذى فر إلى خارج بلاده تفادياً من اضطهاد النمسا ، وشل يده عن العمل لصالح بلاده ، وأخذ هذا المجلس يعمل لتحرير البلاد وتأسست فى شيكوسلفاكيا جمعية سرية سميت (Maffie) لإيقاظ شعور الأهلين وإشعارهم بقرب الاستقلال حتى تمت هزيمة دول الوسط ، فتحرر التشك من ظلم مبيد ظل ٣٠٠ سنة ، وفى ٢٨ أكتوبر سنة ١٩١٨ أعلنت الجمهورية



(شكل ٥٥)   سالزبرج يشقها نهر سالزاك بلعائه العجيبة

وانتخب لرياستها مزريك وهو الآن الرئيس للمرة الثالثة ، وعدد سكان بلاده اليوم ١٢ مليوناً ، وهم نشيطون فى الزراعة ، وأخذوا ينشطون للصناعة ، وفيهم مواهب فنية ، خصوصاً فى الموسيقى ، والناس عمليون إلى حد كبير وهم فى الدين اباحيون قاوموا الكاثوليكية ، ويفاخرون بعدم دخول الجزويت بلادهم ، وقد مرت كنائس الكاثوليك بسبب إهمالها ، ومن فرقهم الممتازة فيما يحاكى الكشافة « Sokol » أو البزاة وشعارهم (كونوا أشداء) .

براها : عاصمة البلاد معناها (الباب) لأنها أول ما سكن من أرض بوهيميا تقع على نهر صغير اسمه (Vltava) من روافد الألب سكانها يناهزون ثلاثة أرباع المليون ، حيث أن عددهم ضوعف بعد الحرب ، حتى انك لتجد فى خارجها قسما حديثاً كأنه مدينة ثانية ، والمبانى تمتد فيه بسرعة عجيبة .

وقد بدأت المدينة صغيرة فوق ربوة بنى حولها سور وأخذت تمتد ، وفى ١٦١٤ انتقل الامبراطور إلى فينا وترك براها تحت حكم الولاة الذين اضطهدوا

البروستانت ، فبدأت المناوشات الدينية وألقى ممثلو الامبراطور من النافذة ، وبذلك بدأت جذوة حرب الثلاثين عاماً التى عمت أوروبا الوسطى خصوصاً بوهيميا ، وعقب هزيمة التشك فى التل الأبيض (١٦٢٠) إحدى وقائع حرب الثلاثين سنة التى هزم فيها البروتستانت ، أخذوا يقاسون مظالم فادحة ، وشنق ٢٧ من زعماء الأعتصاب فى ميدان المدينة وظل الاضطهاد حتى كانت ١٦٤٨ حين هاجمهم السويد ، لكن الطلبة حموا القلعة بمهجهم ، وفى ١٧٥٧ فى حرب السنين السبع أصابت براها نكبة فادحة حين دمرها ملك بروسيا بالمدافع ، وفى ١٧٧٣ فى حكم ماريا تريزا ألغى (أمر الجزويت) ، ودمر كثير من الأديرة والكنائس وفى ١٨٦٦ قاست أيضاً من حروب بروسيا ، وفى بدء الحرب الكبرى أصابتهم أهوال كبيرة ، وبفضل تضحيتهم وصبرهم قاوموا المجاعات وكانت جمعية (مافى) تستنهضهم وتوثقهم بقرب الخلاص ، وساعدهم مزريك من الخارج حتى كان يومهم المشهود يوم ٢٨ أكتوبر سنة ١٩١٨ حين خلعوا النير النمسوى وأعلنوا الحكم الجمهورى ، وبدأت تشعر بمسئولية كبرى وهى دائبة على الإصلاح من جميع نواحيه بهمة تكاد تأتى بالمعجزات كى تصبح عاصمة تليق بدولة ناهضة كبرى .

فبراها تسمى بحق (روما الشمال) لأنها صفحة تاريخية تبدأ حوادثها منذ ٣٥٠٠ سنة ، ولعل أجمل ما رأيت فيها : القصر الملكى الذى يحوى بعض البقايا الأثرية من القرن التاسع ، وتشمخ حصونه وأبراجه على نظام هندسة القرون الوسطى ، وأبدع أبهائه البهو الاسبانى وهو آية فى الفخامة والزخرف ، واليوم يقطن الرئيس مزريك ثلاث غرف منه فقط ، وحراس القصر يلبسون الأزياء المختلفة ، بعضهم على نمط الملابس العسكرية الفرنسية والبعض التليانية ، وآخرون الروسية ، ذلك لأن أجناد التشك انحازوا للأعداء ، فكان منهم المحارب فى


(شكل ٥٦) المجانب تمثال موزارسالزبرج

صفوف الجيش الفرنسى ، والطليانى ، والروسى ، وإلى جانب القصر كنيسة سانت فيتس ، و بناؤها قوطى فخم بديع ، وفيها يدفن ملوك بوهيميا ، وبراطرة الدولة الرومانية المقدسة ، وبها بعض الذخائر والجواهر المخلفة عنهم .

ثم زرت قصر ولنشتين[1] فى حى مالاسترانا ، وكان دوق فريدلند فى صدر القرن السابع عشر ، وهندسته إيطالية فى ضخامة يعوزها الجمال ، و به بعض مخلفاته وأسلحته وأساسه ، وحصانه يرى محشوا محنطاً ، و بالقصر حديقة بديعة شاسعة ، و بجانبه بيت صغير كان يقطنه موزار الذى ظل زمناً يمثل بنفسه فى دار التمثيل هناك ، كذلك راقنى زقاق قذر بدأت به شعلة حرب الثلاثين عاماً فى حى (Vladislav) وفى ميدان المدينة القديم زرنا دار الاستشارة (راتهوس) وعلى رصيفه المطل على الميدان نرى فوق الأرض صلباناً بعدد أشراف بوهميا الذين شنقوا فى هذا الموضع عقب هزيمة التل الأبيض (١٦٢٠) ، و برج الدار تزينه ساعة فلكية منذ سنة ١٤٩٠ وكلما دقت الساعة انفتحت أبواب فى أعلى البرج ، وتحرك أشباح يمثلون الرسل الاثنى عشر والمسيح ، وتلك الساعة ترى منازل الشمس

---

(١) ولنشتين : أعظم قواد ألمانيا فى حرب الثلاثين عاماً ، جمع جيشاً من المرتزقة وساعد امبراطور النمسا بشرط أن تكون له القيادة العليا ، ولما عظم نفوذه حنق عليه حتى الامبراطور نفسه وأعد مكافأة لمن يقتله فطعنه جندى إيرلندى من جيشه وأرداه سنة ١٦٣٤ .

والقمر وأيام الأعياد وما إليها بدقة غريبة ، وفى داخل القصر قبر الجندى المجهول وحوله باقات الزهر وأطر الحرير مقدم من مختلف الملوك ، ولمصر باقة حولها الأشرطة الخضراء ممثلة العلم المصرى ، وفى كنيسة أم للسيح يدفن الفلكى الدنمركى الشهير (تيكو براهه) .

وأبهى شوارع المدينة (فا كلافسكى نامستى) ومنظره من شرفة المتحف الذى يشرف عليه رائع ، وأنواره فى الليل تبهر النظر ، والمتحف يحوى مجموعة قيمة من النبات والحيوان ، على أن المجموعة الأثرية به قليلة ، أما باقى المدينة فعادى يشقها النهر وهو يتمايل وتعبره القناطر التى أشهرها قناطر كارل ، ويطل عليه برج قديم كان له شأن فى صد المغيرين عن المدينة ، وتتوسط النهر عدة جزائر بها المتنزهات وتصلها القناطر العدة ، على أن المدينة ينقصها كثير من المنشآت كى تحاكى من المدن أمثال ڤينا وبودابست ، وكى تليق بحاضرة دولة ناهضة كبيرة كهذه ، ويزمع القوم حفر قناة بجوارها تصل نهر الألب والطونة ، فتزيد حركة النقل ، ويلاحظ النشاط على سكانها ، فهم يبدأون العمل مبكرين — حتى عمال الحكومة — بنحو ساعتين ويتأخرون فى المساء ، وبين الساعة ١٢½ و ٢½ فترة راحة توقف فيها جميع الأعمال ، حتى الكنائس . ويراها تسمى مدينة الشدائد لما مر بها من عصور عصيبة ، ويظهر أن تلك المآسى هى التى كونت أخلاقهم التى ستكون خير معوان لهم على بلوغ أوج التقدم ، وهم اليوم ناهضون بصناعاتهم بنشاط عجيب ، دائبون على ترويج سلعهم فى الخارج ، وها نحن نرى ذلك فى مصر ، إذ تنتشر مصنوعاتهم الخشبية كأدوات الموسيقى ، ومنسوجاتهم وبخاصة الطرابيش التى تقوم مصانعها فى مدينة (برون) عاصمة موراڤيا ، والجعة التى تزاحم أجود أنواع الدنيا ومصانعها فى (پلزن) من أمهات مدنهم وإليها تنسب



(شكل ٥٧) براغة : الميدان التاريخى الذى شنق فيه منبرو واقعة التل الأبيض

جهة (بلزنز) كذلك مصانع الجلود والأحذية وأكبرها مصنع (باتا) المعروف . ثم صناعات الخزف والزجاج ، كل ذلك يسير فى سبيل التقدم بخطى الجبابرة ، وذلك بفضل نشاطهم وإخلاصهم لوطنهم ونجاحهم فى رفع نير الأجنبى عن كواهلهم ، والحق أن الفرق الشاسع بين حالتهم النفسية والإنتاجية قبل الاستقلال وبعده ليؤيد ما للحرية والاستقلال من أثر سحرى فى الأخذ بناصر الشعوب .

كارلسباد : ويسميها القوم اليوم (Carlovy Vary) لأنهم يمقتون الألمان والنمساويين ويتجنبون لغتهم ، قمت إليها فوصلتها فى أربع ساعات ، وكانت مناظر الطريق جميلة ، فالأرض مغضنة والحقول منزرعة ، وأظهر نباتها حشيشة الدينار (Hops) وبوهيميا تعد أكبر جهات العالم انتاجاً لها ، وتصدرها للممالك الأخرى وبخاصة لتخمير الجعة ، وهذا سر شهرة (Pilsen) التى لا يباريها فى الجعة غيرها ، وعيدان النبات كأنها فروع الكروم تقام على شرائح خشبية تصف فى نظام



(شكل ٥٨)
ينبوع (سبرودل) الكبير فى كارلسباد ، والفتيات يملأن منه أكواب المستشفين

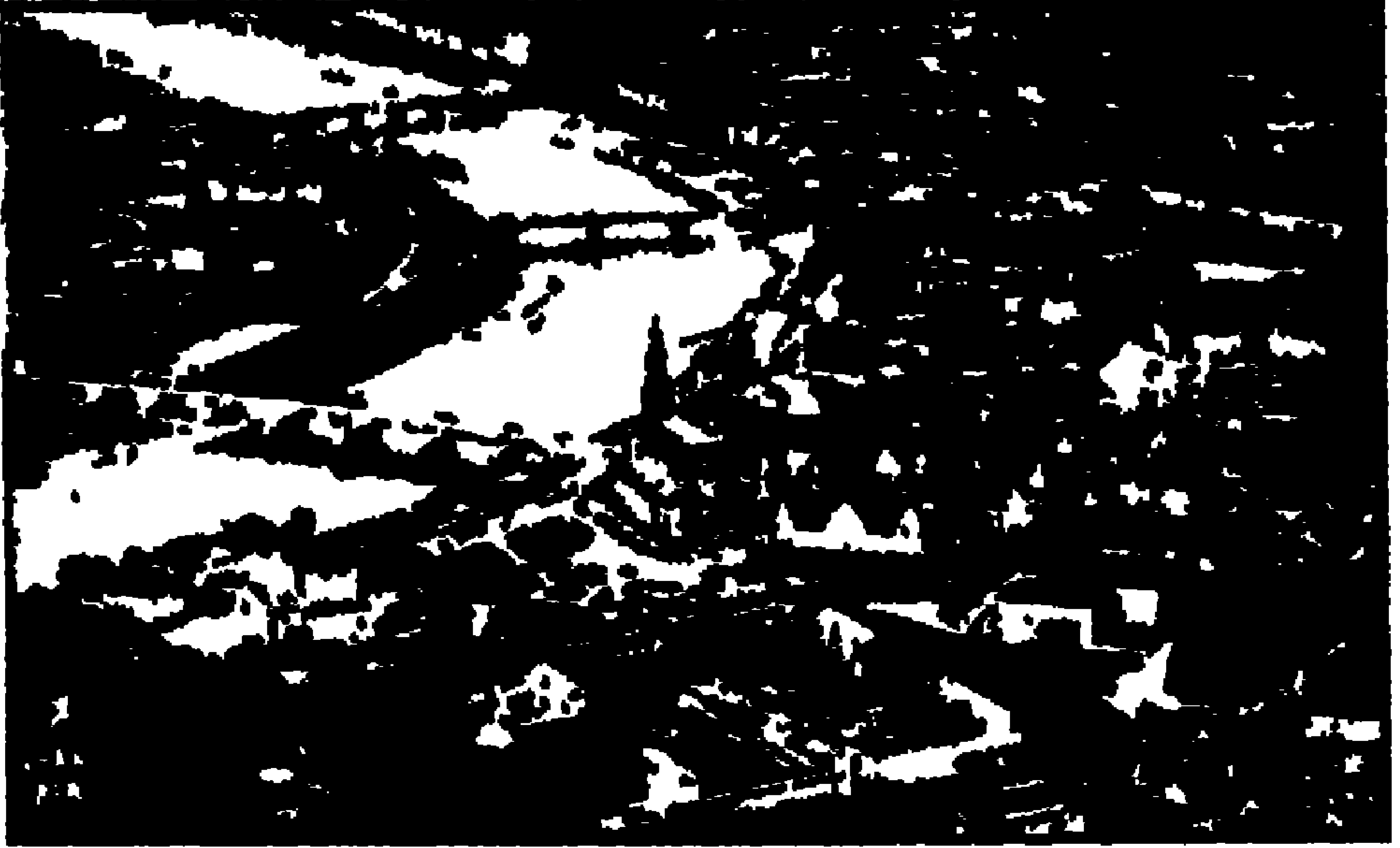
دقيق ، على أن ثمنها هذا العام هبط كثيراً بسبب كثرة الإنتاج ، ولذلك تدهورت حالة الفلاح المالية خصوصاً وأنها المحصول الرئيسى له يعقبها فى الأهمية الشوفان والشيلم والقمح ثم الغابات ، ومدينة كارلسباد تقع فى واد ضيق تحفه التلال يكسوها الشجر ويشقها نهر (Tepl) الصغير وهو رافد لنهر (Eger) ويكاد ماؤه يكون ناضباً ، لكنه فى الربيع يمتلئ وقد يفيض على المدينة ، وتقوم المبانى الأنيقة فى درجات فوق بعضها على جوانب الربى فى منظر جذاب ويعبره عدد لا يحصى من القناطر ، وغالب سكان المدينة أغراب من طالبى الاستشفاء ، والمدينة تحمل اسم منشئها شارل الرابع (حمام شارل) وفى أقاصيصهم أن الإمبراطور خرج للصيد يوماً فتبع كلب له وَعْلا فقفز الوعل من قمة ربوة ونزل فى الوادى فسارع الكلب وراءه ، لكنه سرعان ما أخذ يعوى عواء مراً استرعى نظر سيده ، فلما أتاه ألفاه قد احترق بمياه نبع فوار اتخذه شارل حماماً فيما بعد ، وينابيع للمدينة عديدة ، ويختلف ماؤها فى الحرارة والمركبات المعدنية . على أن صبغتها قلوية فى

الجملة ، وأكثر مواردها شيوعاً سلفات الصودة وكربوناتها وكلوراتها ، وأعلى حرارتها ٧٣° م فى الينبوع الكبير المسمى (Sprudel) وهو يقذف من مائه نحو ألفى لتر فى الدقيقة (٢٫٩ مليوناً يومياً و ١٨ ألف كيلو من الأملاح الذائبة) وهو يمون جميع الحمامات هناك ، ويصدر منه سنوياً أربعة ملايين من الزجاجات (أى نحو محصول يوم ونصف) ، ويشرب القوم نحو ٢٣٥٠٠ كوباً يومياً ، ويستخرج منه مائة ألف كيلو من الملح المسمى باسمه سنوياً ، وهو يصعد كل ساعة ٢٥٠ كيلو جرام من غاز الكربونيك ، وهناك من الينابيع عشرة أقل من هذا أهمية ، ومنظر سبرودل مدهش ، فهو يدفع بالماء إلى علو يناهز عشرة الأمتار فى رشاش وانفجارات وغازات ، ومياه تلك الينابيع تشفى المرضى بالمعدة والأمعاء والكبد والتمثيل الغذائى والمجارى البولية والروماتزم ، وكم يروقك منظر القوم وهم يتزاحمون كل يمسك بكوبه ويملأه من الينبوع الذى وصفه له الطبيب ، وهم يتناولون الماء جرعة جرعة ، ويمشون ذهاباً وجيئة على اختلاف أجناسهم وأعمارهم ، ويبلغ عدد من يمضى زمن الاستشفاء بها سبعين ألفاً ، ومن يزورها مروراً مائتى ألف ، ولذلك ليس بعجيب أن ترى المتنزهات ودور الملاهى والانزال ووسائل النعيم منتشرة ، وقد عبد القوم طرقاً متلوية خلال الربى طولها نحو ١٢٠ كيلو متراً . فالمناظر من حولها شعرية ساحرة تغرى الزائر بطول اللقاء ، ولو لم تكن به حاجة للاستشفاء .

ألمانيا

بلاد الفخامة والنظام

قمت من براهة الساعة الثالثة مساء فوصلت درسدن السابعة مساء ، وكان الجو غائما وكلما تقدم القطار زادت كثافة السحب وسح المطر وصار وابلا والسماء ترعد وتبرق فى شدة غير عادية ، وبخاصة عند ما قاربنا السفح الجنوبى لجبال (ارزجبرج) وكنا نعلو تدريجاً ويزيد تعقيد الجبال وتكثر الانفاق ، ولما أن اجتزنا الجبال أخذت السهول تنفسح والسحب تنقشع وظهرت الشمس ، وأخيراً دخلنا درسدن التى بدت خفيفة الروح نظيفة ويسهل تتبعها على المصور ، وهى تقع على نهر الالب وغالبها على الضفة اليسرى ، وأعظم شوارعها رونقاً وحركة (Prager) وامتداده (Schloss) وبه معظم المتاجر وخير ما زرت بها : القصر الملكى وهو على نظم قصور القرون الوسطى ممتد الأجنحة مشرف الأبراج وبه فى الدور الأسفل متحف للمجوهرات والتحف والمخلفات الملكية الثمينة ، وفى الدور الثالث الأعلى مسكن الملوك وحجرات القصر وأبهاؤه فى امتداد وعظمة تبهر النظر ونقوشها تدل على ما كان لملوكهم من صولة وسلطان ، وبالحجرات أثاثها من بينه سرير غليوم ومكتبه ودولابه ، ومن القصر يمتد طريق معلق على شكل قنطرة تصله بالكنيسة الفخمة التى تشرف على النهر عند قنطرة (أوجسطس) وإلى وراء القصر متنزه بديع الشكل تحيط به أبنية فخمة بشرفات ودرج فاخرة يصعدها الإنسان فتؤدى به إلى دورها الأعلى وكله ممشى للتنزه ينتهى بقباب وأعمدة فخمة ، واسم هذا المكان الساحر (Swinger) وفى أحد جانبيه المتحف الفنى وبه مجموعة



(شكل ٥٩) مدينة درسدن عند منعطف نهر الب

مدهشة لكبار المصورين نخص بالذكر منهم : رفائيلو وروبنز وفانديك ، ومعروضاته كثيرة العدد بحيث تملأ طبقاته الثلاث وهو معدود من متاحف الفن الكبرى فى العالم ، ويظهر أن هواة الفن والتصوير كثيرون هناك لأنك لاتكاد تدخل غرفة إلا وتجد بها مصوراً أو اثنين ينقلون على لوحاتهم ما راقهم من آيات الفن القديم ، وثم متنزه تجاه الكنيسة من الجانب الآخر يسمى (Belvedère) إذا علوت مسارحه بدت لك المدينة على النهر المتلوى ومبانيها على جانبيه فى مشهد رائع وبه عدة حدائق ومتنزهات ومقهى كبير ، وتشرف عليه دار العلم (أكاديمى) فى أبهة البناء وفخامته ، وخلفه متحف الحفر وبه مجموعة لا بأس بها من النصب التى نحتت فى مختلف العصور ، وفيه جانب مصرى صغير جداً ، قضيت فى تلك المدينة النظيفة يومين كاملين تمتعت خلالهما بجو جميل ومناظر جذابة ، ثم قصدت إلى :

هيسن : التى وصلتها فى ساعة وهناك ركبت تراما إلى مصنع الخزف ذائع

الصيت الذى ينتج خزف سكسونيا الذى لا يخلو منه سماط فاخر قط ، دخلته واقتادنا أحد رجاله شارحا ، فمررنا فى الطابق الأسفل على مجهزى العجينة التى تعد من مادتى : الكولين والفلسبار لعمل الخزف الرخيص ، ومادتى الكولين والكوارتز للخزف الثمين ، وتلك المواد تستمد من الجبال النارية القديمة المجانبة للمصنع ، وهناك ترى الرجال يديرون دواليب بالأرجل شبيهة بتلك التى تراها فى قنا ، ويمسك الواحد بالعجينة ويشكلها بيده أو بسكين معه كيفما أراد وبمهارة فائقة ، وبعضهم يضع العجينة فى وسط قوالب من الجص ثم توضع حولها حلقات غلاظ من الفخار السميك الصقيل وترص فى الأفران التى تحمى إلى درجة ألف مئوية ، والأفران يطلى داخلها بدهان براق ، أما النقش والزخرفة ففى الطابق الثانى ، وهنا يرى الإنسان عجباً ، فالرجل أو الآنسة تمسك بالطبق أو الكأس وتطبع عليه تحديد الرسم وتملأ فراغه بريشتها فى إتقان يثير الدهشة ، ومن الأشكال التى كانت تتم فى دقائق ما يعجز للفن المبدع أن ينجزها فى ساعات ، والمواد الملونة من مادة الكوبالت الأزرق ، وبعد إتمام ذلك يغمر الإناء فى السائل الصقيل كى يصبح ناعم الملمس .

وثم قسم للحفر تشكل فيه التماثيل على اختلافها والزهور وما إليها بالأيدى فى دقة عظيمة بلغت أن كان الرجل ينقش أمامنا رقائق من الجص مخرمة تحكى (الدانتلا) . ويزوغ البصر إذا انتقل المرء إلى قسم المعروضات حين ترى نماذج من الآيات التى ينتجها المصنع من تماثيل للحيوانات جميعها وبعض الأشخاص فى مختلف حركاتهم ، وآنية ترى كأنها مرصعة تزينها الصور الفنية البديعة ، مما يشهد للقوم بالفضل العظيم فى هذا النوع الذى أكسبهم قصب السبق فى ميدان المنافسة ، وقد تفقدنا المعرض وحده فى ساعة ونصف .



(شكل ٦٠) أكبر مصانع الحرير في العالم — ميسن سكسونيا

أما المدينة نفسها فصغيرة لكنها تفوق بلداً من بنادرنا فى ضخامة الأبنية ونظافة الشوارع ، وتنسيق المتنزهات ، وعجيب أن تعلق الجرائد اليومية فى مركبات الترام كى يتصفحها الركاب .

قمت إلى برلين الساعة الثالثة مساء فوصلتها الساعة السادسة إلا قليلا ، وكانت المناظر فى الطريق كله سهولا ممتدة تكسوها الخضرة إلا حيث ترى الغلال بيضاء يحصدها القوم و بخاصة الشوفان ، ولا تخلو تلك السهول من الغابات المتناثرة .

برلين : فى صباح الجمعة ١٨ يوليه قصدت شارع المدينة الممتاز (انتردن لندن) و بدأت بزيارة القصر الملكى الذى يقع فى آخره وهو قسمان حديث وقديم فالحديث أقيم منذ القرن الثامن عشر وهو فخم لحد كبير ، به غرف وأبهاء للقياصرة ومن بينها عرش غليوم ، والغرفة التى خاطب الشعب منها عند اعلان الحرب

سنة ١٩١٤ ، وصور زيتية كبيرة للملوك جميعاً ، وفى مقدمتهم فردرك[١] الأكبر على جواده ، وهو يتجه إليك بوجهه من أى جهة تنظر إليه ، وهذا القسم كان من الفضة الخالصة حتى العرش والشرفات (البلكونات) والمقاعد لكن فردريك صهر كل ذلك وسكه نقوداً لما أعوزه المال فى حرب السنين السبع ولا تزال منه بقية فى مقعدين وشرفة من الفضة البيضاء ، و بعض الحجرات تكسى جدرانها بسط من صنع مهرة الموجنوت .

والقسم القديم أقل فخامة راقنى به صورة لأولاد فردرك يعزفون على الموسيقى خلسة لأن أباهم كان يقسو عليهم و يمنعهم ذلك ، و بالقصر سبعمائة حجرة وأربعة طوابق وألف نافذة ، وفى دوره الأسفل متحف لمخلفات الملوك من هدايا وأثاث والقصر يطل على نهر سبرى الصغير (فرع الألب) الذى تقع عليه برلين وتعبره القناطر العديدة فى مقدمتها قنطرة القصر ، وقنطرة فردريك ، وعندها كنيسة الدوم أفخم كنائس برلين قبتها الأنيقة تناطح السحاب ، وهى ذات نقوش فنية بديعة بهوها يتسع لخمسة آلاف جالس ، وتطل عليها شرفة خصصت للقيصر نفسه يؤدى فيها الصلاة ، ولها سلم فخم خاص به ، وخلفها يقع مدفن القياصرة و به تحفظ رفات مائة من آل هوهنزليرن من بينهم فردرك الأول ، ثم زرت متحف (القديم والحديث) وخير ما راقنى به القسم المصرى و به قطع عديدة نفيسة أخص منها تمثالا من الجرانيت الأسود الصقيل لرمسيس الأكبر وآخر لسيزستريس الأول وهما جالسان ، ونماذج لأنوال للنسج بكامل أدواتها ، و بعض الآلات

---

(١) فردريك الأكبر بطل القرن الثامن عشر صلح شئون بلاده ثم وجه همه إلى التوسع فى الخارج ، وكان عبقريا فى الحروب حتى كان معجب به نابليون فيما بعد ويحمل تمثالا له أينما سار ، والحق أنه رفع ألمانيا إلى مصاف الدول العظمى .



(شكل ٦١) جهاز زايس لتبسيط علم الفلك فى برلين

والأسلحة ، وأضرحة كاملة وجثث محنطة بعضها ممدد ، والبعض مطبوق الأرجل إلى الصدر منذ ٣٥٠٠ ق م ، و بعضها موضوع فى قبره . ومن بينها ضريح مطعم بالأبنوس والعاج غاية فى الإبداع والدقة .

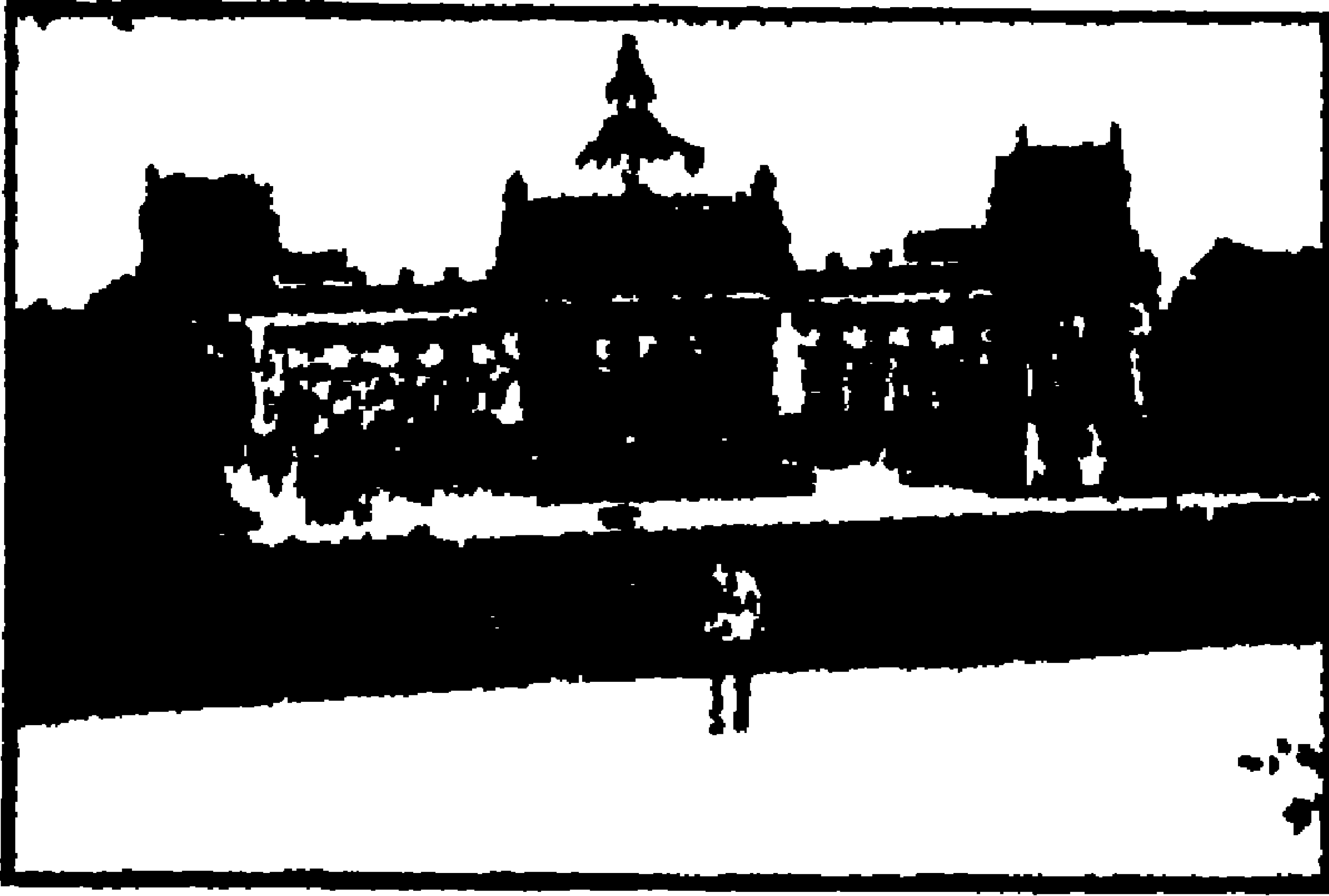
وهناك رأس نفرتيتى (منذ سنة ١٣٧٠ ق م) المتنازع عليها بوجهها الدقيق ورقبتها النحيلة ، وعيونها السحرية ، وقد عمل منها عدة نماذج من الجص ، وخبرنا الحارس أنها على وشك أن ترسل لمصر . والمتحف غاص بقطع قيمة لا حصر لها .

وبه قسم أغريقي من (أتيكا) وخير ما به أوان فخارية حمراء صقيلة ، وعليها نقوش بديعة وإن كان بعضها خارجاً عن حد اللياقة والأدب .

ومن معارض الفن الشهيرة (المعرض الأهلي) وبه مجموعة لصور فنيـة من مختلف العصور ، ثم متحف (القيصر فردريك) ، وفى دوره الأعلى تحف فنية كثيرة لـكبار المصورين وأجلهم فى نظرى روبنز ، وفى دوره الأسـفل مجموعة تمـاثيل وأوان وقطع من خزف ، وبه قسم قبطى مصرى يحوى مجموعة أنسجة قيمة ، ومحراباً قبطياً من دمشق ، وتمـاثيل وواجهات من خرط الخشب عليها المسيح والقديسون .

وثم قسم إسلامى بالقيشانى والآيات القرآنيـة وطنافس ومحاريب كاملة ، وأبواب وجدران من خرط الخشب بكامل نقوشها ، ثم أنسجة جميـلة من عهد هرون الرشيد ، وعليها الخط الـكوفى الجميل وأخرى لخلفاء غيره ، وأقمشة موشاة بالذهب مزركشة بمختلف الألوان . هـذا وأبنية المتاحف تبهر النظر فى فخامتها وعظيم امتدادها .

والحق أن أول أثر لبرلين ينطبع فى نفس الزائر دالاً على عظمتها وثراء أهلها ضخامة مبانيها وسعة شوارعها وامتدادها الرائع فى استقامة واحدة ، وفوق ذلك نظافتها التامة ، فلمجرد جولة يثبت أنها عظيمة أهلها أهل نشاط وعمل ونظام ودقة ونظافة ، بلغ من دقتهم أن أسماء الشوارع تكتب على لوحات مستطيلة تقام على عمد فى زوايا الطرق ، وعليها أرقام البيوت التى فى هذا القسم من الشارع ، وسهم يدل على الاتجاه ، وعند مواقف سيارات الأمنيبوس تعلق خرائط لخطوط سيرها تبدو واضحة فى النهار وتضاء من داخلها ليلا ، أضف إلى ذلك البوليس المهيب المثقف الذى يخاطبك بأكثر من لغة واحدة ويجيبك فى رفق وتؤدة ، ويهديك إلى طلبتك كائنة ما كانت .



(شكل ٦٢) أمام الريشستاغ (البرلمان) برلين

وهذا كله ملاحظ فى سائر البلاد الألمانية ، ولذلك فإنى أعد ألمانيا خير بلاد أوروبا جميعاً فى الدقة والنظافة والنظام والمظهر العظيم ، وقد جمعت بين الكد وراء العمل والإسراف فى اللهو مما لم يتوافر فى بلاد أخرى .

قصدت إلى مكان أسموه (Planetarium) نسبة إلى الأجرام السماوية السيارة وهو مؤلف من قبة ضخمة صفت داخلها المقاعد للمستمعين ، وتتوسطها آلة معقدة ومؤلفة من جملة عدسات تظهر فيها كل الاجرام السماوية مشرقة سواء على حدة أو فى جمع من النجوم والشمس كل يدور أمامك فى فلكه بنسبته الفلكية الصادقة والرجل خلال ذلك يشرح لنا ما نرى مشيراً بسهم من ضوء يتحرك فى أرجاء القبة حيث يشاء ، والجهاز يعد من أكبر المبتدعات لتبسيط علم الفلك وسرعة تصور مدارات الاجرام بعضها بالنسبة لبعض ، وهو من مبتكرات (زايس) صاحب الشهرة فى الأجهزة الأبصارية ، وقد حذت حذوه سائر المدائن الأوربية الكبرى ، وأنشأت أمثاله ليفيد الطلبة والعامة على تفهم معميات الحركات السماوية الغامضة .

وخير متنزهات المدينة وأفسحها (Treptow) و (Tiergarten) تنسق فيهما الزهور وتقائم للمياه ومجاريها ، ويكثر الشجر الكثيف حتى ليخيل إليك أنك تسير فى غابة هذبت مسالكها ، ووسط الأول المرصد ، وبه معرض لآلات الرصد وتطورها وأجهزة فلكية عدة وكثير من الشهب حجم أكبرها يناهز نصف المتر وبه منظار هائل امتداده ، وقد قيل لى إنه أكبر ما وجد قطره ٦٥ سم وطوله ٢١ متراً ، وقد رسم الراصدون بواسطته كثيراً من الأجرام السماوية .

ويؤدى المتنزه الثانى إلى ميدان للملوك الفخم يشرف عليه البرلمان فى بنائه الأنيق الفاخر الذى نقش عليه ما معناه : (إلى الشعب الألمانى) وأمامه تمثال لبسمرك أكبر دهاة ساستهم ويواجهه وسط الميدان عمود النصر يصعده الإنسان بمائتين وخمسين سلماً فيمر بشرفة شاسعة نقشت جدرانها بالفسيفساء البديع ، وتتوج العمود سيدة بأجنحة وصولجان وتاج مرفوع من زهر ، وحول جدرانه السفلى نقوش نحاسية لوقائع تاريخية ، وأقيم تذكاراً للنصر فى حرب السبعين ، ولذلك نقش عليه ما معناه : (من الوطن الشكور إلى الجيش المنتصر هنا) وتبدو برلين من ذروته فى عظمة وجلال ، وقد أصر الحلفاء خصوصاً فرنسا على هدمه فى معاهدة فرساى لكن الألمان رفضوا ذلك فى إباء ، وحول الميدان تماثيل لجميع القياصرة بجانبهم كبار الساسة أمثال مولتكه ، ومنه يصل المرء إلى بوابة (برندنبرج) على نمط اغريقى ضخم ، تتوجها عربة تجرها أربعة جياد عرضها ٦٨ ياردة وعلوها ٢٢ أقيمت سنة ١٧٨٩ تحكى بوابة باريس ، وأمامها ميدان بالرخام الناصع والنافورات الجميلة والتماثيل الدقيقة ، وامتداده يؤدى إلى شارع انتردن لندن الشهير ، ويقطعه فى وسطه ثانى طريق فى الأهمية (فردرك شتراس) وتمتد قصوره الفاخرة إلى قصارى مسارح النظر فى استقامة رائعة إلى الأفق حيث

يخيل إليك أنه لا نهائى ، وفى تلك المنطقة تقع أضخم مبانى برلين من قصور ملكية ومتاحف ومعارض فنية ، والأبرا التى تسع ١٩٠٠ شخصاً وهى ذات نقش رائع وفى إسراف كبير ، وكذلك دار الجامعة وأمامها أبدع تماثيل المدينة فردرك الأكبر .

حديقة الحيوان : مترامية الأطراف بها مجاميع كبيرة من مختلف الحيوان ، وأحسن ماراقنى بها الحظائر التى أقيمت فى هندسة متباينة تحكى هندسة البلاد التى يقطنها الحيوان الذى فيها ، فمثلا أقيم بيت النعام وفصائله على نمط مصرى قديم ، والظباء والابل على نمط عربى صميم ، والفيلة على نمط هندى يحكى (الباجودا) والطيور طويلة الأرجل على نمط يابانى وهكذا ، وبالحديقة من المقاهى وجواسق الموسيقى الشئ الكثير ، على أن حديقة القاهرة تفوقها تنسيقاً واتساعا ، فحديقتنا إذن أجمل حدائق الدنيا جميعاً .

وبجانب الحديقة قسم للأسماك (أكواريوم) يقال إنه أكبر ما وجد فى الدنيا وهو ثلاثة أجزاء فى الدور الأرضى تعرض الأسماك على اختلاف فصائلها بما فيها الأصداف عجيبة الألوان والأشكال من كافة بحار العالم ، وفى الدور الثانى : (Terrarium) ، ويشمل فصائل الحيوان الذى يشترك بين البحر والبر ، وغالبه من الضفادع والسلاحف والأفاعى ، وفى الدور الثالث دار الحشرات Insectarium واسترعى نظرى به عنكبوت أكبر من راحة اليد مبسوطة ، وآخر ذو أهداب غزيرة كالشعر ، وثعبان كأنه البساط الجميل النقش قطره قدم وهو بالغ الطول ، جئ به من الأمزون .

وبجانب الحديقة حظيرة بها ألف تمساح فى مختلف الأحجام والأعمار ،

وبجانبها بعض السلاحف الكبيرة ، وكان بعض السيدات يمتطينها وتمشى بهن مسافات طويلة .

ومن المتاحف القيمة متحف الشعوب . ويحوى مجموعة نادرة المثال من مخلفات سكان آسيا بين تماثيل وحوائط وأسلحة وأنسجة فى الطابق الأسفل تعلوه معروضات أمريكا الوسطى والشمالية والجنوبية ، ومن بينها مخلفات مدنية الأزاتقة والأنكا ، وفى الطابق الثالث مجموعة قيمة من إفريقة (الشمال والوسط والغرب والجنوب كل على حدة) ثم أوشبانيا ، وأعجبتنى كثيراً مخلفات ميكرونيزيا وبخاصة نظام المساكن وهندستها ونظافتها ، وكذلك دقة الأنسجة من الألياف النباتية ، وجدائل الخوص فى تأنق عجيب ، وهو الوحيد من نوعه فى العالم ، ويقوم فى بناء فخم للغاية .

ومن الأشياء الجديرة بالزيارة برج برلين على نمط برج أيفل ، لكنه أصغر قليلا ، أقيم من الحديد ، وله سلم ومصعد كهربائى يعلو إلى ١٢٠ متراً فيرى منظر المدينة وضواحيها فى تخطيط هندسى جذاب كأنه خريطة يدوية ، ويرى الناس كالدويبات وهو يتوسط متنزهاً ومقهى عظيم الامتداد ، يؤمه خلق كثير لسماع الموسيقى الشجية ، والحى كله حديث طرقه فسيحة مبعثرة المبانى نادرة السكان .

مسجد برلين : فى ناحية من شارع فخم اسمه : (هوهنزلرن) يتوسطه متنزه جميل على طول امتداده ، والمسجد فى هندسة مغولية كأنه تاج محل مكون من قبة كبيرة حولها القبات الصغيرة ، وأمامها مئذنتان دقيقتان جداً ، وبجواره منزل صغير جميل للأمام (عبد الله) وتعلق عليه لوحة لنشر الاعلانات والمنشورات الدينية بامضاء الامام وتتوجها البسملة باللغة العربية والباقى بالالمانية أقامته جمعية



(شكل ٦٣) قصر سانسوسى فى بتسدام بألمانيا

نشر الاسلام الهندية با كتتاب ٩٠٪ منه من الهنود خصوصاً أهل بنجاب ، وقد بدئ البناء سنة ١٩٢٤ لكن اضطراب سعر المارك أوقف العمل وتم سنة ١٩٢٧ وهو منقوش من الداخل نقوشاً لا بأس بها ، ولا يزال تنقصه الفرش ، و بلغت أكلافه أربعة آلاف جنيه ، والامام شاب هندى نحيف أسمر وسيم ذو لحية خفيفة سوداء براقة الشعر ، يجيد الانجليزية ، و يعرف قليلا من العربية ، و بمجهوده ومجهود سائر أعضاء الجمعية الإسلامية ببرلين — تلك التى يرأسها دكتور فى الفلسفة ألمانى الأصل — تنشر الكتب والمقالات ، وتظهر مجلة شهرية ، وتلقى المحاضرات فى المسجد . وقد اعتنق الإسلام من أهل برلين نحو الأربعين بينهم دكتوران ، ولم تساعدهم الحكومة الألمانية قط بل كانت تلزمهم دفع ضريبة على المسجد ولم يعفوا منها إلا السنة الماضية بعد جهد كبير .

يوم بوتسدام : أصبح الجو جميلا مشمساً على غير ما عودنا فى ألمانيا

إذ كان طوال إقامتى بارداً رطباً كثير الأمطار، فكان ذلك خير معين لى على الاستمتاع بضاحية پوتسدام التى تحكى فرساى فى باريس إذ كانت الموطن الأول لمنتخبى برندنبرج أولا وللملوك بروسيا آخراً ، وقد زاد صيتها عهد المنتخب الأكبر ثم بلغ الأوج عهد فردرك الأكبر ، وساعد على هذا التجميل كثرة البحيرات والجداول المتلوية التى تتفرع من مجرى (Havel) وكذلك كثرة الغابات ، والمدينة تضم الآن ٦٥ ألف نسمة سلكت فى سبيلى إليها قطار المترو من محطة (Zoo bahnhof) إلى بلدة (Vann See) ، فوصلتها فى نصف ساعة ، ومنها أقلنى زورق بخارى أخذ يجوب بى نواحى بحيرة متلوية ، ويرسو على محاطها الساحرة إلى پوتسدام التى وصلتها فى ساعة وربع فكانت هذه رحلة مائية غاية فى الابداع ، وهنا سرت إلى القصر الأول فبدا عظيم الامتداد تخرج منه الأبهاء ذوات العمد الرائعة يتقدمه ميدان فسيح يؤدى إلى غابة كبيرة ، وخير حجراته غرفة المطالعة لفردريك الأكبر وبها كثير من مخطوطاته ، وإذا أغلق الباب والنوافذ لا يكاد يتعرفها من يكون فى داخلها لتشابه نقوشها من الداخل ، وحجرة فردريك وليم الثالث وزوجته لويز ، ثم حجرة البرنز البراقة .

أدى بى السير إلى متنزه سانسوسى ذائع الصيت ومعناه (بغير سأم) ، وأنى لى أن أصف ما حوى من آيات التنسيق فى ازهور وبدائع الفن فى الأنصاب والنافورات وإتقان الذوق فى المقاصير وليات الطرق تحفها التماثيل وإبداع تشذيب الشجر . بدت عند للدخل مسلتان صغيرتان يؤدى الطريق داخلهما الى سانسوسى الذى يشرف على متنزه أنيق يؤدى إلى نافورة كبيرة تغص بالسمك الأحمر . ثم إلى مدرجات ستة يعلو الواحد منها الآخر بثلاثة وعشرين سلماً حولها من عيون الماء وبواسق الشجر وأكمام الزهر ما يعجز عن وصفه البيان ، والقصر

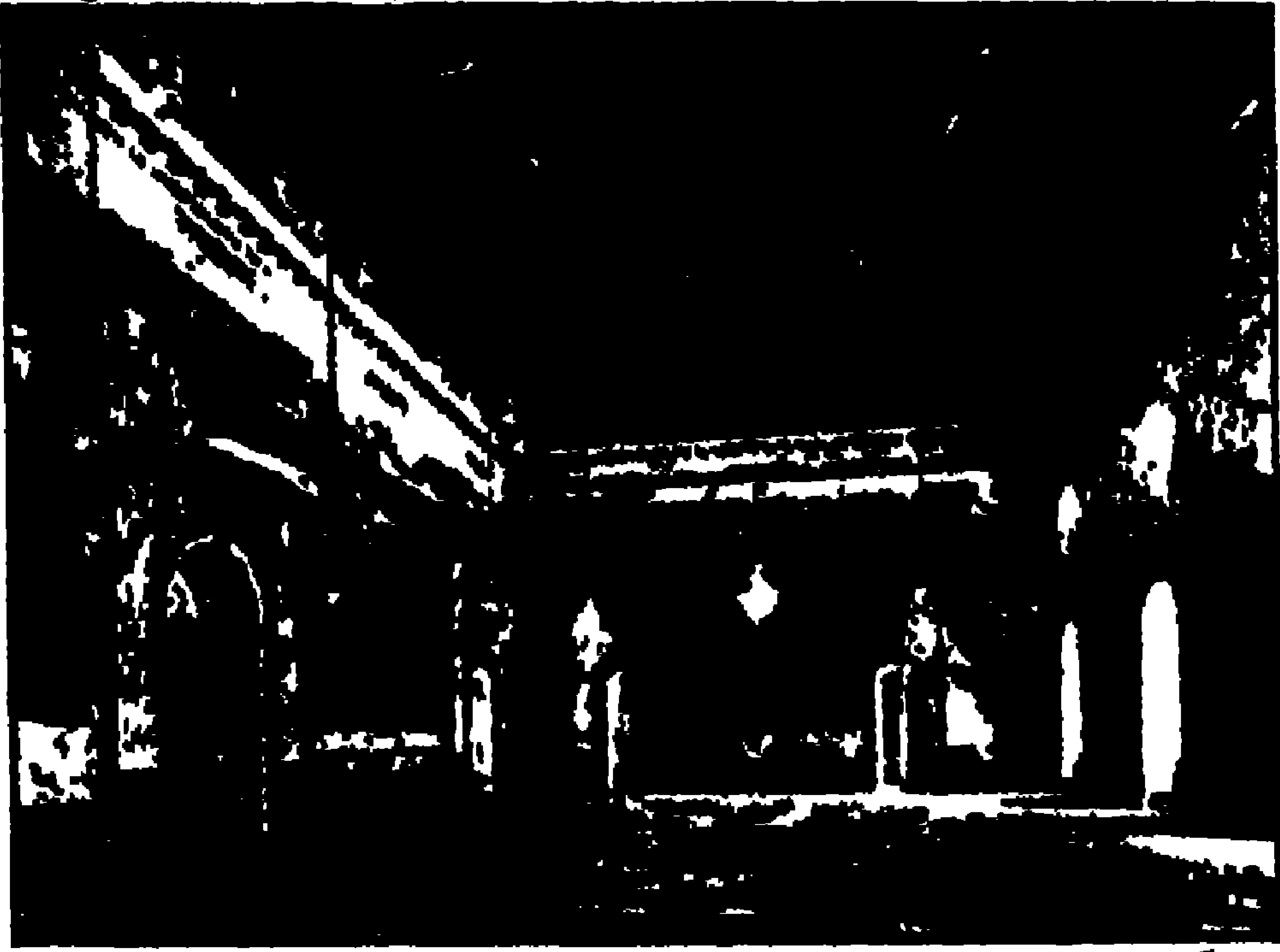


(شكل ٦٤) مكتب فردرك الأكبر بقصر سانسوسى

من طابق واحد أجمل حجراته غرفة فلتير صديق فردريك الأكبر الذى دعاه للإقامة عنده ، وهى بخرط الخشب فى أشكال مختلفة من حيوان ونبات ، وبهو الطعام الأهليلجى الذى عقدت به وليمة المائدة المستديرة الشهيرة بدعوة من فردريك الأكبر ، ثم حجرات فردريك نفسه وسريره الذى مات فيه ، وبجانبه ساعته التى كان يملأها بنفسه والتى وقفت ساعة وفاته تماماً ، وكانت الثانية والدقيقة العشرين من صباح ١٧ أغسطس سنة ١٧٨٦ ، وبالقصر مكتبته قيمة التى تحوى مجموعة قيمة من مؤلفات عالبها فرنسية .

وفى الثلث الثانى من الطريق الرئيسى القصر الثانى المسمى (أورانجرى) لكثرة أشجار البرتقال من حوله ، وقد بنى على نمط هولندى ، وهو أقل فخامة من الأول ، و بجانبه ترى أطلال الخزانات التى كانت تسقى المكان كله ؛ والطاحونة الهوائية التاريخية التى كانت لفقير أبى أن يبيعها لفردريك رغم توعده إياه مخافة أن تشوه من منظر قصوره ، لكن الرجل رفض ذلك قائلاً : لن يقع حيف ما دام فى برلين قضاة ، فأعجب به وتركها له ، و بعد هذه بقليل هيكل قديم على شكل قبة البانثيون ، ودفنت به رفات القيصرة الأخيرة زوج غليوم فى تابوت من الرخام ، وقرب آخر الطريق القصر الحديث وهو مستطيل تتوسطه قبة عظيمة وتتقدمه حديقة أبدع تنسيقها تزينها التماثيل ، بناه فردريك الأكبر سنة ١٧٦٣ لإظهار عظمة بروسيا بعد حرب السنين السبع ، وكان يستخدمه لإقامة الحفلات الرسمية ، واتخذه غليوم مصطافاً له و به ٢٠٠ غرفة ، ومسرح للتمثيل يتسع فناؤه لخمسمائة نفس ، وأهم حجراته ردهة للمرمر بديعة النقش ، والمدخل الذى ترصف جدرانه جيعها بالأصداف الثمينة فى أشكال مدهشة ، وحجرة الموسيقى ، وقد حفرت آلات الطرب على جدرانها بالذهب ، وكان فردريك ولوعاً (بالفلوت) . وكذلك الحجرات التى كانت خاصة بغليوم نقشت بالفضة والذهب الخالص ، والقصر فى نقشه الداخلى يفوق جميع ما شاهدته حتى فى فرساى نفسها ، ويدفن فردريك الأكبر وأبوه فى كنيسة سانسوسى تظلهما أعلام النصر التى غنموها فى حروبهم .

رغبت فى أن أطلع على بعض ملاهى القوم فزرت (Haus Watterland) فى (پوتسدام بلاتس) ليلاً ، فإذا به جنة نادرة ، فمن ثريات الأنوار تصف فى أشكال تبهر النظر إلى طلاء ونقوش فوق الجدران فى إبداع دونه أى إبداع ، والمكان مقسم إلى ابهاء عدة كل بهو على نمط خاص فى هندسته ونقوشه وأثاثه



(شكل ٦٥) ردهة الودع والمرمر بالقصر الحدث فى بتسدام

وأهله ، فمثلاً ترى جزءاً من بلاد الرين بجبالها وقصورها وغاباتها تضاء ويبدو القمر والنجوم فى سمائها ثم يظلم الجو تدريجاً وينذر بعاصفة لا تلبث أن تثور ، فتبرق السماء وترعد ، ويثقل السحاب وينزل مطره وابلاً ثم تنقشع العاصفة ويعود الصفاء ، وثم بهو تركى ترى جدرانه بخرط الخشب العربى وللصابيح من النحاس المثقب والمقاعد الخشبية العريضة وهو يطل على البسفور . وتبدو اسطنبول بمبانيها وأنوارها ومآذنها ، وآخر يمثل كولمبيا تسمع فيها موسيقاها وترى مراقصها ، ورابع اغريقى ، وترص وسط تلك الابهاء مناضد يجلس عليها الزوار ليتناولوا ما لذ لهم من طعام وشراب يقدم إليهم فى آنية البلاد نفسها ، وبأيدى طائفة من الخدم يلبسون أردية البقاع التى يمثلونها .

وعلى أثر عودتى من دنمركه قمت من كوبنهاجن إلى همبرج (سافرت بقطار ١٠ صباحاً فوصلتها ٩ مساء) وتعددت وسائل النقل بين قاطرات وسابحات عدة

مرات ، ومررنا على مدينة لوبك على البلطيق وتحكي بندراً من بنادرنا ، أما همبرج فبلدة ضخمة المباني ممتدة الطرق نظيفتها يدخل البحر إليها بالسن ، متعددة الشعاب تعبرها القناطر الجميلة ، وأضخم مبانيها دار البلدية (راتهوس) شيدت من الصخر الرملي المزركش في هندسة النهضة الألمانية ، وأقدم أحياء المدينة ترجع إلى سنة ٨٠٠ حين بدأها شارلمان وطرقه مختنقة لكنها نظيفة شأن جميع البلاد الألمانية ، أما الميناء فعظيم الحركة مشعب الفروع يصب عنده نهر الألب وهو الشريان التجاري لألمانيا وفيما عدا عظمة مبانيها وضوضائها وامتداد طرقها لا يلذ للمرء المقام بها خصوصاً وأن المعيشة بها غالية لا تطاق ، فمستواها أعلى منه في أية بلدة ألمانية أخرى .

كولوني : بعد انتهاء زيارتي لهولندة آثرت أن أسلك سبيلي إلى أعالي الرين ، فقمت من روتردام بقطار الثانية مساء ، ووصلت كولوني الثامنة مساء ويسميها القوم (Köln) بإمالة الكاف ، بلدة تاريخية عتيقة يرجع عهدها إلى زمن نيرون الروماني ، وإن لم يبق للرومان هناك من أثر إلا الاسم وهو محرف عن (Colony) أي مستعمرة ، وهي اليوم ثالثة مدن ألمانيا بعد برلين وهمبرج ، وعدد سكانها يناهز ثلاثة أرباع المليون ٧٦ ./. منهم من الكاثوليك ، ولذلك ليس بعجيب أن ترى بها نحو مائة كنيسة كاثوليكية ، وفي مقدمتها كنيسة (Dom) ذائعة الصيت . وتقام في هندسة قوطية تبهر النظر لمجرد رؤيتها ، وأذكر أني وقفت أمامها صامتاً ذاهلا من عظمة ما رأيت من آيات الحفر والنقش ، وكفى أنها استغرقت أربعين عاماً حتى تم بناؤها ووضع الحجر الأساسي سنة ١٢٤٧ ، وعلو برجيها ٥١٨ قدماً وبكل برج سبعة أجراس زنة أكبرها ٢٧ طناً ، ويتسع فناؤها لأربعة وعشرين ألفاً ، وتعد من معجزات فن العمارة القوطي في العالم أجمع .


(شكل ٦٦) واجهة كنيسة الدوم فى كولونى

وهى وحدها تبرر زيارة المدينة من أقصى الأرض يواجهها المرء لمجرد خروجه من المحطة الرئيسية فتعطى عن المدينة فكرة رائعة ، وبالمدينة عدد كبير من الكنائس الفخمة فى هندسة الرومانسيك الألمانية البحتة ، وهناك عدد كبير من المتاحف أشهرها الجالارى ، وغالب طرقها عظيمة الامتداد غاصة بالحركة ، وكانت الأحياء القديمة تحاط بسور كالهلال تتخلله بوابات تحكى باب النصر عندنا ولا تزال لها اليوم بقية ، والرين هناك عظيم الاتساع تعبره القناطر الفخمة ، ومن بينها أكبر قنطرة معلقة فى أوروبا جميعها ، وجزء من النهر كبير أعد بالأهوسة والروافع فأضحى مرفأ تجارياً عظيما . والجامعة تشرف على النهر وينتسب إليها ستة آلاف طالب ، وقد طغى الرين على المدينة سنة ١٩٢٦ فأغرق كثيراً منها ، ولعل أجمل جهاتها القديمة سوق الخضر الفسيح كثير الضوضاء وعظيم الحركة . وبالمدينة شارع خاص بالبنوك وآخر برجال القانون .

هذا وان انحلال الأخلاق الذى أعقب الحرب الكبرى ولم تنج منه دولة أوروبية ليبدو جلياً فى ألمانيا وبخاصة فى كولونى . ويظهر أن الحالة زادت سوءاً بسبب الاحتلال الأجنبى إلى السنة الماضية ، فالنساء هناك متبذلات إلى حد

مخجل لا يتورعن أن يمسكن بتلابيب المارة فى غير حياء ، وعجيب أن تجمع ألمانيا بين النقيضين عظمة العمل وتدهور الخلق هكذا ، ولذلك ليس بعجيب أن نرى عقلاء القوم ناقمين على الحالة السياسية الحاضرة ، ويرون أن عصر الجمهورية أسوأ حالاً من سالفه ، إذ سهل للناس سبل الفساد ، ومهد لتلك الإباحة الممقوتة . فكان الانحلال الخلقى ، لذلك فهم يتوقون لرجوع الأمبراطورية ، أما حالة القوم فشديدة تبدو فى كثرة المتسولين والفقراء ، وهم يجرون وراء كسب عيشهم فى كد ونصب فاق كل حد .

ومن ضواحى المدينة الجديرة بالزيارة (Bonn) التى وصلتها بالترام فى ساعة ، سكانها تسعون ألفاً من بينهم كثير من طلاب العلم الأجانب ، ينتسبون لجامعتها ، وهى أشبه ببلاد المصايف لكثرة متنزهاتها وتلالها ، ومناظرها الرائعة ، وقد دفعنى لزيارتها أنها مسقط رأس للموسيقى الذائع الصيت (بيتهوفن) وقد زرت بيته الصغير وبجانبه متحف لمخلفاته ، ووسط ميدانها يقوم تمثاله ، ومن خلف المدينة سبعة تلال ذات مناظر ساحرة ، وفى ظنى أنها سر إظهار عبقرية هذا الفن العظيم .

الى ميونيخ : قمت من كولونى التاسعة صباحاً ، فوصلت ميونخ التاسعة والنصف مساء أى بعد نحو ١٢½ ساعة ، وكان الطريق الحديدى بجانب الرين الذى كان يتلوى يمنة ويسرة ، ومن حوله الربى الجبلية تكسوها الخضرة وترصف جدرانه كلها وتمخر عبابه بواخر لا حصر لها ، وفوق التلال ترى قلاع القرون الوسطى بأبراجها ، وكنا نرى طريقاً حديدياً آخر على حافة النهر الأخرى ، ثم مررنا بمدينة كوبلنز حيث عبرنا الموزل فرع الرين ، والمدينة حصن منيع ومزار جميل يقع عند ملتقى النهرين . وكانت التلال تكسى بالكروم تقام عيداناً منفردة قصيرة على عصى . ومن ثم كانت المنطقة غنية بالنبيذ ، و بعدها زادت



(شكل ٦٧)
بتهوفن إمام الموسيقى ومسكنه الصغير

منعطفات النهر ، وكان يرى بعضها فى زاوية قائمة وفعل القرض والارساب واضح جلى فى الجروف المائرة وما يقابلها من ضعاف مدرجة ، وتتوسطه مجاميع الجزائر ، وكان القطار بين حين وآخر يخترق أنفاقاً ومغاوز جبلية ، وعند مدينة (Rinegen) قبيل ماينز اختفت الجبال وانفسحت السهول الزراعيــة . ثم جزنا ماينز ثم منهيم ذات المصانع العديدة للكيماويات ، ثم عبرنا النهر إلى الضفة الأخرى ، و بعدها بدت هيدلبرج التاريخية ذات الجامعة الكبيرة ، والقلعة التى تشرف عليها من تلال حولها . ثم قاربنا ستتجرت ذات المناظر الخلابة إذ تقع فى وهدة تقوم حولها المرتفعات بزراعاتها وغاباتها وعليها القلاات البديعة . وعند مدينة (Ulm) بدا منحدر وعر تسلقه القطار بعد أن زود بقاطرتين ، وظل يصعد والحرارة تهبط هبوطاً محسوساً والغابات تزيد كثافة ، وسرنا طويلاً فوق هضبة منزرعة و بعدها أخذنا فى الهبوط ، و بعد ذلك عبرنا الطونة إلى أوجزبرج ومنها إلى ميونخ .

ميونخ : ويسميها القوم منشن عاصمة ضخمة حقاً تليق بمملكة عظيمة

مثل باڤاريا فهى كسائر المدن الألمانية الكبرى ذات مبان شامخة وطرق ممدودة كنائسها عديدة وغالبها للكاثوليك ، والقوم هنا متمسكون بالدين ، حتى انك لترى فى بعض الأزقة تماثيل المسيح وهو مصلوب ، ولذلك قل تهتك النساء بشكل محسوس .

ومن أجمل مبانيها الراتهوس فى هندسة قوطية فاخرة ، ودار العدل فى هندسة ألمانية ضخمة . والقصر الزجاجى عظيم الامتداد يقام كله من البلور يشغله اليوم متحف التصوير ثم القصر الملكى فى هندسة (الباروك) حوله الحدائق وأبهاء الأعمدة ، وتنتهى حديقته بقصر أعد للمتحف الحربى ، وأمامه فى وهدة قبر الجندى المجهول ، وحوله مدافن أبناء باڤاريا الذين ذهبوا ضحية الحرب الكبرى ثم دار المتحفين الفنيين القديم والحديث فى هندسة اغريقية تحكى البانتيون ، وعلى ربوة أقيم تمثال باڤاريا الشهير ، وتمثلها سيدة ترفع اكليلا بيدها اليسرى وتتكئ على أسد باليمنى ، وعلو قاعدة التمثال ٦٥ سلماً وجوف السيدة ستون .

ويشق نهر (إيزر) المدينة فى ليات مستملحة ، وتعبره قناطر عدة ، ولون مائه ضارب إلى الخضرة تشوبها زرقة كعادة الأنهار التى تستمد ماءها من الثلاجات ، ولعل أهم مافى المدينة :

المتحف الألمانى (Deuschc M.) : الذى يعد الوحيد من نوعه فى الدنيا ، وهو وحده خير مبرر لزيارة المدينة ، وإليك مثلا مما به : نماذج بالجص لبراكين العالم ومن بينها فيزوف ، وتغضن القشرة الأرضية ، وحفريات لكائنات بائدة وشهب سماوية ، ومن بينها شهاب زنته ٩٠٩ كيلو جرام ، ثم نماذج كاملة لجميع أنواع المناجم مالاتها وع.ف وسراديبها التى قدت فى عدة طوابق تحت

الأرض آلاف الأمتار ، وترى تماثيل العمال فى مختلف حركاتهم وأدوار أعمالهم ، وأجلها مناجم الفحم والملح ، ثم قسم للآلات التى يديرها الهواء والماء بحجمها الطبيعى ، وفى أطوارها المختلفة ويمكن ادارتها بسهولة ، ثم معروضات لجميع وسائل النقل منذ نشأتها من عربات ودراجات وسيارات وسكك حديدية وسفن وطيارات وغواصات منذ اختراعها إلى أحدث طراز منها والكل يمكن تحريكه ، وهالنى منظر سفينة كبيرة مقامة فى



(شكل ٦٨)
فى حديقة المتحف الألمانى بميونخ وترى إحدى مطاحن الهواء الكبيرة

صاب البناء نفسه بآلاتها وفرشها وأدواتها وكافة تفاصيلها ، كذلك معدات الثغور والفنارات والمطارات والأسلحة والقناطر ثم الساعات ونطورها ، وكذلك آلات الموسيقى والراديو والأشعة والأجهزة الهندسية والمترليوجية . وفى الحديقة الخارجيــة طواحين وروافع وإشارات السكك الحديدية وأكشاكها وقضبانها وتحاويلها وغير ذلك مما لم أستطع اتمام استعراضه . فالمكان يتطلب درسه وتفقده شهوراً . مكان إذا دخله الزائر آمن بعظمة الأدمغة الألمانية وجبروت عقولهم . فهو كفيل بأن يرفع رأس تلك الأمة رغم ما منيت به من هزيمة فى الحرب الكبرى .

وكان يحيط بالمدينة سور قديم لا تزال ترى بقاياه و بواباته . و بالمدينة جامعة



(شكل ٦٩) دار الجعة فى مدينتها الألمانية القديمة بميونخ

للطلاب كبيرة ، ومما تجب زيارته فى المدينة دار الجعة أكبر مواطن البيرة وأقدمها فى العالم ، والجعة من أكبر صادرات بافاريا ، فبناؤها القديم يتألف من أربعة طوابق فى أبهاء متسعة ، وأقبية سقفها مزركشة وتقام على عمد ضخمة ، دخلت المكان فدهشت لما رأيت من الجماهير الغفيرة من أبناء الشعب البافارى ، كل فرد بيده جرة من الصلصال تسع نحو لترين يتناولها من دولاب ثم يقدمها لحارس الجعة يملأها له فيحتسيها ، ويعبد السكرة مثنى وثلاث ورباع ، وترى البعض يحتسيها واقفاً بجانب برميل كبير من الجعة يصع كأسه عليه ويغلب أن ترى ذلك فى الدور الأسفل وغالب من به من العامة ، أما الأدوار العليا فللطبقة الممتازة وفيها تجد المقاعد والمناضد من خشب ضخم منقوش ، والمصابيح تتدلى فى شكل دوائر متسعة ومزدوجة الثريات . وضوضاء المكان لا تخبو لحظة واحدة ، هنا حقاً يأخذ المرء فكرة صادقة عن الشعب البافارى ومبلغ غرامه بالجعة وميله

للمرح ، وكم كنت مغتبطاً وأنا جالس وسط القوم وأمامى الجرة التى لم أستطع أن آتى على ثلثها بينما كان بعض الأطفال يتناولها فى لمح البصر ، خرجت من المكان إلى ملهى أمامه اسمه (Platz) عرض به أشباه ما نراه عند الكسار فى مصر . وغالبه تمثيل للحياة الريفية الألمانية من عادات وأزياء ورقص وموسيقى . فكان يومى هذا مما روح عن نفسى وراقنى كثيراً .

هولنـــــدة

بلاد السلام

دخلنا أرض هولندة وافدين من سهول شمال غرب ألمانيا ، فلم نحس الفرق ن المناظر المنبسطة تتخللها المطاحن الهوائية ، وكانت السهول الوطيئة تمتـد إلى لآفاق ، فبررت أمامنا تسمية البلاد بهولنـــدة أى الأرض الجوفاء الوطيئة Hollow Land) على أن تربة البلاد بدت كثيرة الأتربة التى ضايقتنا فى لقطار ، فكنا وكأننا نسافر فى صعيد مصر ، وطرقها الزراعية رديئة متربة والمروج نص بالبقر الأحمر والأسود تزينه البقع البيضاء ، والمبانى بالآجر مختلف ألوانه ، على بقليل من الحجر الأبيض ، ولا تخلو السهول من الشجر المتناثر ، وبعض لجهات رملى التربة كأنه من صحارى مصر ، وعجيب أن يحاول القوم الاستفادة نها بزرعها ، وكان الصبية يمرون فى جميع المحاط حاملين كؤوس القهوة مجهزة مما شعر بحب القوم لها ويبرر ما نعلم من أن الهولندى أكبر مستهلك للبن فى العالم .

امستردام : ما أجلها هى حقاً تفوق البندقية خفة وروعة ، وخير دليل على ذلك أن ما يشقها من قنوات سبعون ، وما يعبرها من قناطر أربعمائة تطوقها سلاسل من المياه فى حلقات تبلغ نحو العشر عداً الواحدة خارج الأخرى ، وكل ولئك تقطعها قنوات مستعرضة تتجه نحو المركز ، فأينما سرت ألفيت البيوت تقوم غام ضفاف القنوات يرطمها موجها الهادئ ، وقد وقفت على قنطرة فكنت أرى ن حولى قاب ثلاثة أمتار ثمانى قناطر ذات اليمين وذات الشمال ومن أمام ومن



(شكل ٧٠) امستردام : قنواتها تجانب المساكن والزوارق مطيتهم الرئيسية

الضحل والبعض صناعى حفر ليزيد المكانة التجارية للمدينة أيام لم يكن ينافسها غيرها فى القرون الوسطى ، ويخترقها نهر عظيم الاتساع اسمه (Amstel) كان قد أقيم عند مصبه سد بنيت على جوانبه بيوت المدينة عند نشأتها ، ومن ثم حملت اسمها هـذا ومعناه (سد أمستل) وتتشعب منه عدة قنوات قرب مصبه وقلب تلك القنوات يمثل المدينة القديمة الذى يرجع عهد بنائها إلى القرن العاشر . وخلال الحروب الاسبانية فى القرن السادس عشر فر إليها كثير من رجال الفن والتجار والصناع فزادوا المدينـة شهرة وذاع صيتها بعد تأسيس شركة الهند الهولندية سنة ١٦٠٢ ، طرقها مختنقة قد لا يسع بعضها مرور شخصين متجاورين ولا يكاد يصيبها شعاع من الشمس ، وهنـدسة البيوت متشابهة فهى من الآجر الملون واجهاتهـا مسننة وفى بعض الحلية البسيطة والطرق نظيفة ، ويغلب ألا يكون لها إطار وإن كان فواطئ لكى تعلوه العربات عنـد الضرورة . وميه القنوات يكاد يلمس باليد من الطرق ، والمدينة تعد الميناء الثانيـة لهولندا بعد روتردام .

وعجيب أن تقام كلها على مجموعة من عمد قد يبلغ الواحد عشرين متراً غرست في الرمال والأوحال ، ومن المدهش أن تبقى بيوتها قائمة دون أن تنهار وإن ظهر في بعضها ميل مخيف ، ويظن أن الأعمدة قد تحجرت اليوم وزادت صلابتها من أثر الماء والطين ، وأكبر ميادين المدينة : ميدان دام ، وعليه القصر الملكي الذي يقام على ١٤ ألف من الأعمدة السالفة الذكر بني سنة ١٦٤٨ عقب انتهاء حرب الثلاثين عاماً على أنقاض الراتهوس ، واتخذه لويس نابليون أخو نابليون الأكبر قصراً له عندما نصب ملكاً على هولندا ، وفي واجهته مائة نافذة متشابهة تطل على الميدان .

ولقد مررت بدار شركتي الهند الشرقية والغربية الهولندية وهما من الأبنية القديمة وبعض البيوت التي كان يميزها القوم بقطعة حجر يحفر عليها رمز كل عائلة وكانت تقوم مقام أرقام البيوت الآن ، ومن بينها بيت نوافذه من زجاج إذا نظرت خلاله إلى داخل الحجرات بدت الألوان بنفسجية ، وإذا نظرت منه إلى الخارج بدت الألوان بيضاء ، وتلك مهارة كانت للقوم في صنع الزجاج قديماً ، وثم حي لليهود الذين يبلغون ٧٤ ألفاً عاص بالحركة ، وفيه بيت النابغة المفن الذائع الصيت (رامبرانت) الذي أنجبته امستردام ، فأهدى العالم من آيات فنه درراً غاليات لا تزال تزين متاحف أوروبا جميعاً ، وفي داخل منزله مجموعة قيمة منها ، ولم يبق به من مجموع صوره البالغة نحو خمسمائة وخمسين سوى ثلاثين ، وتمتاز صوره بما يبدو فيها من روح قوى ، وأضواء ذهبية تبدو لك وكأنها وهج لنيران تضطرم من ورائها ، ولقد أقام القوم له تمثالاً وسط ميدان توج باسمه ، ودفنت رفاته في كنيسة الغرب الشهيرة التي يشرف برجها على المدينة كلها ، ويقال إن لحال المنظر في هذا الحي أثراً في إظهار عبقريته هو وفيلسوف امستردام النابه



(شكل ٧١)   سدود هولندا التي تدفع غائلة البحر عنهم

(سبنوزا) وقد مررنا على داره التي ألصق القوم ببابها (نظارته) التي كان يستخدمها عند القراءة والكتابة .

وتمتـد أحياء المدينة الحديثة في الخارج في شوارع فسيحة ، ومتنزهات منسقة و بيوت صخمة ، ومن بينها الملعب (Stadium) و يسع أر بعين ألف نفس ، وغريب أن تقوم تلك الأبنية الضخمة فوق تربة البلد الرملية الهشة ، ومما زرناه دار فبريكة الماس ، وتقام بالآجر الأصفر البراق في امتـداد عظيم ، وهي أقدم معامل قطع المـاس في الدنيا ، وكذلك أكبرها . ولا يزال يشتغل بها ثمـانية آلاف عامل ، ولقد كان جو البلاد حاراً مشمساً على غير انتظار ، وكانت مضايقة القوم بادية على وجوههم المقطبة التي تتصبب عرقاً ، وتلك هي الموجة الحرارية التي مرت على غرب أوروبا عندئذ فمـات بسببها الـكثير خصوصاً في انجلترا . أما عندي فكانت تحكي أيام مصر القائظة في الصيف ، وكان أفراد الجنس الأسود والصيني يجوبون الطرق بكثرة ، وقد وفدوا من مستعمراتهم في جزائر الهند الشرقية

فلذرس ، وكأنى كنت أحس أن وجودهم بتلك الكثرة مما يبرر ذاك الجو القائظ الغريب .

قنا من امستردام صوب لاهاى بقطار كهربائى يسافر مرة كل نصف ساعة فمررنا بهارلم وليدن ، ثم دخلنا لاهاى بعد ساعة كاملة ، أما المناظر فكانت مصرية بحتة بحقولها المبسوطة السندسية وقنواتها العديدة وشجرها المتناثر مع استثناء مطاحن الهواء المنتثرة ، وفى الحق أن الشعب الهولندى نشيط بحد كفاه فخراً أن استنبت أرضه الرملية المقفرة وغالب البحر وهو لا يزال يرده عن بحر زويدرزى ، وهم يفاخرون أنهم مدوا نصف بلادهم على حساب البحر ، وفى أمثالهم المشهورة (إن الله خلق لهم البحر وهم أعدوا له شواطئه) ولا يزال يغير البحر عليهم أحياناً برشحه الكثير ، وقد يهدم الجسور التى يقيمونها لصده ، ففى أخريات القرن الثالث عشر اجتاح ألف قرية كانت على أراضى زويدرزى فى يوم واحد وبعض جسورهم تعلو سطح الماء بأربعين قدماً ، والأراضى التى أصلحت داخلها قد تكون دون مستوى البحر بهذا القدر ، فلو كسرت الجسور لغرق من بلادهم ٣٨ ٪ مرتين فى اليوم أى عند علو المد ، وتقام تلك الجسور فى البحر من الرمل والأتربة ترصف جوانبها بالعشب والخشب وقد تدك بالحجر ، ثم تجفف الأرض من داخلها بمضخات يديرها الهواء ، ثم تزرع كتاناً لتخف أملاحها ثم يزرع بها البطاطس والشجر والأعشاب للرعى ، وقد تتعدد تلك الجسور بعضها أمام بعض . ومسحات المرعى أهم ما فى البلاد من لحوم وألبان ، ولذلك شهرت بالجبن الفلمنك الأحمر الذى تعقد له أسواق خاصة ترى بها أكاديس الكرات إلى مد البصر ، وكثيراً ما يتهكم الناس على هولندا فيسمونها (بقال أوروبا) ، وأنت ترى القنوات أينما سرت فى بلادهم وبعضها كبير يصلها بالمحيط والبعض صغير للنقل



(شكل ٧٢) الحب فى هولندا يغرس فى كرات حمراء تكاد تكسو الأرض

الداخلى زهيد الأجر ولمقاومة فيض الأنهار ، خصوصاً وأن الطرق البرية عندهم واهنة لا تحتمل ضغطاً كبيراً ، ولذلك قلما تسمع فى الشوارع ضوضاء النقل وجلبة العربات ، فالبلاد ساكنة الحركة ، والقنوات عاصة بالزوارق (الصنادل) يجر بعضها الناس والخيول وغالبها الآن بالبنزين وهى تتخذ مساكن للكثير منهم حتى قيل إن من يقطنون الزوارق مائة ألف ، ولعل فى بطء سير تلك الوسائل مبرراً لما هو معروف عن الهولندى من البطء فى كل شىء فى التفكير وفى العمل ، وفى الكلام بل وفى جميع تصرفاته فهو يختص كل ساعة من زمنه بعمل لكنه يسير فى انجازه ببطء ممل .

والهولندى سىء الظن بالغير شحيح فى معاملاته المالية ومساوماته ، ولذلك كان أبطأ من غيره فى المغامرة فى المشروعات الاقتصادية ، و يؤخذ عليه سىء من قلة الذوق فى الحديث فهو صادق صريح لكن لحد الايلام رذيلته الواضحة ادمانه المسكرات ، أما نظافة مسكنه فخيالية رغم إهماله فى نظافة هندامه حتى

أنك لتعاف النظر إلى بعض المارة فاذا ما دخلت منزل أحدهم هالك بريق جوانبه ولمعان أثاثه وشدة التأنق فى تنسيقه إلى حد المضايقة ، و يروقك هندام القوم العجيب ، فالرجال يلبسون شبه (سروال) فضفاض ينتهى عند المرقو بين وجَمَّازة (جاكته) محبوكة على الجسم ومنديلا معقوداً حول الرقبة وتتدلى منه ذؤابة على الصدر (كالكشافة) ، أما النساء فيرتدين على الرأس قلنسوة بيضاء ذات جناحين جانبيين مشرفين وجلابيب محبوكة طويلة تنتفخ من أسفلها وتلبس عليها (فوطة) ألوانها زاهية وأحذية الجميع من خشب تحكى (مركوب فلاحى مصر) طرفها مقوس إلى أعلى ويقال إنها أطول أحذية فى العالم ، وأحب وسائل الرياضة لديهم السباحة وقيادة الزوارق . وكذلك ركوب الدراجات التى أضحت مطيتهم المحبوبة فى انتقالاتهم حتى بين القرى ، ولقد بلغ عدد الدراجات فى امستردام نصف المليون مع أن مجموع سكانها سبعمائة ألف .

وكان يجتذب أنظارنا فى بعض الحقول عنايتهم بفلاحة البساتين وتربية الزهور التى كانت تبدو أمامنا وهى تكسو الأراضى فى صفوف متوازية إلى مد البصر ، وفى ألوان حذابة كأنها الطنافس الزاهية وذلك يدل على مبلغ غرامهم باقتناء الزهور .

لاهاى : ويسمونها هيج بأمالة الماء وهى محرفة عن (Hedge) أو السياج ذلك لأن أول من حلها من الكونتات أقام له قصراً وأحاطه بسياج وهى مدينة نظيفة جداً لكنها موحدة المناظر تحكى أحياء مصر الجديدة عندنا فى ازدحام مبانيها ذات الهندسة المتشابهة وبها مجموعة من الشوارع المتسعة يتوسطها صفان من الشجر على أن امستردام فى نظرى أخف روحاً وأوفر جمالاً وخير ما رأيت فيها :

قصر السلام :

(Palace of Peace)



(شكل ٧٣)
أهم ما فى أرديتهم غطاء الرأس للسيدات والأحذية الخشبية بالغة الحجم

وهندسته هولندية بحتة ويبنى بالآجر وهو من الداخل فاخر الزخرف فخم البناء إلى حد كبير تبرع لبنائه الممول الأمريكى (كارنيجى) بمليون ونصف مليون ريال وقد أهدت إليه غالب الدول ما فيه من أثاث نذكر على سبيل المثال : المدخل الخارجى بأسواره ، وقد أهدته ألمانيا ، والمدخل الثانى قدمته بلجيكا ، والرخام والمرمر المزركش تقدمة من إيطاليا . والمصابيح الفاخرة من النمسا . وبعض الجرار (فاز) من المجر . وزجاج النوافذ الملون (كالمساجد) من انجلترا ، والصور الزيتية الكبيرة التى تحلى بها الجدران من فرنسا ، والفوارة التى تتوسط فناءه من دنمركة ، وتمثال قيم للمسيح من أرجنتينا ، وآخر للحرية من بعض مقاطعات الولايات المتحدة . والبساط الكبير الذى يملأ حجرة المؤتمر من تركيا والحرير الذى تبطن به بعض الجدران من اليابان ، والمحار القصة النفيسة من

أسبانيا ، وخشب للمقاعد وللمناضد الثمين من البرازيل ، وجرة بها نقوش صينية من الصين ، وأخرى مرصعة بالذهب من الروسيا ، وكنت أتوقع أن أرى هدية مصرنا ذات السخاء والكرم ، لكن لسوء الحظ لم تقدم شيئاً يعلن عنا بين تلك الأمم المتحضرة ، وفى اعتقادى أن هذا ممكن الآن وفيه معنى جليل إذ يدل على مشاطرتنا العالم المتمدين حب السلام والعمل على تأييده ، حقاً إنه لقصر تطمئن النفس فيه وتحس الهدوء والطمأنينة لأنه فى معناه ومبناه فأل السلم و بشيره ، وقد نقش القوم على أرض المدخل ما معناه : (تظل شمس السلام مشرقة علينا) .

ثم زرت قصر الملكة و يتقدمه تمثال فارس يمثل وليم الصامت ، ولا بأس بضخامته من الداخل ، وأبدع ما به غرفتان إحداهما هدية من اليابان وتظهر بها العبقرية اليابانية فى التطريز ودقة خرط العاج والخشب ، والأخرى من الصين وهى لا تقل عن الأولى رواء واتقاناً ، وتكسو قبته الوسطى صور زيتية رائعة للمصور الفلمنكى المبدع (رو بنز) وكلها ترمى إلى معان تاريخية وهنا لأول مرة ذكرت الفاتكان وابداع رفائيل وميكلانج ، وأعجبنى فى أحد الميادين نصب تذكارى لهزيمة نابليون سنة ١٨١٣ و إقامة وليم الأول ملكاً على هولندة .

وللعاصمة ضاحية على بحر الشمال بينهما غابة كبيرة ، والضاحية فاخرة المبانى فخمة الانزال وتعد خير مصايفها يمتد رصيفها على البحر خمسة كيلو مترات فى تنسيق رائع وعلى مدرجاته الرملية تقوم أكشاك السباحة المزركشة المتشابهة وهنا تبدو كثبان الرمل التى تحف بشواطئ هولندة على بحر الشمال فى وضوح ، وفى نهاية الرصيف ميناء صغيرة للصيد و يقطنها نحو ١٢٠٠ سماك ولهم مدرسة لدرس السمك وما يتعلق به مما يشعر بأهمية مهنة الصيد عندهم ، وسمك هولندة جيد النوع نفضل تمليحه فى السفن بمجرد صيده ، وفى هذا المكان نصب تذكارى للموقع

الذى رسا به وليم من انجلترا .

روتردام :

وصلتها بقطار كهربائى فى نصف ساعة وتبدو لأول وهلة قائمة غير جذابة فبانيها متراصة شاهقة وليست على نسق واحد وقليل منها فى هندسة هولندية ، والحركة التجارية بها كبيرة ، ولقد مررت بتمثال (أرزم) وهو خير من



(شكل ٧٤) دار السلام فى لاهاى

أنجبته المدينة ، وطفت بغالب أرجائها ثم أخذت زورقاً بخارياً وجبت نواحى مينائها فبدت عظمة المدينة التجارية فى سفنها المتراصة فى غير حصر وضوضائها التى لا تخبو ، وهى تقع على مصب نهر ماس (الميز) المتسع العميق الذى يكون القسم الأكبر من الميناء وعنده تكثر ألسنة البحر تتوسطها بعض الجزائر ، والماء داخل الميناء مائج مضطرب من تقابل تيار النهر بماء البحر ، أما خارجها فهادئ ومظهرها يدل حقاً على أنها أكبر المين التجارية بهولندة اليوم وأنها كانت قديماً أكبر مين غرب أوروبا قاطبة و يشقها عدد كبير من القنوات كسائر بلاد هولندة وفى بعض أحيائها ترى صفاً مستطيلاً من الأبنية توازيه قناة ثم يتلوه آخر فقناة وهكذا

الدنمركة

بلاد الديمقراطية والتعاون

قمت من برلين قاصداً كوبنهاجن عاصمة دنمركة فى ٢٤ أغسطس فأخذت قطار الثامنة والنصف صباحاً من محطة (Stettiner) وكانت ليلتنا ماطرة وظل الوابل طوال النهار والليلة التاليـة والبرد كأنه شتاء مصر ، وسرنا خلال سهول تكسوها الخضرة والأشجار حتى وصلنا فارنمند على البلطيق فى منتصف الساعة الواحدة بعد الظهر وهنا انزلق القطار كله إلى سفينة طويلة منتفخة الوسط (Ferry boat) ثم فصلت عنها القاطرة ، وعجيب جداً أن يسع وسطها صفين من العربات الكبيرة فى كل صف ست عربات وحول هذه تصف حجرات المسافرين فى ثلاثة طوابق وتوسق بعض البضائع ، وفى السفينة نزل فخم تناولنا فيه الغداء ، ثم أقلعت بنـا فى عرض البلطيق الذى غابت عنا شواطئه إلى الساعة الثالثـة حين وصلنا (Gedeser) على جزيرة دنمركية ، وهنا جرتنا قاطرة برا وسارت فى سهول مبسوطة كثيرة النبت والمراعى بأنواعها تجملها بيوت صغيرة تبنى بالآجر الأحمر الجذاب وسقفها مثلثة سريعة الانحدار لكنها مشطورة الجوانب ، ثم وصلنا المـاء ثانية وحملنا بالقطار سفينة أخرى نحو ساعة ثم إلى بر آخر ومنه إلى كوبنهاجن ، وكانت الجزائر تمتد حولنـا فى جميع الآفاق ، و بفضل تعدد تلك الجزائر كانت دارية القوم بركوب البحر كبيرة حتى أن بواخرهم التى تمخر عباب بحارهم أضحت من الأعاجيب ، و بلغت تلك العوامات السابحة بين الجزائر بنظام محكم حـداً من الاتقان فاق نظائرها فى بلاد العالم أجمع ، وعددها اليوم يناهز

أربعاً وعشرين ، ويبلغ مجموع ماتنقله من الأحمال مليوناً من الأطنان ، وكذلك مليوناً من المسافرين فى كل عام . . .



(شكل ٧٥)
مؤخر الباخرة التى تحمل فى قلبها قطارين حديدين عبر البلطيق ومن ورائنا بلاد السويد

كوبنهاجن : حاضرة الدنمركة

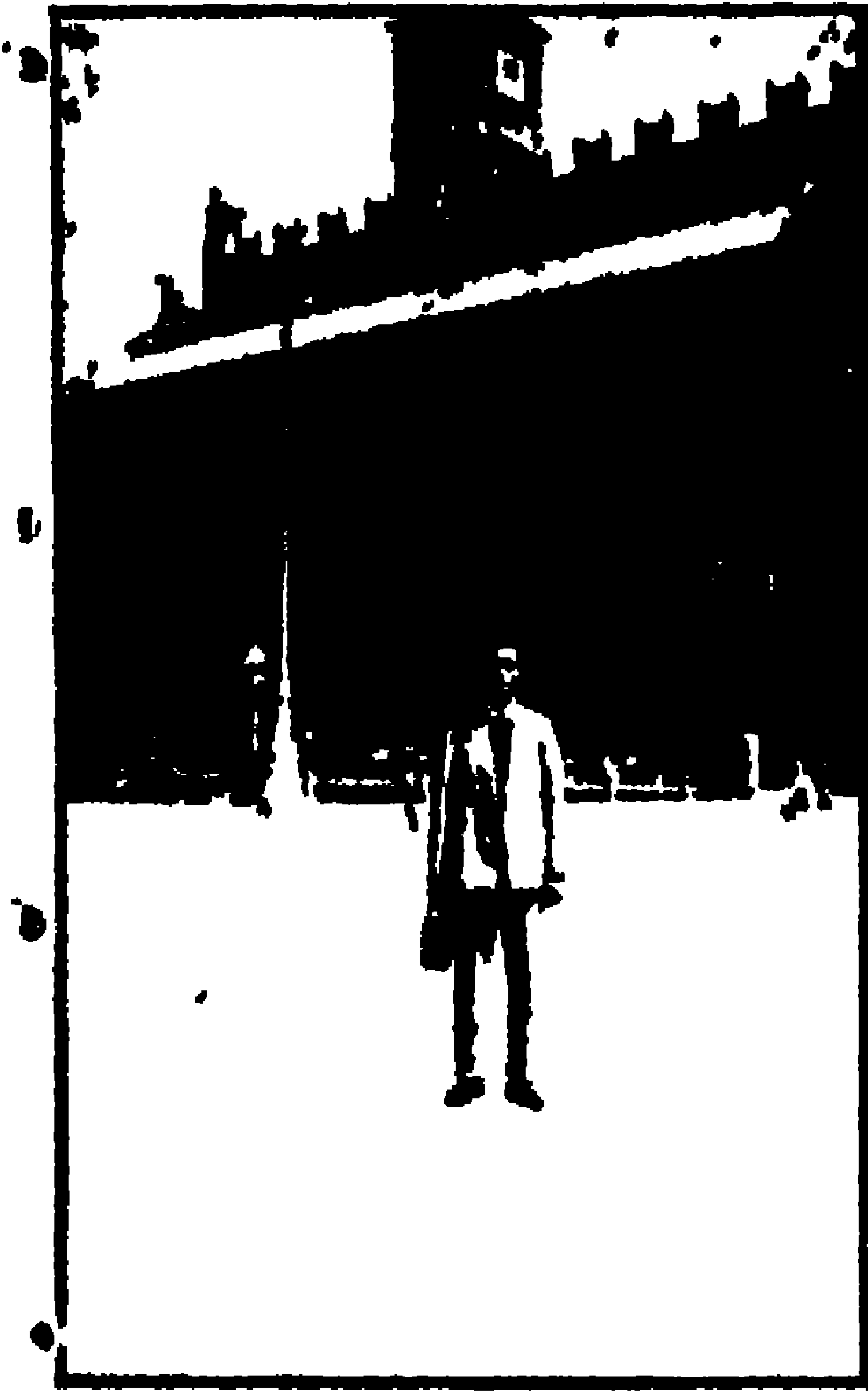
التى تغص بما لا يقل عن ثلاثة أرباع المليون من أهل دنمركه البالغ عديدهم ثلاثة ملايين ولذلك فانها جمعت كل مظاهر العظمة فى البلاد وما عداها من المدن قرى لا تذكر إلى جانبها ولها موقع جميل على الساحل الشرقى لجزيرة زيلند — طفت أرجاءها مشياً فبانت لى أعظم أرجائها على امتداد طريق رئيسى يشقها فى الوسط تتوسطه ميادين غير جذابة يعوزها التماثل فى هندستها ، ودنا معظم المحال التجارية ، ودور السينما والملاهى ، ومبانى المدينة متشابهة هندستها ساذجة فى شكل مكعبات ، يعلو وسطها برج كأنه منشور رباعى ينتهى بهرم ، ويندر أن تقع العين على بناء مخالف ولكنها بالآجر الأحمر . والبحر يطوق المدينة بالسن لا حصر لها فأينما سرت فى استقامة لاقيت شعبة من البحر بها البواخر والزوارق والمراسى وصيادو السمك ينظفونه ويلقون بأحشائه فى اليم ويعرضونه فى زوارقهم للبيع ، وبالمدينة عدد لا بأس به من المتنزهات أشهرها Tivoli وبه مجموعة من الألعاب والأراجيح

وللقاهى و يضاء بثريات الكهرباء ذات الأشكال البديعة فى شىء من الاسراف ليلاً و يعد أكبر مكان للتسلية فى تلك البلاد .

والناس هنا يلاحظ فى وجوههم بعض الاختلاف عن الألمان والنمساويين خصوصاً فى شدة حمرتهم وصفاء زرقة عيونهم وعرض أنوفهم قليلاً وهم دون سابقيهم جمالاً وجاذبية ، على أنهم مرحون نشيطون نظيفون وتراهم يستخدمون الدراجات معطية لهم صبية وشباناً وشيوخاً نساء ورجالاً ، وخير ما تتجلى نظافتهم فى هندامهم الأنيق ومآكلهم ، ولقد عد طهاتهم أنظف طهاة أوروبا وأمهرهم وإن لم يرقى غذاؤهم كثيراً فكله مسلوق ، ويكثر لحم الخنزير . والدنمركيون كثيرو الأكل فهم يفوقون فى ذلك حتى أهل اسكندناوة ، إذ يتناولون بين أربع أكلات ثقيلة وست فى اليوم ، ولا تخلو أكلة من طعامهم المغذى المحبوب الذى يسمونه (سمور برود) ومعناه الخبز الملطخ وهو مزيج من الخبز والزبد والبيض وقطع الدجاج والسمك ولحم الضأن و بعض الخضر كل ذلك يقدم إليك مختلطاً (كالسندوتش) ، وفى المطاعم يصدر به الأكل فيشعر المرء بامتلاء عند تناوله قبل أن تقدم له الأطعمة الرئيسية ، وترى بائعيه يتجولون فى الطرق بعربات يدوية صغيرة يجهزونه لك على الفور ، وكم كان يدهشنى وأنا أجلس إلى مائدة الطعام فى النزل منظر القوم يلتهمون الطعام التهاماً ، و بسرعة عجيبة رغم كثرة الكمية التى تقدم إليهم من البطاطس المسلوق واللحوم والطعام القومى السالف . وأنواع من الحلوى تحكى العجين يمزج باللبن والعسل تعافها النفوس .

ومستوى الثقافة عال بينهم فهم متعلمون جميعاً وليس للأمية أثر بينهم وميلهم للتعاون فطرى ، وليس لمدارسهم برامج مسطورة بل يترك أمر تخيير المادة للأستاذ الذى يدرس ما يراه صالحاً ، والامتحانات العامة تكاد تكون معدومة

وهـذا يدل على مبلغ نزاهة أساتذتهم وكبير ثقـة القوم فيهم ، ولا يشترط فى الأستاذ أن يكون حائزاً لأجازة علمية بل يكفى أن يكون غزير المادة حسن النظام كبـير الشخصية جذاب الحديث ، ولعل هـذا النظام التعليمى الحر الذى بنى على أساس عملى ، والذى يرغب فيـه النشء للعـلم الخالص لاللشهادات والأجازات هو سر نجاحهم التام فى شئون الزراعـة والرعاية بحيث



(شكل ٧٦) كوبنهاجن : أمام دار الاستشارة وهى فى هندسة دنمركية محضة

أصبحوا قادة العالم وهداته فى هذه الناحية ، والتعليم العالى عندهم قسمان : قسم للتاريخ ويدرس به تاريخ الأمم الشمالية والتاريخ العام وتاريخ الأدب والـكنيسة والحضارة ، وقسم للبحث الطبيعى ويشـمل الفلك والكيمياء والجيولوجيا والبيولوجيا ، والنابهون من علمائهم كثيرون فى مختلف العلوم نذكر من بينهم : تيكو براهه فى الفلك ، وأوريستد فى التلغراف الـكهربائى ، ونيلز فنستين فى الطب ، وبولسين فى اللاسلكى ، وفيلهم اندرسن فى اللغات ، وهذا يدل على

أن نظام التعليم الحر الذى يعيب عليه البعض تطرفه فى الأباحة يؤتى ثماره الطيبة بينهم .

وأظهر المدارس هناك الزراعية تلك التى بلغت شأواً بعيداً من التقدم وكفاهم فخراً أنهم أخصبوا موات أرضهم الجدبة الفقيرة بمجهودهم العلمى ، ولذلك يؤمها الخلق من مختلف بلاد العالم لدرس نظامها الزراعى البديع وثلث مساحة البلاد مجزأ فى أربع وأربعين جزيرة ونصف سكانها مزارعون وغالبهم متيسرو الحال بل وأغنياء ، والفضل فى تقدمها الزراعى يرجع إلى : نظام الملكية الحكيم وإلى ثقافة القوم وإلى ميلهم الفطرى للتعاون ، ولقد ظل القانون أمداً لا يبيح شراء الأرض من مالكها إذا كان فلاحا ، وكذلك فهو يحتم على الفلاح الذى يستأجر أرضاً أن تكون الإجارة مدى حياته ، وتكاد تثبت قيمة الإجارة أجيالاً عديدة لا تزيد ولا تنقص ، وكثيراً ما تقرض الحكومة صغار الفلاحين المال إذا ما أرادوا شراء أراض جديدة ، وكذلك تضطر كبار الملاك أن يبيعوا شيئاً من أملاكهم ، وبذلك أصبح نحو تسعين فى المائة من الأراضى ملكاً لصغار المزارعين ، ولا تقف ثروة البلاد على غنى أرضها بقدر ما تقف على جودة العمل والفطنة فى الإنتاج ، ولقد كانت البلاد غنية بإنتاج القمح ، ولما انحط سعره لكثرة إنتاجه فى الخارج عمد غالب الفلاحين إلى الاستعاضة عنه بالمراعى التى لا تتطلب من الجهد والأيدى العاملة ما تتطلبه زراعة الحبوب ، واستحالت البلاد من مصدر للغلال إلى مستورد لها بعد إعفائها من ضرائب الوارد ، وفطن القوم إلى قيمة الصناعة فأنشأوا المصانع تحت إشراف الهيآت التعاونية لإعداد اللحوم ومنتجاتها ، وأصبحت البلاد تصدر من منتجات المرعى والدواجن أضعاف ما كانت تجنيه من صادراتها النقل من قبل فهى تصدر من الزبد المشهور بنحو ١٤ مليون جنيه لانجلترا وحدها ، وقد



(شكل ٧٧) دستور دنمركة فى مدخل البرلمان يحوطه إطار مرصع فاخر

اصبحت البلاد غاصة بالمتعاونات التى ينتسب إلى عضويتها جميع الفلاحين ، وقد يشترك الفرد فى أكثر من عشر جمعيات منها يحضر جلساتها فيزيد هذا فى ثقته بنفسه ودرايته بعمله ، وشعوره بالمسئولية ، واستعداده للتضحية ، وتمتاز المتعاونات الزراعية هناك بأن أموالها ليست مستمدة من الفلاح ، بل من المصارف تحت مسئولية أعضائها وهذا سر نجاحها العظيم ، ولعل ثقافة الفلاح كانت خير معين على ذلك النجاح ، وأثرها جليل فى تحسين الإنتاج وزيادته ، ولقد زاد إنتاج البقرة الواحدة مثلاً من ١١٦ رطلاً من الزبد فى العام إلى ٢٢٠ ، ومن ٥١٠ جالوناً من اللبن إلى ٥٥٤ ، ويناهز عدد البقر الحلوب عندهم المليون ، وأصبح الزبد الدنمركى أجوده فى الدنيا ، ويقدر بأربعين فى المائة من مجموع الصادرات ، وشجعت المتعاونات إقامة المصانع ومحطات الكهرباء ، وهى الآن تمتلك ٢٥٠ محطة كهربائية كبرى لإنارة القرى وطحن الغلال .

والحكومة تكاد تشرف على كل شىء وتتدخل فى جميع الأعمال ، فهى أشبه

بأوتوقراطية يسوسها قوم مصلحون ، والاشتراكية الفردية سائدة فى بلادهم .

زرت من متاحفهم : المتحف الأهلى و به مجموعة كبيرة من الآثار الدنمركية ، و به قسم لتطور المدنية فى بلادهم يعرض به كثير من مساكنهم وأثاثهم ونسيجهم ، وثم قسم ثالث للشعوب ، ويعطى صورة لحياة الإنسان فى مختلف العصور والبلاد ، ثم متحف (Glyptothek) و به معروضات آيات الحفر الدنمركية والفرنسية . ويقال إن المجموعة الفرنسية التى به أوفى مجموعة من نوعها خارج فرنسا ، وفى قسم منه قطع من الفن القديم الاغريقى والمصرى والرومانى ومخلفات تدمر ، وهذه أكبر مجموعة من نوعها فى العالم ، وخير ما راقنى من الفن المصرى تمثال صغير من برنز لأمون مطعم بأسلاك الذهب حول العنق وفى اليدين والأذنين وفوق الرأس بشكل يجذب جماله الأنظار ، و بالمتحف قسم للصور الزيتية البديعة ، ثم متحف (Thorvaldsens) باسم صديه ، و به خليط من قطع أثرية وصور فنية ، وكان صاحبه مصوراً دنمركياً ماهراً أهداه لأمته ، وهو مدفون فى فنائه الأوسط .

ومن الأبنية التى تهول السائح لضخامتها وهندستها الهولندية البحته (الراتهوس) أى دار الاستشارة ، وهو يشرف على أكبر ميادين المدينة وكلف نحو ستة ملايين من الكرونات به ستمائة حجرة وخمسة طوابق ، وعلو برجه ١٠٦ متراً ، به ساعة تدق نغمة موسيقية طويلة مرة كل ربع ساعة ، ثم عدد الساعات كلما كملت ساعة ، ورنينها يكاد يسمعه كل أهل المدينة ، وأبهاؤه وردهاته فى فخامة ورواء .

قصر كرستيانزبرج : أحد القصور الملكية الرئيسية ، وهو أقدم القصور الملكية ، لكنه جدد سنة ١٩٠٦ بعد أن احترق مرات عديدة ، ولا



(شكل ٧٨)
ملك دنمركة على جواده يحيي المارة فى غير حراس

تزال أنقاض القصر القديم وبقايا جدرانه تحفظ فى أسفل المكان ليزورها الناس كأنها متحف ، يقيم الملك فيه الحفلات ، ويستقبل الزوار والسفراء ، والحق أنه فخم لدرجة كبيرة ، فآيات الحفر والنقش بالذهب والفضة وأنواع الرخام والمرمر ، مختلف ألوانه مما يدهش الناظر ، وحجرة العرش مبطنة بالبسط والحرائر من نسيج ليون فى لون أحمر رهيب ، وجناح منه خاص بالبرلمان ، وغرفه فى بساطة وتزين ردهاته صور للأعضاء والوزارة فى جميع الأزمان ، وبين الوزراء سيدة كانت وزيرة الزراعة سنة ١٩٢٤ ، وثم صورة بديعة للمؤتمر الدولى لمقاطعة شلزفج التى ضمت للدنمركة من ألمانيا سنة ١٩١٨ ، واسترعى نظرى إناء (Vase) فخم أهداه البرلمان الفرنسى للبرلمان الدنمركى ، وهناك ترى الدستور مسطوراً وممهوراً بامضاء الملك كرستيان العاشر الحالى سنة ١٩١٥ ، وهو موضوع داخل سلة من فضة غطاؤها من زجاج ، وفى داخلها المحبرة التى كتب بها ، وقد بلغ من ديموقراطية الشعب

ومليكه أن الملك يخرج وحيداً يمشي على رجليه أو يمتطي جواده كل يوم وهو يجوب أطراف المدينة فى غير حراس يحيي الناس وهم يحيونه وكأنه واحد منهم ، ولقد رأيته مراراً وهو يرفع قبعته تحية لأقل الناس مقاماً ، هـذا ولقد أبطلت دنمركة عادة تتويج الملوك منذ عهد جد الملك الحالى ، لأن الناس رأوا أن حفلات التتويج متكلفة فضلاً عن نفقاتهـا الباهظة ، وللناس كامل الحرية أن يتريضوا فى حدائق القصر على مسمع من الملك ، والقصور كلها يزورها الجميع فى مواقيت معينة ، كل ذلك يؤيد ما هو معروف من أن أهل دنمركه هم المثل الأعلى للديموقراطية ، فالرجل منهم يرفع قبعته احتراماً لأحقر الناس حتى للخادم ، وقيمة المرء عندهم بعمله فقط ، وفوارق الطبقات معدومة ، والميزات والحقوق الموروثة لا أثر لها عندهم ، وقد خلف ذلك أثره فى التسامح الدينى عندهم وفى إباحة الطلاق للجميع ، على أن يكون ذلك فى السر لا فى العلن ، ولذلك كثر الأبناء غير الشرعيين بينهم ، والقوم لا يعـدون ذلك عيباً بل أمراً طبيعياً لا عقاب عليه : وفى خلقهم التسامح العام والمسالمة لا يقع بينهم شجار قط ، ولا يتعرض أحدهم بالإهانة للغير ، وإن حدث ذلك كان عقاب القانون قاسياً ، وتلك لا شك من آثار البيئة الزراعية ، ويتحدث الكثير منهم فى نزع السلاح وتسريح الجيوش والاستغناء عن الأساطيل ، ولا يرون فائدة فى بقائها ، ويعتقدون أن الوقت قد حان لإنفاذ تلك الرغبة .

أما مقام الملك ففى قصر (Amalienborg) وقسمه الأوسط خاص بالاستقبال وبه غرفة العرش ، وجناحاه مقوسان الأيمن للملكة والأيسر للملك ، وأمامه ميدان فسيح يتوسطه تمثال فردرك الخامس من البرنز ، ومن عمل المثال الفرنسى الذائع الصيت (Slay) ، وقد بلغت أكلافه حداً خيالياً إذ ناهزت ربع مليون جنيه .

ومما يسترعى النظر فى المدينة ميناؤها التى تغص بالسفن من كافة الأشكال



(شكل ٧٩) وسط ميدان القصر الملكى (أماليبرج) فى كوبنهاجن

والأحجام ، وهى فى حركتها وقلة نظافتها تحكى ميناء الاسكندرية القديمة ، على أنها كثيرة الشعاب التى تعبرها القناطر فى كل اتجاه بحيث كثيراً ما ترى جزءاً من المدينة يحوطه الماء من كل جانب ، وفى إحدى تلك النواحى الجزرية زرت كنيسة (Frelser kirke) وهى شاهقة وذات أقبية كثيرة من الداخل ، وأخص ما يلفت النظر بها برجها الذى نصعد إليه بسلم حلزونى من خارجها يشبه مئذنة ابن طولون وقبتها خضراء اللون يزينها طلاء الذهب وتفوق المائة متر فى العلو .

ومستوى المعيشة هنا مرتفع لدرجة كبيرة ، وقد قابلت أحد الإسرائيليين المصريين هناك حادثنى طويلا ، وأفهمنى أن المقادير طوحت به أن يشتغل بالشئون التجارية فى كوبنهاجن ، وهو يشكو من الشكوى من الغلاء الفاحش لأنه ينفق دخله البالغ أربعين جنيهاً فى الشهر ، وهو يشعر أنه فى ضيق مالى ويبدو الغلو فى أثمان الملابس ، فمتوسط ثمن الحلة الواحدة تسعة جنيهات ، والحذاء مائة وثمانون قرشاً ، ولعل دنمركة أغلى البلاد التى زرتها جميعاً ، وتكاد تشبهها فى هذا الغلاء بلاد السويد والنرويج ، ثم هولندة وألمانيا على عكس دول وسط أوروبا وجنوبها ، فتكاليف الحياة فيها أقل بنسبة واضحة .

اسكندناوة

موطن الغابات والطبيعة الساحرة

لعل أصفى ما يكون الجنس النوردى فى تلك البلاد ، وهم شعبة من القوط اتخذوا القرصنة عملاً لهم ، وركبوا البحر ونزلوا جزائره وأجوائه ، ثم استوطنوا بلاد اسكندناوة النائية ، فلم يمتزجوا بغيرهم مثل أقربائهم من الإنجليز والألمان والهولنديين والدنمركيين ، وهم لا يزالون يمتازون بالشعر الأصفر والعيون الزرق والقوام الشامخ وهم الذين وصلوا جرنيلد وأمريكا قبل عهد كولمب بخمسة قرون ، وكانوا معروفين بشدة البأس والوحشية التى استحالت اليوم إلى حب للمخاطرة ومغالبة لقوى الطبيعة من جبال وثلوج وغابات وسيول ، وكفاهم فخراً أن أنجبوا أمثال امندسن ونانسن من كبار الكاشفين ، وأهل السويد أغنى من جيرانهم سكان النرويج ولذلك كانوا أميل إلى الارستقراطية ، وبدت فوارق الطبقات بينهم واضحة على عكس النرويجيين المعروفين بحبهم للديمقراطية واحترام النفس ، حتى أن الخادم والحوذى ليخاطبك وكأنه من أندادك ، ويقطن أطراف اسكندناوة أمم اللابلنديين والفنلنديين ، وهم من أصل مغولى طاردهم النرديون إلى الشمال لما أن حلوا تلك البلاد ، وهم لا يزالون يحافظون على كثير من مميزاتهم الجنسية كاستدارة الرأس ونتوء عظام الخد ، وانتفاخ العيون وانحرافها ، وتفرطح سحنهم وهم يحلون بلاداً فقيرة لا عمل لهم فيها إلا صيد السمك وإعداد الفراء ، ورعاية قطعان الرنة ، على أن الجزء الواقع فى السويد غنى برواسب الحديد ، حتى أنك لترى على مقربة من مدينة حامارا (شمال السويد) جبالاً من الحديد الخالص فى مجموعها ، وكذلك



(شكل ٨٠) اسكندناوة فى الشتاء
ويرى بعض ملاعبهم فوق الجليد وبيوتهم الخشبية وعرباتهم فى مثل الأخشاب

فى كيرونا ، ويصدر منه قدر كبير بفضل الخط الحديدى الذى أنشىء خصيصاً لهذا بين رأس خليج بوثنيا وثغر نارفك شمال غرب النرويج .

والعمل يستمر هناك حتى فى ظلام الشتاء على أضواء الكهرباء المتوهجة ،



(شكل ٨١) اللابلنديون فى شمال اسكندناوه

وعدد اللاب دون ثمانية آلاف ، والفن نحو ثلاثين ألفاً .

قمت من كبنهاج قاصداً ستكهلم ، و بعد عبور أحد مضايق البحر البلطى نزلت مالمو من أعمال السويد ، وهى مدينة صغيرة لا بأس بتنسيقها ، وتعد من الثغور التجارية . ثم أخذت القطار الذى سار بنا فى سهول فسيحة لا يزال يحصد بها الشوفان والشيلم و بعض القمح والكتان الذى يكاد ينسجه الجميع بأنوال يدوية فى المنازل . أما الغابات فحدث عنها ، فهى تكاد تملأ كل البقاع وهذا ونجادا وفى كثافة جعلتنى أفهم حقاً أن تلك البلاد منابت الغابات وموارد الأخشاب فالمنازل كلها من الخشب تقام فى هندسة أنيقة ، وتطلى باللون الأحمر ومقاطع الخشب ومناشره تملأ الآفاق وقاطرات السكة الحديدية تمر تباعاً ، وهى تحمل وسقها من منتجات تلك الغابات ، وفى بلاد السويد وحدها ١١٠٠ مصنع كبير لنشر الخشب أشهرها يقع على سواحل خليج بوثنيا وذلك بفضل الغابات التى تغطى نصف مساحة السويد . وبفضل الأنهار السريعة ذات المساقط المائية العديدة



(شكل ٨٢)   الأنوال البدوية لنسج الكتان توجد فى غالب بيوت اسكنداوة

وتلك تعوم فيها أرمات الخشب إلى المساقط حيث تستخدم قوة الماء فى إدارة الأرحاء والمناشر وفى توليد الكهرباء كل ذلك كنت أشاهده طوال الطريق ، ولعل مدينة (Sundsvall) على خليج بوثنيا (٦٢° ش) هى وسط صناعة الأخشاب يحيط بها ثلاثون مصنعاً لنشر الخشب وإعداده . ولقد أصبحت الكهرباء زهيدة القيمة ومنتشرة حتى فى أحقر القرى ، وقد كانت قرية (Hernosand) شمال ساندزفال أسبق بلاد أوروبا فى الإنارة بالكهرباء . وبفضل انتشار الكهرباء عم استعمال التلفون ورخصت أجوره فهى لا تعدو جنيهين ونصفاً فى العام ، ولذلك كان السويديون أكثر الناس استخداماً للتلفون إذ دل الإحصاء الأخير على أن لكل خمسة أشخاص من السكان تليفوناً واحداً .

ظل القطار ينهب الأرض فى سرعة مخيفة ساعات ناهزت الإثنتى عشرة حتى وصل ستكهلم ، وكان الاقليم يغص بالمناقع والبحيرات والغدران التى خلفتها ثلوج العصر الثلجى حين اجتاح البلاد جميعها وعرى تربتها ، وخلف بها تلك القيعان ، أما طبيعة الأرض فصخرية نارية قديمة أظهر صخورها الجرانيت الذى

يصدر القوم منه مقادير كبيرة لبلاد الدنمركة ذات التربة الرملية ، وكان يكسو حطام تلك الصخور البقاع الوطيئة فتصبح خصبة زراعية ، ولا تخلو بقعة من الخضرة تزينها الزهور الجميلة مما جعل مناظر الطريق رائعة ، والبلاد شاسعة مترامية الأطراف نادرة السكان بحيث لا يعدو مجموعهم ستة ملايين ، ولذلك كانت مساكنهم مبعثرة غير متجاورة ولا مكتظة ، هـذا وفى الطرق الحديدية وأنفاقها ومناظرها ولياتها ومسالكها وسط تلك الصخور العاتيـة دليل على مبلغ المجهود الفنى والقدرة الهندسية التى يبذلها القوم فى مغالبة الطبيعة ، ولذلك ليس بعجيب أن تكون أجور السكة الحديدية عندهم غالية ، ولقد أخضعوا كثيراً من الخطوط لقوة الـكهرباء ، وهم جادون فى كهربة ما بقى منها .

ستكهلم : ومعناها مجموعة جزائر (Holm جزيرة) ، وتسـمى : بندقية الشمال ، ذات موقع لا يبارى حسـناً ، فهى تقع على مجموعة من جزائر وأشـباه جزائر على بحيرة مالار ، فإلى شرقها تنتثر الجزائر تكسوها غابات الصنوبر ، وتمتد النوآىء الصخرية مسافة ثلاثين ميلاً ممـا يكسب مدخل مينائهـا من البلطيق منظراً فذاً ، وإلى غربهـا تقوم ضواحيها على شواطىء البحيرة وعلى صخورها مسافات بعيدة ، وأينما وليت فى المدينة أشرفت على أفق صافى الزرقة إذا سلكت سبيلك إليه وصلت إلى لسـان من البحر يلتوى يمنة ويسرة ، وتعبره القناطر ، وتحف جوانبه للتنزهات بأشجارها الباسـقة ، وتشرف نصف بيوت المدينة على المـاء ، وتنقل نصف متاجرها بالسفن ، والباقى بالعربات التى تنزع عنها عجلاتهـا فتصبح مزالق تسـير فوق الجليد اذا جمدت المياه من حولها إبان الشـتاء ، والمدينة لا تخبو حركتها قط ، فأهلها ذوو نشاط وجد فى النهـار ، ولهو ومرح فى الليل ، وهم يناهزون نصف المليون عداً .



(شكل ٨٣)   ستكهلم مدينة الجزائر

ولقد صدق من أسماها (بندقية الشمال) لأنها أذكرتنى بالبندقيه عندما رأيت بحيرة مالار وشطآنها التى تحكى (جراند كنال فى ڤنسيا) ، وكذلك حين وقع نظرى على أضخم بناء فيها — وهو الراتهوس أو دار الاستشارة ، ببوائكه وهندسته الغريبة ، وهو يرمى ظلاله على مياه البحيرة ببرجه الرباعى الشاهق ، وكأنه قصر الدوج وسان ماركو فى البندقية ، على أن كثيراً من جهاتها يقام على ربى شاهقة قد يستعين المرء على ارتقائها بمصاعد كهربائية أشهرها مصعد كترينا ولذلك ترى طرقاتها تعلو وتهبط و يسير بعضها تحت بعض ، وهى فى ذلك تخالف ڤنسيا . وأقدم أحياء المدينة يقع على جزيرة (Staden) ، ويسميها القوم بالبلدة بين القناطر لأنها تتصل بجيرانها بقناطر من جميع جوانبها . جست خلالها فإذا بها مجموعة من أزقة مختنقة متلوية ، لا يكاد يسمح عالبها لأكثر من شخص بالمرور فى وقت واحد ، وفى شمالها الشرقى القصر الملكى ، أقيم سنة ١٧٦٠ فى هندسة عصر النهضة الإيطالية ، وقد زرته فإذا به آية فى الزخرف والرواء ، يحوى مجموعة قيمة من

الستائر والبسط والأنسجة الموشاة التى تكسى بها الجدران ، وقد جىء بها من فرنسا عهد جستاف الثالث وليس لها اليوم نظير حتى فى فرنسا نفسها .

وعلى مقربة من السراى — قصر الأشراف (Riddarhaus) من نمط الباروك ولعله أجمل بناء فى المدينة كلها ، يرجع عهده إلى القرن السابع عشر حين أقامه أشراف السويد لعقد مجتمعاتهم السياسية والاقتصادية يوم أن كانت لهم الغلبة ، وكانت أسرهم تناهز أربعة آلاف . لكنهم اليوم فقدوا نفوذهم ، ونزل عديدهم إلى أربعمائة عائلة ، ولم يبق لهم فى البرلمان سوى ما بين ١٠ و ١٥ عضواً من بين أربعمائة . ولا تزال فلولهم تجتمع فى هذا القصر للبحث فى شئونهم الاقتصادية فقط إذ لم يبق لهم من الامتيازات السياسية شىء ، ولا تزال شارات عائلاتهم القديمة تنقش فوق جدران (بهو الفرسان) . وبين القصر والسراى كنيسة عتيقة دفنت بها رفات كثير من الملوك من بينهم جستاف أدلف وشارل الثالث عشر والرابع عشر ، وتقع إلى شمال هذا الحى جزيرة روح القدس الصغيرة التى تقام عليها دار البرلمان الفاخرة ، تطل على أكبر قنطرة توصل إلى القصر الملكى وتسمى (Norrbro) ، ويلاصق البرلمان من خلفه البنك السويدى (Riksbanken) أقدم البنوك هناك ، وأسبق بنوك الدنيا فى إظهار الورق المصرفى (البنك نوت) . ويواجه القصر الملكى من الشمال أفخم ميدان بالمدينة وأنشطها حركة ، فحركة المرور به تبهر العقول بكثرة تشعبها وشدة ضوضائها وجلبتها ولذلك عد قلب المدينة النابض . فمنه تتشعب أهم طرقاتها ، ويحسن أن يتخذه السائح بداية لرحلاته فى المدينة لكيلا يضل طريقه ، لأن تعدد الجزائر والشعاب المائية فى أرجاء المدينة يجعل تعرف الطرق هناك أمراً متعذراً وبخاصة على السائح الحديث العهد بها ، وهنا كانت تخوننى الخريطة فألجأ إلى البوليس أحياناً .



(شكل ٨٤)
فى أحد أزقة ستكهلم العتيقة

ومن أحياء المدينة الجذابة ذات الحدائق الغناء والربى المتفرقة التى تبدو من دونها مدينة ستكهلم فى وراء ساحر (Djurgarten) وأجدر أماكنها بالزيارة متحف (Skansen) تعرض به نماذج الحياة الريفية من أكواخ ومزارع وكنائس الشعوب السويدية قديمها وحديثها ، وهى آهلة بسكانها فى ملابسهم القومية ، إلى ذلك ترى أهم صناعاتهم ومطاحنهم الهوائية وهداراتهم المائية ، وأجمل ما يسترعى النظر بيوت لابلاندة ونظام معيشتهم الساذج . وأدوات منازلهم التى لا تزال على فطرتها الأولى . كذلك ترى أغلب حيوانات المناطق الجليـدية كالدب القطبى الأبيض المفترس ، وعجل البحر وقطعان الرنة ، والثعالب والطيور المائية وكلب البحر والسمور ، والمتحف فوق ذلك متنزه كثير المقاهى والمطاعم ، وتحيط به من الخارج دور الملاهى .

وعلى مقربة من المكان متحف (Nordiska) الفخم بناؤه من أربعة طوابق تعرض بها نماذج قيمة لمعيشة أهل السويد جميعاً ونماذج للناس فى تماثيل بأرديتهم المختلفة وأدواتهم وأسلحتهم وزوارقهم ومنها يبدو مالهم من المهارة فى إعداد الخشب وخرطه وجدل شرائحه فيما يحكى الأنسجة تصنع منها الأحذية وبعض الآنية وترى من بين ذلك أهل لابلاندة بزحافاتهم تجرها الغزلان وفراشهم وجلودهم


(شكل ٨٥)
وسط ميدان جوستاف أدلف ستكهلم

وخيامهم ، وثم مخلفات ملوكهم من أثاث وفرش وأسلحة ، نخص بالذكر منها مخلفات جستاف أدلف أسد الشمال وحامى البروستاننية الذى كان من أبطال حرب الثلاثين سنة ، هزم الكاثوليك مراراً لكنه قتل فى الواقعة التى انتصر فيها على ولنشتين . وقد حشا القوم جواده وحنطوه بسرجه وخطامه بحيث يبدو وكأنه لا يزال حياً ، والحق أن المتحف يعطى للزائر فكرة صادقة عن الحياة السويدية فى مختلف البقاع والعصور .

قصدنا ضاحية (Drottningholm) ويسميها القوم فرساى السويد وتقع على بعض شعاب بحيرة مالار والطريق إليها يجوز قرى أبنيتها خشبية صغيرة فى نظافة تامة وتنسيق أنيق تحيط بكل منها حديقة ، وخير ما يزار بها القصر الملكى الفاخر أقيم على نسق الباروك وهو يشرف على البحيرة التى تغص بالجزائر ذات الأدغال الكثيفة وخلف القصر حديقة تكاد تحكى فى روائها وروعتها حدائق بوتسدام و إلى يمينه الكنيسة و إلى جنوبه القصر الصينى شبه فى بنائه (الباجودا) الصينية بنى خلال القرن الثامن عشر حين انتشر الولوع بالفن الشرقى ، و بجانب القصر دار للتمثيل بناها جستاف الثالث وقد كان روائياً وشاعراً وكان كلفاً بالتمثيل و بمشاهدة رواياته وهى تمثل على المسرح وهذه الدار تعد الوحيدة فى العالم التى تحوى أثاثاً



(شكل ٨٦) كارل حوهان الشارع الرئيسى فى (أوسلو) متصعداً إلى القصر الملكى الدواصع

ومسرحاً تام العدد والملابس منذ ذاك العهد وهى لا تزال تصلح للاستعمال .

وكان القوم قد أعدوا معرضاً كبيراً دعى إليه الخلق من مختلف بقاع الدنيا لمشاهدة منتجات السويد ، راقنى من معروضاته طائفتان : معروضات الأخشاب من دور وأثاث تشهد بما بلغته السويد من الشأن الكبير فى هذا المضمار الذى لا يدانيها فيه غيرها من الدول ، فقد عرضوا من الأبنية الخشبية ذات الطابق والطابقين بكامل أثاثها فى هندسة متباينة وأحجام مختلفة ما يحار فيه اللب .

الطائفة الثانية : وسائل النقل المختلفة من قاطرات وسيارات كبيرة وصغيرة وبواخر وزوارق فى أحجام كبيرة ، ولا غرابة فللكهرباء المستمدة من قوة الماء هناك فضل كبير على هذا التقدم الصناعى خصوصاً فى الآلات والسيارات وأدوات

الكهرباء والتليفون والتلغراف ، على أن المعرض فى حجمه وتنسيقه أقل بكثير من معرضنا الذى أقمناه سنة ١٩٣١

وأذكر أننى فى بعض متنزهات المعرض تحدثت إلى سويدى بالانجليزية فى شئون مصر وأتينا على ذكر معرضنا ، وما كان أشد دهشته لما علم أن فى مصر كثيراً من أمثالى وأن معارضها وحضارتها تحكى أوروبا ، وصارحنى أنه كان يعتقد أننا قوم همل رعاع ، وراعه أن كنت أرتدى صديريا من الصوف وصاح قائلا : (ماذا عسى أن تفعل إذا جئت إلى هنا شتاء فرأيت الماء جامداً والقوم يسيرون بعزالقهم فوق البحار والبحيرات ، وقد غشى الثلج المتساقط الطرق كلها إلى علو قد يفوق المتر) .

الى أوزلو : قمت إلى عاصمة النرويج وكان القطار يهب الأرض بسرعة خيالية بحيث كانت العربات تترنح وكأنها الأراجيح ، ولذلك لم أعجب لما أبصرت من النافذة بقطار قد انقلب بعرباته فتهشم وانتثرت شظاياه ذات اليمين وذات الشمال فى منظر يهز القلوب . ولما أن دخلنا أراضى النرويج زادت كثافة الغابات وكثرت مسايل للماء ذات المساقط العديدة ، وأرماث الخشب السابحة ، وقد أقاموا لها الحواجز الخشبية عند المنحنيات كى تمنع كتل الخشب أن تلتصق بالضفاف ، وبعد ساعات إحدى عشرة كاملات دخلنا أزلو عاصمة النرويج التى أسسها الملك (هارالد) سنة ١٠٤٦ على ضفاف فيورد أزلو الذى يتلوى نحو الجنوب ومن خلفها ربوة تشرف عليها ، ولقد تخير لها هذا المكان لسهولة نقل غلات جنوب شرق النرويج أخصب بقاعها ؛ على أن النار قد شبت بالمدينة فيما بعد وأبادت شطراً كبيراً منها فأشار الملك كرستيان الرابع أن تقام على الجانب الآخر من الجون ، ذاك الذى يحميه قلعة منيعة من الغارات السويدية ، ومن ثم



(شكل ٨٧) أقدم سفن الدنيا صنعت منذ ١١٠٠ سنة فى النرويج

سميت كرستيانيا ، وفى ١٩٢٥ ، أى بعد ثلاثة قرون ، قرر البرلمان إعادة اسمها القديم (أزلو) ومعناه : المرج أسفل التل أو مرج الإله ، ويربى عدد سكانها اليوم على ربع المليون .

وللمدينة صغيرة ولا بأس بمبانيها ونظافتها . قلبها الناهض شارع كارل جوهان ، يمتد فى استقامة من المحطة إلى السراى الملكية ، وعليه تقع أكبر الأبنية والحوانيت ، وأظهر ما به دار البرلمان ودار التمثيل التى يتسع بهوها لنحو ١٥٤٠ نفساً ، ثم الجامعة التى ينتسب إليها ٢٥٠٠ طالب ، وينتهى الشارع بربوة يشرف عليها القصر الملكى المتواضع يتقدمه تمثال الملك كارل جوهان ، أما باقى المدينة فعادى لا يسترعى النظر .

ومن المتاحف التى زرتها : المتحف الأهلى وبه مجموعة لا بأس بها لمخلفات النورديين القدماء ، وأدوات أقزام الشمال ، ومن بينها المجموعة التى أهداها



(شكل ٨٨) محطة دس فى طريق (رجن الحديدى) بين السويد
والنروج عند حد الملح الدائم

أمدصن المستكشف العظيم ، وقد جمعها من سكان شمال آسيا فى رحلته وهو يحاول كشف الطريق الشمالى الشرقى ، وهى تتألف من أحجار وأدوات وعدد وملابس وخيام وعقود نظمت من الأسنان والعظام .

ومما هو جدير بالزيارة ضاحية جميلة اسمها (Bygdo) يسكنها طائفة من أغنياء المدينة ، وبها متحف (Folke Museum) لمخلفات ملوكهم وبعض الآثار الكنائسية ، وفى جانب منعزل تعرض أقدم سفينة فى العالم دفنت بها الملكة (Asa) منذ ١١٠٠ سنة وقد استخرجت كاملة من تحت الثرى وطولها ٣٠ مترا وعرضها فى الوسط ١٠ ، وطرفاها فى طيات مدببة تحكى عرف الديك وعليها نقوش من خرط الخشب ، وفى كلا جانبيها ١٥ ثقباً للمجاذيف ، والدفة ملتصقة بجانب مؤخر السفينة وتحكى مجذافا كبيرا ربط فى السفينة بجدائل من خوص وهى أثر قيم لأنها التى ساح بها (Erikson) من ترمدهم عبر المحيط الاطلنطى



(شكل ٨٩) القطار يقف بنا قليلا و محطة (مس) أعلى محطات جبال اسكندناوة

إلى شواطئ أمريكا منذ أكثر من ألف سنة ، أى قبل كولمب بخمسة قرون ونصف .

وفى ضاحية أخرى يسير إليها ترام الكهرباء صعداً إلى ٤٠٠ متر فوق البحر فى وسط الصخور تكسوها الغابات ، كنا نتبين جوانب الفيوردات والنقائع والقرى فى الهوى من تحتنا فى منظر رائع وغابات الصنوبر لا تغيب عن العين أينما وقع بصرها ، وهناك متحف (Ski) الصغير و به يعرض زورق نانسن الذى صنع من قماش الشراع وهو الذى أنقذ ذاك المستكشف العظيم فى رحلته بالأصقاع القطبية الشمالية ، وكذلك خيمة أمندصن التى آوته فى القطب الجنوبى و بها أدواته وكلب محشو من كلابه ، على أن القوم يبالغون جداً فى أجور الدخول لتلك المتاحف و يوزعون المعروضات على قلتها فى مبان متنائية كى تتعدد الأجور رغم غلوها فهى لا تقل عن كرونر ، أى نحو ستة قروش لكل مرة ، لذلك فهى أشبه بتجارة واستغلال ، ولعل لفقر البلاد دخلا فى ذلك الاستغلال . أما الجو هنا فحدث عن رداءته فهو أبداً غائم مظلم عاصف مطير برده قارس حتى فى أغسطس ولم أذكر إلا يوما واحداً لم تمطر فيه السماء طوال إقامتى فى السويد والنرويج فكأن الطبيعة بقدر ما منحت القوم من مناظرها الخلابة لم تنحهم من غضبها

التى لا يفتأ ينغص عليهم بعض هنائهم ولذلك ليس بعجيب أن نراهم أقل منا سكان البحر الأبيض مرحا وضحكا فظلام الطبيعة قد خلف أثره فى نفوسهم .



(شكل ٩٠) فى أعالى جبال اسكندناوة حيث يدوم الثلج ويكاد ينعدم النبت

الى برجن : قمت بقطار الصباح والسماء تمطرنا وابلاً قاصداً ثغر برجن فى غرب النرويج والطريق الحديدى هنا يعد من المعجزات الهندسية فهو يمتد مسافة ٤٩٢ ك م وسط مسالك وعرة وجبال قديمة عاتية ، فيشق صخورها النارية بمئات الانفاق ، و يجوز ودياناً . و يجانب ثلاجات وغدراناً ، و يعلو إلى ١٤٠٠ متر فوق سطح البحر . بدأنا السير فى أقليم مغضن كثير الخضرة كثيف الشجر وأخذ القطار يسير صعداً إلى جانب التلال وكلما علا انكشفت لنا مناظر لوديان جذابة وبقائع فضية ، وكنا نمر بقرى صغيرة يتخذها القوم مصايف لهم يقيمون فيها أيام عطلتهم . وهم كل يوم يتسلقون الربى من حولها فى أردية متشابهة ، وعلى ظهورهم الجعب الكبيرة ، وفى أيديهم عصى الجبال ، وفى تلك القرى تكثر مناشر الخشب قرب مساقط المياه . وكانت غالب الوديان تغص بأرماث الخشب الغفل يسوقه التيار إلى المناشر ، و يعرفه ذووه بعلامات يحفرونها فى أطراف الكتل ، وكنا نحس زيادة البرد كلما علونا ، و بعد اجتياز قرية Gol فى أكثر من ثلث الطريق



(شكل ٩١) فيورد برجن أشرف عليه من ربوة (فلوين) بالنرويج

أخذ المنحدر يزداد وعورة ، والشجر ينضمر ويقل عدده حتى امحى ، ومع العشب بنوره الجميل ذى الألوان المختلفة ، وهذا أيضاً أخذ يندر حتى حللنا قرية (Finse) فى أعلى بقعة على الخط ، وهنا بدت بقع الثلج بيضاء وضاءة تنتثر على الربا من حولنا ثم ظهرت بعض الثلاجات الكبيرة و بخاصة (Hallingskarvet) إلى اليمين وهاردنجر إلى اليسار ، وعلى مقربة منها شلال (Voringfoss) الذى يهوى خمسمائة قدم دفعة واحدة ، وهنا يعجز قلمى الكليل عن تصوير بدائع الطبيعة من ذرى تتوجها عمائم الثلج إلى مسايل من الماء تهوى فى بطون سحيقة إلى أودية مختنقة تسمع فيها دوى الماء ، وترى أرغاءه وهو ينسكب على نواتىء الصخر ، ويثب درجات بعضها دون بعض والوديان تختنق وتتعرج ثم لا تلبث أن تنبسط وتنفرج فى نقائع وغدران هادئة آسنة ، كل ذلك والقطار يشق طريقه فى ليات ومطاوى عجيبة و يخترق أنفاقا لا عد لها ، وكان القوم يقيمون مظلات خشبية متحدرة لمنع الثلج أن يتكاثر فيضحى جليداً يعوق سير القطار . وعند قرية (Myrdal) التى تقع وسط هوة تعلوها الربا الشاهقة من جميع نواحيها يدخل القطار أطول أنفاقه



(شكل ٩٢) مساكن برجس من خشب وأحجارها مدرة
تحكى بلاد القرون الوسطى

البالغ ١٧٤١٣ قدماً وينكشف خانق (Flamsdale) الذى يسير الطريق على جرفه وهو هاتر سحيق يهوى من جانب القطار إلى ١٦٤٠ قدماً فى منظر رهيب ، وكنا نرى فى الأعماق طريقاً ضيقا يلتوى وكأنه اللولب فى إحدى وعشرين طية متقاربة تؤدى إلى بطن الوادى .

وفى هـذا الأقليم تكثر قطعان الرنة التى قد يبلغ الواحد منها الألف يتقدمها



(شكل ٩٣) الباخرة ليرا تبرح برجن عبر الاطلانطيق

دليـل من الغزلان كأنه الكشاف ، ويغلب أن يسير الجميع فى صفوف من ثلاثة أو أربعة ، والدليـل يجرى إلى ناحية مهب الريح لكى يشتم رائحة عدوه من إنسان أو حيوان ، ثم يقود القطيع إلى الطريق المـأمون ، ورغم ندرة النبت هناك وعلو المكان عن حد الثلج بنحو ١٥٠ قدماً قد أحصى القوم من فصائل النبت نحواً من ١٦٧ ، وغالبها ذوات زهر جميل مختلف ألوانه . بعد ذلك يأخذ الخط فى الهبوط بسرعـة عجيـبة ، ويبدأ ظهور شجر الصنوبر القصير المعقد ، ثم يتزايد عدده ويمتـد طوله كلما هوينا ، ثم يجانبه شجر البتولا ذو السيقان الفضية ، وتعود مقاطع الأخشاب ثم منابت الشوفان والشيلم إلى أن نصل برجن وسط فيوردها كثير الشعاب ، وفى هـــذا الخط تتجلى قوى الطبيعة فى وضوح ففى التواء الطبقات وتداخلها بعضها فى بعض بل وانقلابها أحياناً دليل على مبلغ أثر القوة الباطنة فى رفع تلك الأنحاء إبان عصر الجليد ، وفى خفضها عند ما غرقت وديان غرب أوربا وخلفت البحار الضحلة والفيوردات العديدة ، وإن فى كثرة الطبقات الشستية والصخور التى تبدو طوال الطريق لدليلاً على قدم تلك الأصقاع ، أضف إلى ذلك ما يحسه المسافر وهو يسير صعداً من نقص فى درجة الحرارة ، وزيادة فى المطر ، وما يشاهده من اختلاف فى نوع النبات الذى يتدرج من غلات البلاد الباردة



(شكل ٩٤) على رصيف ميناء (جوتنبرج) الصاخبة

إلى الغابات الصنوبرية إلى الأعشاب القصيرة وثلوج التندرا ، يبدو كل ذلك على كلا الجانبين وفى يوم واحد ، وتتوسط هـذا الاقليم هضبة (هردنجر فدا) التى وصفها السائح اليوت الإنجليزى ، وكان أول من عبرها سنة ١٨٣٠ ، بأنها قفار جبلية لا يمكن اختراقها ، وبعـد اثنتى عشرة ساعة ونصف بدت برجن تحوطها الربى من جوانب ثلاثة .

برجن : أقيمت سـنة ١٠٧٠ على لسان من الأرض مختنق نحيل ثم أخذت فى التضخم حتى أضحت أكبر بلاد النرويج وارتبطت مع دول عدة بعلاقات تجارية وثيقة أصبحت بفضلها أكبر الأسواق الشمالية للأسماك ، وظلت أمداً عاصمة النرويج ، وفيها توج أول ملوك تلك البلاد ، وفى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر أخـذت التجارة تتحول إلى أيدى الألمـان الذين فتحوا لهم مكتباً تجارياً بها ، وزاد نفوذهم حتى احتكروا جميع تجارتها خصوصاً تحت نظام الإتحاد الهنسى الذى أسس لحـماية التجارة من لصوص البحر ، وامتد نفوذه حتى شمل البحرين الشمالى والبلطى ، وقد تملك الجانب الأيسر كله من الميناء ، ولا تزال مبانى هـــذا الحى بشكلها القديم ، وهى أجمل ما يسترعى نظر السائح بهندستها



(شكل ٩٥) أمام تمثال جستاف أدلف بجوتنبرج

الغربية ، ولبثوا كذلك قرنين كاملين حتى انفصلت النرويج عن دنمركة ، واستعاد النرويجيون مركزهم تدريجاً ، وفى سنة ١٧٦٣ ابتاعوا آخر دار هنسية ألمانية وأجهزوا عليها ، وظلت برجن أول مدن النرويج إلى القرن التاسع عشر حين بزتها أزلو ، وقد شبت بها النيران مرات أبادت من بيوتها الخشبية شيئاً كثيراً ، وقد ساعد هذا على تجديد بنائها فى نظام هو خير من سالفه على أنها لا تزال تحتفظ بكثير من بيوتها القديمة ، وهى تشبه روما فى أنها تحاط بسبعة تلال زادت مرفأها الجميل بهاء وروعة ويقطنها اليوم ٩٧ ألفاً .

جبت أرجاء المدينة وأوغلت خاصة فى أحيائها القديمة البحتة فإذا بها طرقات مختنقة وأزقة متلوية منحدرة منازلها من خشب وأرضها قد رصفت بالحجر الصغير ويقوم كثير من البيوت فوق الماء الذى قد يوغل فيها بألسن عدة ، والمدينة يعوزها كثير من النظافة ، أهلها فقراء كما يبدو من ملابسهم الرثة ، وكثرة أبناء السبيل والعاطلين من أولادهم .

زرت المتحف الهنسى واسمه أكبر منه فهو كوخ خشبى من طابقين تعرض به أدوات عتيقة من خشب وكراسات وأقلام لبعض رؤساء التحالف الهنسى



(شكل ٩٦) وسط النت الوعير والمناظر الخلابة على ضفاف
قناة حوتا بالسويد

وأمكنة نومهم تحكى صناديق الخشب يدخلها الواحد ويحكم قفلها ، وهى فى شكلها الحقير تمثل مساكن التجار فى ذاك العصر .

ومن أهم ما يسترعى نظر السائح سوق السمك الذى يعقد يومياً فى الصباح فى ميدان فسيح على الميناء يعرض به مختلف السمك على ألواح فى منظر قذر منفر والروائح الكريهة تتصاعد ، وتسيل الدماء والأوساخ على الأرض بشكل تعافه الأعين والقوم من حوله يتزاحمون ولا تخبو ضوضاؤهم وعالبهم فى ثياب خلقة رثة ، هذه برجن نفسها ، أما ما حولها فتلال يكسوها العشب وقصير الشجر بعضه يعلو البعض فإذا ما ارتقيت أحدها تجلت لك روعة الميناء نظمت من حولها المنازل ، وبخاصة إذا أشرفت عليها من ربوة (Floien) التى نصعدها بترام معلق إلى ٣٥٠ متراً وفى قمتها مقهى جميل يضاء ليلا فيبدو من أسفل وكأنه تاج تلبسه المدينة وثريات الخط الكهربائى على المنحدر كأنها عقد أدلى من جيدها . لبثت أعتلى من تلك الربى الواحدة تلو الأخرى حتى أعيانى السير فمدت والمناظر من حولى ساحرة جذابة . ولعل برجن أسوأ بلاد اسكندناوة جواً فسماؤها أبداً غائمة غاضبة



(شكل ٩٧) فى جانب من قناة (حوتا) بالسويد حيث تكون المحدرات وتسخر لتوليد الكهرباء

تسح جفونها مدراراً ، وهواؤها بارد عنيف . أما أهـل المدينة فمقشورو الوجوه ، زرق العيون ، ضخام الأجسام يكثر العمالقة بينهم ، وتلك المميزات فيهم أظهر منها فى زملائهم من أهل السويد وهم ميالون للمسكرات ، يؤيد ذلك كثرة السكارى الذين يجوبون الطرق ليلا ، ولقـد كانت عادة الإدمان منتشرة فى اسكندناوة عموما بدرجة خطيرة ، ولذلك لجأت الحكومة إلى تحديد بيع الخمر بواسطة شركات خاصة قليلة العدد حددت لها نسبة ضئيلة من الأرباح وما زاد يدخل خزانة الدولة ومن ثم قلت تجارتها جداً وزهد القوم فى بيعها ونقص عـدد المدمنين كثيراً ، ويسترعى النظر هناك كثرة الصبية الذين يتسكعون فى الطرق ويجمعون أعقاب السجاير ويدخنونها ، وذلك أثر من آثار فقر بيئتهم وضعف رعاية الآباء عليهم لغيابهم وراء الصيد طويلا .

أعددت عدتى للسفر إلى إيسلندة ، ثم عدت إلى برجن ثانية ومنها إلى أزلو



(شكل ٩٨) أكبر محطة لتوليد الكهرباء من قوة الماء — قناة حوتا بالسويد

وقت مبكراً إلى جوتنبرج ، وكانت تبدو النجاد تجللها الغابات والوهاد تكسوها الخضرة وتزينها الجداول والنقائع ، وما كدنا نبلغ نصف الطريق حتى انفسحت السهول المنزرعة وغابت عنا الجبال فكان المنظر شبيهاً بمناظر حقول مصر المحبوبة وأخيراً دخلنا جوتنبرج بعد سبع ساعات ونصف .

جوتنبرج : أسسها جستاف أدلف أسد الشمال وحامى البرستانتية وما فتئت تمتد وتتضخم حتى أصبحت اليوم ثانية مدن السويد سكانها يناهزون ربع المليون ، وهى تعدل أحسن مدن أوروبا وأرقاها نظاماً وتنسيقاً يسترعى النظر بها نظافتها التامة ، وكثرة متنزهاتها ، وضخامة أبنيتها ، وامتداد مرفئها الذى يغص بالسفن الضخمة ويموج بالحركة التجارية ، والمرفأ لسان من البحر فى غير استقامة تنسلخ عنه سعاب ضيقة فى شكل قنوات تشق أنحاء المدينة ، وأظهرها اثنتان دائريتان إحداهما داخل الأخرى تعبرها القناطر العديدة وتشقها زوارق



(شكل ٩٩) على ضفاف قناة جوتا بالسويد

الرياضة فى غير حصر ، وبالمدينـة عدة ميادين تتوسطها التماثيل التى أظهرها تمثال جستاف أدلف منشئها ، ومن مبانيها الفخمة دار البريد والمتحف الملكى وبه أحسن مجموعة للفن النوردى بفرعيه الحفر والتصوير ، وفى الجزء الشمالى من المدينة تبدأ قناة جوتا المشهورة التى تصل بين أكبر مدينتين فى السويد : ستكهلم وجوتنبرج طولها ٣٤٧ ميلا ثلثاها يتألف من بحيرات وأنهار طبيعية والثلث من عمل الإنسان ، ومجموع الأهوسة التى أقيمت بها ٩٥ بفضلها ترفع السفن إلى علو ٩١ر٥ متراً فوق سطح البحر ، أما المناظر على ضفافها فسحرية تأخـذ بالألباب إذ تراها تحيط بها الربى تكسوها الغابات ، ومجرى القناة بين ذلك ينقبض تارة وينفرج أخرى ، وهو يتمايل بحيث تكاد الأشجار تلمس السفن فى بعض البقاع ، ولقد زرت أجمل أجزائها فى قرية (Throllhattan) تبعد عن جوتنبرج بساعة فى القطار ، هناك ترى المجرى كثير الشعاب تتوسطه الصخور الجرانيتية فى عدة مدرجات وخوانق يندفع الماء خلالها فى شلالات رائعة ومسرعة مخيفة دونها عظمة خزان أسوان ، وقد أقيمت هناك أكبر محطة لتوليد الكهرباء حيث تستغل من

مجموع قوة للمياه البالغة ٢٧٠ ألف حصان كهربائى ١٧٠ ألفاً وحول المحطة أقيمت مجموعة مصانع كبيرة غالبها لصنع الآلات وصهر الحديد الغفل ، وعندها أكبر مصانع العالم لاستخراج السليلوز (خشبين للنسيج) من الخشب ، وتتعدد هنالك القناطر التى تشرف على المساقط المائية الجميلة ، والفرع الخاص بالملاحة قد أخلى من منحدراته وزود بأربعة أهوسة كبيرة جعلته صالحا لمرور السفن التى يبلغ عددها فى السنة خمسة آلاف ، هذا ومجموع المياه التى تتسرب من تلك الأهوسة نحو ١١٠ ألف لتر فى الثانية ، وقد نسق القوم متنزهات بديعة حول هـذا المكان وأقاموا أنزالاً عدة تجعل المقام هنا أمنية كل سائح يود الاستمتاع الكامل والهدوء العميم .

أيسلندة

بلاد الجليد والنار



(شكل ١٠٠) صيد الطيور بالشباك لنزع ريشها — ايسلندة

قامت الباخرة (Lyra) ليرا النرويجية من ثغر برجن الساعة العاشرة من مساء الخميس، وكانت كلما تنحت عن الميناء تبدو المنازل المقامة على سعاب الفيورد وفوق مدرجات التلال بترياتها فى منظر خلاب والجزائر الصخرية الصغيرة تنتثر فى مدخل الفيورد بكثرة عجيبة ، وقد لبثنا نسير بين طيات هذا الجون ذى الجوانب الصخرية المشرفة من حولنا أكثر من ثلاث ساعات بدا بعدها المحيط الاطلنطى ذاك الخضم المائج الرهيب وسرعان ما أخذت السفينة تترنح ، وظلت شدة الموج فى اطراد إلى صباح السبت حين بدت جزائر فارو البركانية فى صخور شاهقة جرداء تكسو بقعاً منها خضرة لا يكاد يستقيم لها عود ، وهى فى مجموعها سبع



(شكل ١٠١) طريقتهم الخطرة فى جمع بيض الطيور من الأوكار

عشرة جزيرة يقطنها عشرون ألفاً ، ومعنى كلمة فارو (الأغنام) فى لغـة القوم : ذلك لأنهـا أغنى جزائر المنطقة بالمرعى وأكبر مدنهـا (Thorshaven) ومبانيهـا أكواخ من خشب تتناثر على حافة المـاء ، وكان الأهـلون يفدون على السفينة فى لهف وشوق كأنهم وجـدوا فى ركابها مؤنساً لهم فى عزلتهم الموحشة ، والبلاد يحكمها وال من قبـل دنمركة يسمونه (Amptman) يعاونه مجلس من أهلها ، وموارد الجزائر قاصرة على السمك وتمليحه و إصداره إلى الدول اللاتينية و بخاصة اسبانيا ، وفى الساعة الثامنة من مساء الأحد ألقت الباخرة مراسيها فى جزائر (فستمانوى) على مقربة من ساحل أيسلندة الجنوبى ، و يقطنها نحو ٣٥٠٠ من الناس ، وهى أكثر صخرية وجدبا من سالفتها يعشش فى أحجارها طير المـاء بكثرة غريبة ، وتسبح أسرابه فوق المـاء زرافات ، وفى مواسم معينة يصطاده القوم لينتزعوا عنـه ريشه الثمين ثم يجمعون البيض من أوكاره ، وتلك تجارة رابحة لديهم .

جدت الباخرة فى السير أزاء الشاطئ الجنوبى لايسلندة ، وكان يبـدو فى سلسلة صخرية وطيئـة تشرف من ورائها أكبر ثلاجات أوروبا (فتناجكول) فى بريق وضاء . و بعد عشر ساعات دخلنا فيورد ركيافك بين ربى شاهقة ، تقام



(شكل ١٠٢) ركيافك عاصمة ايسلندة فى الصيف

المدينة الهادئة على جوانبها الداخلية ، وكان الجو دافئاً مشمساً جميلا أذكرنى بأيام الشتاء الدفئة بمصر على غير ما كنت أتوقع أن ألاقى فى مثل تلك البلاد القاصية .

ركيافك : عاصمة ايسلندة واسمها مشتق من كلمتين معناهما الجون ذو الأبخرة ذلك لكثرة الفوارات التى تصعد البخار من حولها والتى استرعت أنظار أول نزلائها فأطلق عليها هذا الاسم والمدينة صغيرة هادئة تؤوى من السكان عشرين ألفاً وهم خمس سكان الجزيرة كلها ، بها طريقان رئيسيان فى امتداد المدينة و بمحاذاة الشاطىء ، وتقام بها أكبر بيوت السكنى ودور الحكومة والمحال التجارية . أما الطرق الباقية فضيقة غير مرصوفة تعلو وتهبط بين مكان وآخر ، والمدينة على وجه العموم نظيفة خفيفة الروح يمكن للانسان أن يجوب كل أرجائها فى أقل من نصف يوم وذلك ما فعلته أول يوم حللتها . وليس بها من الميادين والمتنزهات إلا شىء لا يستحق الذكر ، وغالب أبنيتها من الحديد المحزع يكسوه الخشب من الداخل ، ومن الغريب أن مواد البناء تستورد كلها من الخارج ،



(شكل ١٠٣) ركيافك فى الشتاء وقد اكتست حلة بيضاء من الثلوج الوضاءة

ولا يستخدم الصخر إلا قليلا رغم كثرته فى البلاد ، ولعل سبب ذلك شدة صلابة صخورها البركانية ورداءة طرق المواصلات وغلوها ، وراقنى من دورها العامة : متحف الفن الجميل ، وبه مجموعة قيمة للمثال والمصور الايسلندى المبدع (أينار جونسون) الذى صمم بناء للتحف بنفسه ، وأقامته له الحكومة ، وبه يعرض منتجاته الفنية وخير ما تتجلى عبقريته فى مبتكراته الطريفة الفكرة ، فكل قطعة تمثل عدة معان رغم صغرها ، وهى فى أسلوب لم يسبقه إليه غيره ، وهو لا يفسر معنى القطع إلا بكلمة واحدة فقط كأن يكتب تحتها (البعث أو العدل أو التطور) ويدع للناس حرية تفسير ما ترمى إليه ، والإنسان لمجرد النظر يستبين مغزاها فى جلاء تام ، والمثال لا يزال يقطن جانباً من المتحف وتمهره الحكومة راتباً شهرياً ؛ هذا وقد سر القوم أن أدون اسمى فى سجل الزائرين كأول مصرى حل تلك البلاد .

بعد ذلك قصدت إلى دار المتحف الأهلى وبه مجموعة قليلة من آثار قديمة

لمختلف البـــلاد ، ومن بينها مصر ، واسترعى نظرى هناك لوحة كتب عليها بالعربية : الجاهل عدوكم ولو كان صديقاً وتحتها حـديثان شريفان وهما : أطلب العلم من المهد إلى اللحد ، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أوليصمت وتحتها إمضاء السعيد المصرى تلميـذ البكرى ، وكان تزاحم القوم حول تلك القطعة كبيراً فكانت هذه فرصة لى أن أشرحها لمن كان يفهم الأنجليزية منهم ، وأحدثهم قليلاً عن مصر ، ولعل أكثر



(شكل ١٠٤) أمام الدار الحديثة للبرلمان المتواضع فى ركيافك

المعروضات قيمة فى نظرى القسم الخاص بالأدوات المنزليـة الخشبية من صنع النورديين الأقدمين ، قصدت دار البرلمان ، ويسمونه (Althing) هو من مجلسين الأعلى وأعضاؤه أربعة عشر ، والأدنى وأعضاؤه ثمانية وعشرون يتقاضى كل واحد راتباً عن كل يوم من أيام دور الانعقاد والدار لا بأس بتنسيقها من الداخل ، وغرفها صغيرة وتحلى بالصور الزيتية ، وزيارة الدار ، وحضور الجلسات ، مباح لجميع الناس طول اليوم ، وهنا تتجلى الديمقراطية الحقه بين أفراد شعب كلهم متساوون نشأوا على حب الحياة النيابية واحترامها منذ القدم ، فبرلمانهم أقدم برلمانات العالم طرا بدأت أولى جلساته سنة ٩٣٠ وظلت تعقد ألف سـنة لم تتوقف خلالها سنة واحدة ، ولذلك احتفل فى يونيه هذا العام بالعيد الألفى فى مهرجان فخم كان يرأسه ملك دنمركة كما احتفل سنة ١٨٧٤ بمرور ألف عام على أول من نزل الجزيرة من



(شكل ١٠٥) فوارة (جرملا) تثور مرة كل ساعتين

الجنس الأبيض ، وقد كان استعمارها على يد بعض النرويجيين الذين خرجوا على حكم (هارالد) بعد أن نصب نفسه ملكاً على النرويج رغم إرادة الكثيرين سنة ٨٧٤ وكثير من أولئك المهاجرين فر إلى الجزائر البريطانية ومنها إلى ايسلندة ، ولذلك حملوا فى عروقهم بعض دم الكلتيين ، ولا تزال لغتهم تبدو خليطا من النرويجية والانجليزية ، وهى عين اللغة التى كانوا يتكلمونها منذ ألف سنة ، وكانت إذ ذاك لغة اسكندناوة .

ومنذ سنة ١٩١٨ أصبحت البلاد ملكية دستورية ذات سيادة يرأس حكومتها ملك دنمركه ، ودستورها الحالى سطر سنة ١٩٢٠ والوزراء يعينهم ملك دنمركة ، لكنهم مسئولون أمام البرلمان وهم ثلاثة . الرئيس ، وهو وزير الحقانية والكنيسة — وهى على مذهب لوثر — ووزير الصناعة والتجارة ، ووزير المالية وإيسلندة دولة محايدة لا جيش لها ولا أسطول والتعليم فيها إجبارى بين العاشرة والرابعة عشرة ، وبها جامعة ينتسب إليها مائة وعشرون طالباً .

أما السكان فهادئو الطباع لا يحملون لبعضهم ضغنا ينظر الفرد إلى غيره نظرة الزميل المساوى له رغم ما قد يبدو من ملابسه الرثة وهندامه الوضيع ، فترى الرث



(شكل ١٠٦) فى قرار كأس بركان خامد (برستولد) أصحى بحيرة آسنة فى ايسلندة

إلى جانب للتأنق جالسين إلى منضدة واحدة فى المقهى ، وسحنهم وإن شابهت سكان اسكندناوة ، إلا أن بها مميزات خاصة كالحمرة الشـديدة والانتفاخ الواضح فى العيون مع اهداب يشوبها البياض ممـا يقربهم لسكان شمال اسكندناوة وجرينلندة ، أما قاماتهـم فكجيرانهم طويلة ، وقد كنت أظن أنى سأجد بينهم كثيراً من الأقزام فإذا بى أنا أبدو قزماً بينهم يؤيد ذلك أنى أثناء جولتى فى أطراف المدينة الساعة العاشرة مساء التف بى جمع من الصبية وهم يحدقون فى وجهى ، ثم أخـذوا يصيحون جميعاً وهم يشيرون إلى (اسكيمو اسكيمو) حتى غبت عن أنظارهم ، وملابس النساء غريبـة تسترعى النظر فهن يرسلن شعورهن فى خصائل تجدل وراءهن ويلبسن على الرأس شبه (قلنسوة) سوداء تغطى ناصية الرأس فقط ولهـا ذؤابات مدلاة كالشعر المستعار إلى جانب جدائل الشعر الذى لا يقصصنه بل يرسلنه ، وعلى أكتافهن تحمل الشيلان الثقيلة السوداء ، ويتزرن بملاءات مزركشة زاهية اللون من الخصر إلى القدم ، أما رداء الصدر فمن القطيفة الثقيلة الموشاة بالنسيج الذهبى فى شىء من الإسراف .

والحكومة تحرم الخمر عدا الجعة المخففة ، ويظهر أن القوم كانوا مدمنين من قبل ، ولذلك ترى الناس يخبئون زجاجات الخمر فى جيوبهم ، ويدخلون المقاهى



(شكل ١٠٧) الأمهار الصغيرة مطية أيسلندة الرئيسية

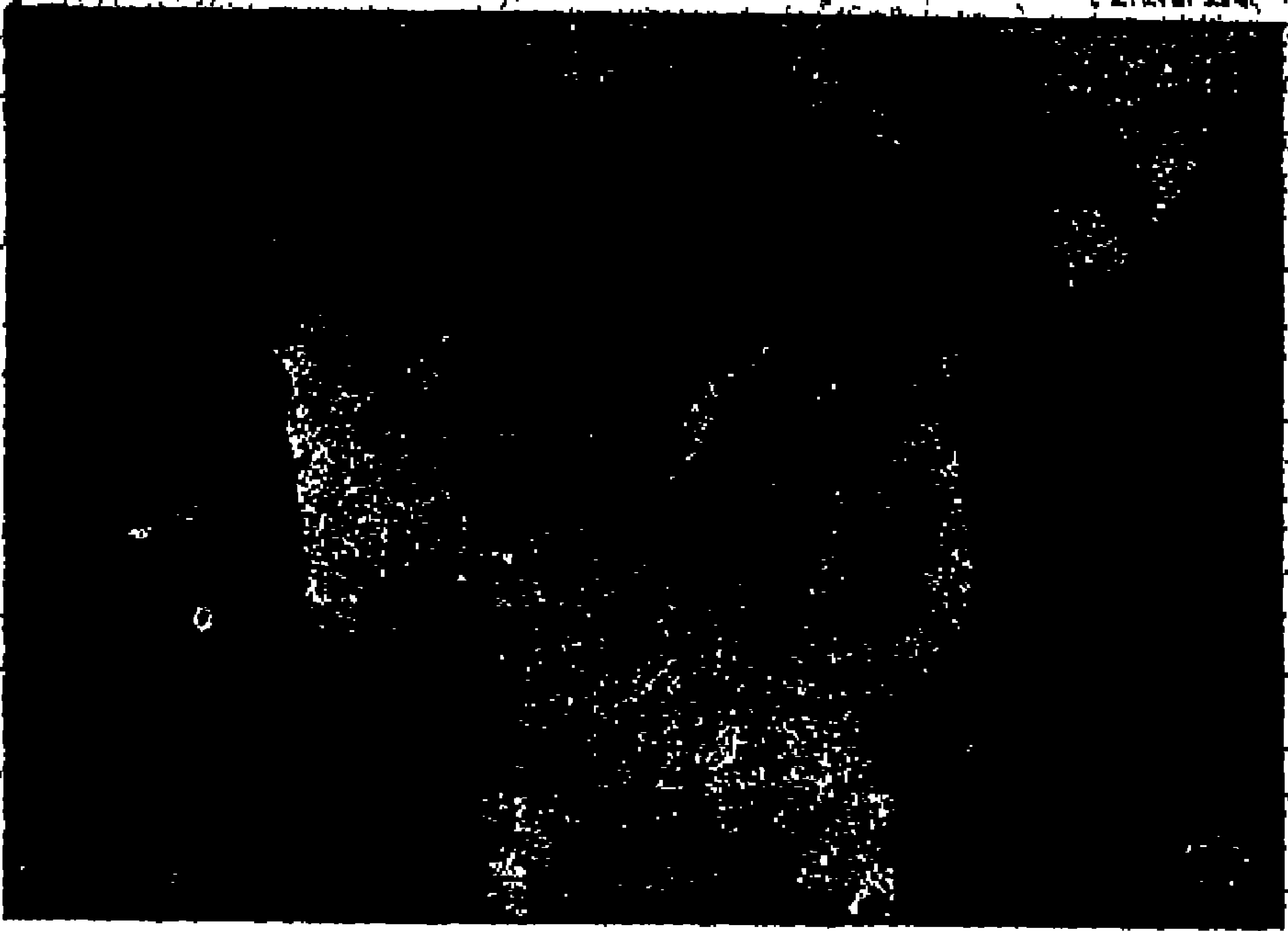
ويطلبون زجاجة الجعة ثم يختلسون فترات يملأون أكوابهم فيها من جيوبهم متظاهرين أنهم يشربون الجعة فحسب وأنت تلاحظ هـــذا فى كل مقهى تختلف إليه .

بعد أن أحطت علماً بالمدينة وما فيها أخذت أقوم برحلات خارجها . وفى هذه تجلت المميزات الطبيعية التى خصت بها أيسلندة ، وأجل تلك الرحلات رحلة جلفس ، وبركان هكلا على بعد مائتى كيلو متر من ركيافك قطعناها بالسيارة ، وما كدنا نخرج من المدينة حتى انفسحت أمامنا متسعات من الأراضى البركانية يكسوها البازلت والصخر البركانى المثقب وهى تعلو وتهبط ويكسوها فى المنخفضات فتات البازلت الذى ينمو به قصير العشب ، ومن بينه طحلب أيسلنده المشهور فى تغذية الأغنام وفى تركيب بعض الأدوية ، وبخاصة الحبوب لشفاء السعال ، وكنا طوال الطريق نرى الأبخرة تتصاعد من الجهات المجانبة لنا فى فوارات لا حصر لها بحيث لا يمكن أن تنظر فى دائرة الأفق ولا ترى بعضاً منها ، ومن أعظمها شهرة



(شكل ١٠٨) قاطرة البريد من الأمهار فى ايسلنده
والرجل ينبه القرية بناعورته وكأنه قطار السكة الحديدية

جريلا (Gryla) الذى يثور مرة كل ساعتين ، وقد وقفنا بجانبه قليلا فهالنا منظر انفجاره حين ثور ، وعلا بخاره إلى عنان الجو ، وكان ماؤه الحار المتفجر إلى علو يناهز عشرة الأمتار يتدفق إلى جوانبه ثم يعود بعضه فيهوى إلى أعماق الشقوق إذا ما هدأت الفوارة . استأنفنا السير فى تلك القيافى شبه الصحراوية التى تبدو لا نهائية حتى استوقفنا مخروط بركان (تراسترلاند) الخامد فصعدناه ونزلنا كأسه التى أضحت الآن بحيرة آسنة ، وكان مخروط (هكلا) يبدو عند الأفق قبالتنا وهو ليس من العظمة كما كنا نتصور ، إذ أن (فيزوف) يفوقه روعة وجلالا ، غير أن مكان هكلا أكثر وحشة وأشد صلابة وجدبا إذ تجانبه الوهاد والنجاد تكسوها اللافا الجامدة فى غير نظام . وهو الآن خامد الأنفاس ولا يمكن الوصول إليه بالسيارة بل لا بد من ركوب الخيول الصغيرة (Ponies) المنتشرة فى جميع أرجاء أيسلنده بكثرة مدهشة والتى تسير فوق الصخر بثبات عجيب وسرعة مخيفة حتى فى الظلام ، وهى مطيتهم الرئيسية حتى فى طرق العاصمة ووسط ساحاتها القليلة . ولا يزال ينقل البريد على متونها بين القرى وهى تسير فى قافلة عديدة الأمهار .



(شكل ١٠٩) شلال جلفس (نياجرا ايسلنده)

وصلنا شلال (جلفس) بعد أن عبرنا عدة مسايل مائية ، وهذا الشلال يعد من أكبر شلالات أوروبا وأجملها . غور مسقطه خمسة عشر متراً ، وذروته تبدو فى شكل منحدرات سريعة غير منتظمة يرغى عندها الماء فى منظر جميل ثم يهوى إلى أسفله فى شكل قوس تتوسطه صخرة تبرز فوق الماء كأنها الجزيرة . وفى قرار تلك الهوة يضطرب ماؤه ويعلوا رذاذه فيخيم فى سحابة يصيب المرء بللها على بعد عشرات الأمتار ، وترى بها أقواس السماء بألوانها الجذابة مادامت الشمس مشرقة وهذا اللون أكسبه اسم (Golden falls) أو الشلال الذهبى وأخيراً يدخل الماء فى خانق وسط الصخر الأسود يتلوى ويمتد عدة كيلو مترات ، منظر بديع رائع مكثنا فى جنباته ثلاث ساعات كاملات ولم نشف منه غلة ، ولولا أن أكفهرت السماء وسح المطر لما برحناه ، وهو فى شكله العام شبيه نياجرا ، ولذلك يطلق عليه أحياناً اسم (نياجرا ايسلنده)

بدأت العودة إلى ركياقك فى طرق متلوية وعرة كانت سبباً فى انفجار



(شكل ١١٠) على حافة (جلفس)
مايسلنده ويظلنا رذاذه

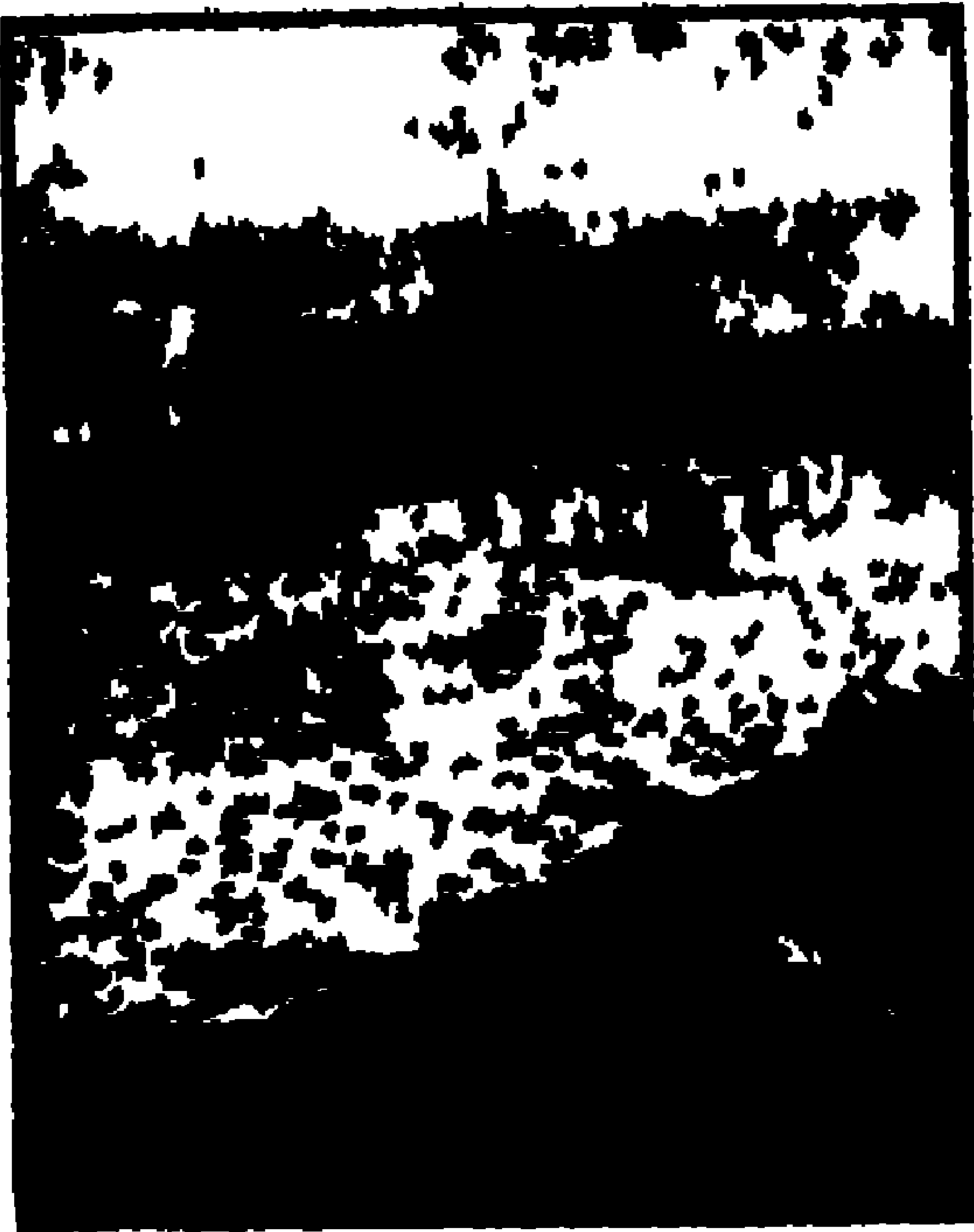
إحدى عجلات السيارة التى لبثنا نصلحها ساعة كاملة وسط المطر الهاطل والبرد الزمهرير ، وما كدنا نسير قليلاً حتى وقفت إحدى البطاريات عن العمل ولم تستطع السيارة إرتقاء بعض الطرق الصاعدة ذات الليات والمطاوى العجيبة فلجأنا إلى نزل صغير فى الطريق (وأمثال هذه كثيرة هناك) ، وطلبنا سيارة أخرى بالتليفون وصلتنا بعد ساعتين ، وفى الساعة الحادية عشر مساء كنا على أبواب ركيافك ، وكان ضوء النهار واضحاً بحيث تسهل القراءة فيه لأن الظلام هنا نادر بين يونيه وأغسطس حين يظل الضوء بعد الغروب إلى أن يتصل بضوء الفجر صباحاً ، وقد كنت أكتب مذكراتى هذه الساعة العاشرة مساء ، ولما تغرب الشمس بل كان شعاعها الذهبى يكسو أعالى المنازل .

وكثيراً ما يضايق هذا الضوء المتواصل السائحين ويقلق راحتهم فى النوم ، أما الأهلون فقد اعتادوه . على أنك لا تنسى أنهم إبان الشتاء وبخاصة فى ديسمبر ويناير يدفعون ثمن هذا غالياً حين لايرون ضوء الشمس إلا ساعة أو ساعتين ، وضوء الشفق إلا ثلاث ساعات أو أربع ، فكأنهم يلبثون أيامهم هذه فى ظلام دامس يزيده ضغثا ما يصحبه من برد زمهرير .



(شكل ١١١) على صخرة القانون
حيث عقد أول برلمان فى الدنيا

رحلة ثنجفلر : وهو المكان الأثرى التاريخى الذى كان يعقد فيه برلمان ايسلنده أقدم برلمانات العالم ، أما الطريق إليه فناص بالفوارات ذات الأبخرة المتصاعدة ، وبمسايل المياه ذات الجنـــادل والشلالات والخوانق ، وبسهول اللاقا البركانية التى تنبسط إلى مد البصر ، والمكان نفسه شعرى فى تكوينـه ترى به كتل اللافا ومدرجاتها تتشعب فى نواحى عدة تشقها الخوانق بعيدة الغور دافقة للماء ذات الجنادل والشلالات الرهيبة والوهاد والنجاد تتعدد من حوله فتكسبه تنويعاً يذهب بالملل ، وتحت إحدى الشرفات البركانية هناك ترى ربوة نحت القدماء مقاعد الأعضاء فيها ، ولا يزال يرى بعضها متهدماً ويتوجونها باسم (Logberg) أى صخرة القانون التى لبثت أكثر من ثمانمائة سنة مقراً تعقد فيه الجمعية الوطنية ، ثم نقلت بعد إلى دارها الجديدة فى ركيافك ، وكان سكان ايسلنده يفدون من كل فج لسماع ما شرعته الجمعيـة من قوانين تقرأ عليهم من فوق الربوة ، فتردد الشرفة الشاهقة من خلفها صدى الصوت مكبراً فيسمعه الجمهور المحتشد فى السهل من دونها ، وبعـد أن تصادق الأغلبية على ما سمعت ينصرف الناس ، ويثابر الأعضاء على اجتماعاتهم هناك وتحضير مشروعات القوانين للسنة المقبلة ، وهنا أقيم مهرجان العيد البرلمـانى بمناسبة مرور ألف عام على هذا



(شكل ١١٢) شواطئ ركيامك وقد فرشت بالسمك يعده اعدوم فى شاطئ عجيب

النظام التشريعى الديمقراطى ، وحضره خلق كثير من جميع بلاد العالم بلغ عددهم يوم افتتاح الحفل ستة وثلاثين ألفاً من بينهم كثير من الأمراء والوزراء ، وكان غالب السائحين يأوون إلى مجموعة الانزال والبيوت الخشبية الصغيرة التى أقيمت هناك بحيث كان يخيل للانسان أنها مدينة ثابتة تموج بجماهير السكان .

أتممت تطوافى فى نواحى المدينة بشىء من التنقيب فراقتنى بها بحيرة ضحلة ترصف جوانبها و يتخذها القوم مسبحاً فى الصيف و إذا ما حل الشتاء جمد ماؤها فأصحت ملعبهم المحبوب يمرحون فوقها بمزالقهم . والانزلاق فوق الجليد خير ألعابهم الشتوية التى تنشط جسومهم وتدفئها ، وقد أقاموا حولها مخازن للثلوج التى تنفعهم فى اعداد السمك والتى يكسرونها من البحيرة ، وعجيب أن يستوردوا الثلج أحياناً من انجلترا . ولما أن قاربت شاطئ البحر رأيت القوم نساء ورجالا وصبية يعدون محصولهم من الأسماك ، فبعضهم ينشره للتجفيف . والبعض ينظفه و يعده للتمليح ، والبعض يجمعه فى كومات كأنها التلال تغطى بالأقمشة الثقيلة . ثم تعبأ بعد فى الصناديق ، ومهنة الصيد واعداد السمك على اختلاف أنواعه هى المورد الرئيسى للبلاد ، ولذلك تجد أغنياءهم ومتوسطى الحال منهم يمتلكون زوارق ويستأجرون الفقراء ليخرجوا بها للصيد لحسابهم فى مواسم معينة . بعضهم إلى فيوردات شمال ايسلنده وغربها ، والبعض إلى بحار جرينلندة التى تبعد عن بلادهم



(شكل ١١٣) أكاد أختنق وسط بخار الفوارات التي يستخدمها
أهل ركيافك في الغسيل والتدفئة

بمائتي ميل فقط ، ويقال إن سمك ايسلنده المعروف بالتروت (Trout) وبعض حوت (الكود) فيها هو أجود أنواعه في الدنيا ، ولذلك ليس بعجيب أن تكون صادراتها من الأسماك نحو مليوني جنيه من جملة الصادرات التي تبلغ مليونين ونصفاً من الجنيهات كل سنة ، وأنت ترى الأطفال إلى شاطئ البحر يصيدون السمك ويشقون جوفه ويستخدمون أحشاءه طعما لغيره ، ويحفظون السمك في صفائح نظيفة ، وقد رأيت طفلا وفي جعبته نحو العشرين سمكة يزيد طول الواحدة على قدم ، وهو ما زال يثابر على صيده ولم يعدُ العاشرة من عمره ، وطبيعي أن يصبح السمك أشهى طعام لديهم يطهى على أشكال منوعة ، وأينما حللت قدم إليك ويغلب أن يكون مسلوقا وإلى جانبه إناء من الزبد السائل وآخر من البطاطس المسلوق ، وقد كان هذا من سوء حظي لأنني أعاف السمك على وجه العموم .

أدى بي السير في الأطراف القاصية من المدينة إلى الفوارات التي يستخدم القوم ماءها الحار في غسل ملابسهم ، وقد أقيمت حول العيون التي لا تحصى شباك الحديد كي تقي الغاسلات أن يهوين إليها والبخار يتصاعد من جميع جوانبها



(شكل ١١٤) خبز العجين (بالمرادل) مدفون فى الأرض الساخنة فى ايسلنده

إلى عنان السماء وتسمى تلك الجهة فى عرفهم (لوجارنار) ولكثرة ما يصعد من بخارها بدأ القوم يمدون الأنابيب المحكمة لنقل البخار إلى المدينة واستخدامه فى تدفئة المساكن ، وقد بلغ من استفادة بعض السكان من تلك الحرارة أنهم يطهون لحمهم وينضجون خبزهم بواسطتها ، كأن يوضع اللحم أو العجين فى إناء ثم يدفن أسفله فى الأرض فلا تلبث الحرارة أن تؤتى أثرها فيه وتنال منه كثيراً .

وعجيب أن يطلق على تلك الجزيرة إسم أيسلنده أو أرض الجليد ، ولقد كان من نكد الطالع — كما خبرنى أحد أبنائها — أن حملت هذا الاسم الذى يناقض الواقع وينفر السائحين أن يختلفوا إليها ، وتلك التسمية ترجع إلى سنة ٨٦٥ حين حلها أول أبناء الجنس الأبيض المسمى (فلوكى فلجردارسون) من النرويجيين ، نزل فيورد (برايدا) فى الشمال الغربى من الجزيرة ثم تخطاه شمالاً فانكشفت أمامه أجوان تغص بالجليد دهمت قطعانه صحية بردها القارس ، لذلك وصم الجزيرة كلها بهذا الاسم المنفر رغم أنها أصبحت فيما بعد مقره ووطنه . والجزيرة تبعد عن النرويج بنحو ٩٥٠ ك م ، وعن جرينلنده بنحو ٢٣٠ ك م ، ومن مساحتها



(شكل ١١٥) الشفق القطبي وكأنه ستار من نور في ايسلنده وشمال اسكندناوه

البالغة ١٠٥ ألف ك م ^٢ ، ١٣ ألفاً تكسوها الثلاجات والجليد الدائم و ١١ ألفاً من ميادين اللافا البركانية وسبعة آلاف من المنخفضات والباقي نجاد وجبال .

وايسلنده غنية بالمناظر الطبيعية المنوعة والظواهر الفلكية الرائعة في مقدمتها أضواء الشفق القطبي (Aurora) التي يعجز البيان عن وصفها فهي إذا ما ظهرت — ويغلب أن يكون ذلك في أخريات الصيف عند ما يطول الليل ويسوّد ظلامه — أسدلت على قبة السماء ستاراً من ضوء متوهج تتدلى أهدابه وهي تتحرك في ألوان قوس السماء الخاطف ، ويعزو بعض العلماء سببها إلى الاضطراب المغناطيسي الذي يعرو الأرض عند ما تواجهنا بعض البقع الشمسية ، وتصعد ذرات دقيقة مكهربة تصل الأرض ، وينشأ عنها هذا التوهج وأكثر ما يكون عند القطبين المغناطيسيين .

إلى ذلك يضاف جمال الألوان السماوية عند مغرب الشمس ومشرقها فما تكاد تتعاقب الألوان البديعة عند الغروب خلال ساعة أو ساعتين حتى يرى الأفق الشرقي وقد بزغ نوره في ألوان جديدة وضاءة تغاير سابقتها بحيث لا يستطيع المرء أن يميز الفارق بين الصباح والمساء . أما المناظر الطبيعية الشائقة الرهيبة ففي مقدمتها ميادين اللافا والسدود البركانيــة التي تدل على مبلغ أثر برودة الجو ومفاجأتها للحمم المتوهجة عند ما كانت تلفظها شقوقها وبراكينها التي تبلغ المائة



(شكل ١١٦) بركان (كتلوجوسيد) الرائع — ايسلنده

عدداً ، و يزيد تلك جمالاً وروعة ما يتخللها من شقوق وخوانق أضحت اليوم نهيرات صيقة متلوية بها كثير من الجنادل والشلالات والبحيرات الراكدة التى تملأ كئوس تلك البراكين الخامدة ، نذكر على سبيل المثال من الشلالات (Dettifoss) من أكبر شلالات أوروبا ، ومدى غوره ٣٣٠ قدماً ، و يتوسط نهير (Jokulsa) الذى يصب فى شمال الجزيرة و يستمد ماءه من ثلاجة (Vatna) فى جنوب شرق الجزيرة .

ومن البراكين نذكر أيجا جالا أول ما يراه السائح وهو مقبل على الجزيرة من الجنوب تجلله الثلوج الوضاءة ، و بركان كتلوجوسيد ثم بركان (Askja) الذى روع الجزيرة كلها بثورته سنة ١٨٧٥ وغطى نصفها الشرقى بسحابات كثيفة مظلمة من دخانه وشظاياه ، وفوهته من الكبر بحيث تتسع لإقامة مدينة تؤوى نصف مليون من الأنفس وتحف بها الفوهات الصغيرة القديمة . ومن ثلاجات



(شكل ١١٧) الفوارة الكبرى (ستركور) بجوار ركياهك

ايسلنده ما يذوب جليده فيملأ الأودية ، ويطرد ماؤه ألسنة الجليد إلى أعلى بقوة قد تكسر كتلاً منه تهوى إلى الوهاد المجاورة وتلحق بها أضراراً جساماً .

وبالجزيرة كثير من العيون الكبريتية أشهرها يقع إلى جنوب ركياڤك ، وفى شمال الجزيرة وفى بعضها يصعد الكبريت ثم يتدفق فى الشقوق المجاورة يعلوها البخار الكثيف ويكسو المنطقة بصبغة منوعة الألوان ، وإلى جانبها ترى عيوناً تقذف بالأوحال الحارة ، وكل أولئك له علاقة بالبراكين القريبة إذ لوحظ أنهما تزيد نشاطاً عند ماتهدأ الحركات البركانية وتهدأ إذا نشطت تلك البراكين . وهـــذا يشبه تمـاماً مارأيته فى عيون سلفتارا الكبريتية شمال نابلى بإيطاليا ،



(شكل ١١٨) ايسلنده أرض الجليد والنار معا : إذ نرى بخار الفوارات قد شق له منفذاً وسط الجليد

هى تنشط إذا هدأ فيزوف والعكس بالعكس .

أما فوارات الماء الحار فتفوق السبعمائة عداً . وايسلنده أغنى بلاد العالم بها ، على أن أكبرها (Strokkur) إلى شرق ركيافك قد أضحى خامداً لا حراك به منذ أن وقع زلزال سنة ١٨٩٦ لكنه يحاط بما لا يقل عن خمسين من الفوارات الصغيرة ، و بعض فوارات ايسلنده يصعد بخاره من وسط الثلوج فيجمع بذلك بين النقيضين .

تلك بعض المميزات التى خصها بها الطبيعة رغم صغرها وكأنها قد أشفقت على أهلها فى موطنهم النائى الذى يمس الدائرة القطبية فسخرت لهم جانباً من تيار الخليج الدافىء الذى يضرب فى سواحلها الجنوبية والغربية فيقيها شر طغيان



(شكل ١١٩) وسط جزائر فستماوى بين دكتور المانى وطالب ايسلندى

الثلوج عليها من البحار القطبية ، ولذلك أمنت مياه ثغورها الجنوبية والغربية من التجمد حتى فى أقسى أيام الشتاء ، ويرى الكثيرون أن ايسلنده مصحة صيفية (وبخاصة فى يوليـه وأغسطس) لأن هواءها رائق قليل الأوساخ بفضل ندرة سكانها وإقفارها من الشجر وانتظام هبوب الرياح العكسية التى تجدد لهـا هواءها ، ولطول أمد ضوء الشمس صيفاً ذاك الضوء الذى يظل فى المتوسط عشرين ساعة كل يوم ، ويطهرها من الأدران والأوبئة ، إلى ذلك تضاف بعض المركبات المعدنية المفيدة التى تصعدها فواراتها العديدة وأوزون البحر الذى تأتى به أنسمتها البليلة .

أقلعت بنا الباخرة ايرا عائدة إلى برجن وما كادت تخرج إلى عرض المحيط حتى أخذت تتمايل واشتد من حولها الموج وعاودنى وكثيراً من المسافرين مرض البحر فلزمت مرقدى حتى رست على جزائر فستماوى فى صباح اليوم التالى ، وظلت راسية ست ساعات تحمل وسقها من الأسماك وقد جبت أنحاء الجزيرة

ذات الصخور المشرفة والبراكين الخامدة التى تسلقنا أحدها بعد جهد كبير ، ثم عدنا إلى الباخرة واستأنفت سيرها وألقت مراسيها فى جزائر فارو ساعة واحدة ثم برحتها وكان البحر هائجاً يكاد موجه يخلع الأفئدة ويهد قلب الشجاع ، بلغ من شدته أن كان بعض رفاق على سطح الباخرة فعلت موجة سطح السفينة وغسلتها ، ودفعت بصاحبي ومن معه إلى الجانب الآخر منها وصدمته صدمة ألقت بنظارته إلى اليم وكادت تودى بحياته ، والحق أن عظمة البحر المائج وروعته لتثير فى الإنسان مشاعر سامية حين تتجلى القدرة الإلهية و يتضاءل جبروت الإنسان أمامها وتعوزه الحيلة رغم ما أوتى من ذكاء وفطنة ينظر من حوله فلا يرى إلا الماء الغاضب يمتد إلى الآفاق وقبة السماء تنطبق عليه والسفينة بينهما لا حول لها ولا قوة تحت رحمة المقادير تأتى بها ما تشاء . موقف يزيد إيمان المرء و يوثق اعتقاده فى الله جل وعز . لبثت طوال أيام العودة ملازماً الفراش لم أتذوق خلالها طعاماً ولا شراباً فكانت أياما مريرة علىّ ، وما كادت شواطىء النرويج تبدو على بعد حتى عاودتنى الحياة ، وهنا ذكرت موقف كولمبس ورجاله وأحسست بما شعروا به حين أن كاد ييئسهم غياب البر عنهم أمداً طويلا .

أخيراً دخلنا فيورد برجن وابثنا نسير فيه ثلاث ساعات ، وقد غيرنا زمن ساعاتنا فى تلك الرحلة مرتين الأولى عند الوصول الى جزائر فارو حين كان زمنهم يتقدمنا بساعة كاملة زدناها نحن فى ساعاتنا ، والثانية عند ما وصلنا برجن هذا فى الإياب ، وقد فعلنا عكس ذلك فى الذهاب .

إلى هنا أختتم كلمتى راجياً أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه من إعطاء حضرات القراء فكرة صادقة عن أوروبا فضائلها ومثالبها لعل لنا فيها أسوة وعبرة ، والله ولى التوفيق ؟

﴿ تمت بحمد الله ﴾

فهرس الكتاب

فهرس الخرائط والصور

الجولات المطبوعة للمؤلف

جولة في ربوع أوروبا

بين مصر وايسلندة

عن طرائف المدنية الأوروبية ومشاهدها ونظمها الاجتماعية

جولة في ربوع آسيا

بين مصر واليابان

عن بدائع الشرق الأقصى ومدهشاته (اليابان والصين والهند الخ)

جولة في ربوع افريقية

بين مصر ورأس الرجاء الصالح

من عجائب القارة الغامضة وغابات جوفها وأسرار همجها وأخطار وحوشها

جولة في ربوع الشرق الأدنى

بين مصر وأفغانستان

عن مميزات بلاد إيران والعراق والأفغان والأناضول والشام

جولة في ربوع الدنيا الجديدة

بين مصر والأمريكتين

مطبوعات مكتبة النهضة المصرية

اسم الكتاب	اسم المؤلف
الانجليز فى بلادهم	للدكتور حافظ عفيفى باشا
أديب	« طه حسين بك
حافظ وشوق	« « « «
الشوقيات — الجزء الثالث	للمرحوم أحمد شوقى بك
مناجاة	للأستاذ حسين عفيف المحامى
وحيد	« « « «
جولة فى ربوع أوروبا	للأستاذ محمد ثابت
« « « آسيا	للأستاذ محمد ثابت
« « « إفريقيا	للأستاذ محمد ثابت
« « « الشرق الأدنى	للأستاذ محمد ثابت
« « « الأمريكتين	للأستاذ محمد ثابت
حياة الفراعنة	للأستاذ محمد صابر
من غور المحيط	« يوسف فهمى
الجمعة اليتيمة	للدكتور سعيد عبده
باب القمر	للأستاذ ابراهيم رمزى
نابليون	« يوسف تادرس
عودة الروح (جزءان)	« توفيق الحكيم
محمد	« « «
المطبخ الشرقى	للآنسة بسيمه زكى
مداعبات عفريت	للأستاذ فهيم حبشى
جهاد الأمم فى سبيل الدستور	« محمد شوكت التونى
فتوحات العلم الحديث	للدكتور فؤاد صروف
أساطين العلم الحديث	« « «
الأمراض التناسلية	« يوسف عبد العزيز حموده
رعاية الطفل	« أحمد خليل عبد الخالق
كليلة ودمنة بالصور	للمرحوم محمد عبد الرحيم ترة